

زوجة الساحر

برايان مور



ترجمة

هشام ممدوح طه

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش





مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

نائب مدير التحرير
وجدان حامد

الإدارة

القاهرة. ١٦ شارع محمد
عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
.تلغرافيا: المصور. القاهرة
ح.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٢٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription__dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ٤٠٠ ليرة –
لبنان ١٢٠٠٠ ليرة –
السعودية ٢٠ ريالا–
الأردن ٤ دينار–
فلسطين ٤ دولار–
العراق ٤٠٠٠ دينار–
البحرين ٢ دينار–
قطر ٢٠ ريالا –
الكويت ٢ دينار–
الإمارات ٢٠ درهما –
سلطنة عمان ٢ ريال–
اليمن ٨٠٠ ريال –
الجزائر ٣٠٠ دينار–
تونس ٨ دينار–
المغرب ٦٠ درهم –
إيطاليا ٨ يورو–
سويسرا ١٠ فرنك–
المملكة المتحدة ٧ جك–
أمريكا ١٦ دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٤٤ جنيها داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٠ دولاراً – أوروبا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولاراً – أمريكا وكندا والهند ٢٥ دولاراً – باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الاشتراكات بخطاب مسجل، كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

باكين

الكتاب: زوجة الساحر
المؤلف: برايان مور
ترجمة: هشام ممدوح طه
التصنيف: رواية
الناشر: روايات الهلال - دار الهلال
التاريخ: مارس ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٥٢٥٧/ ٢٠١٧

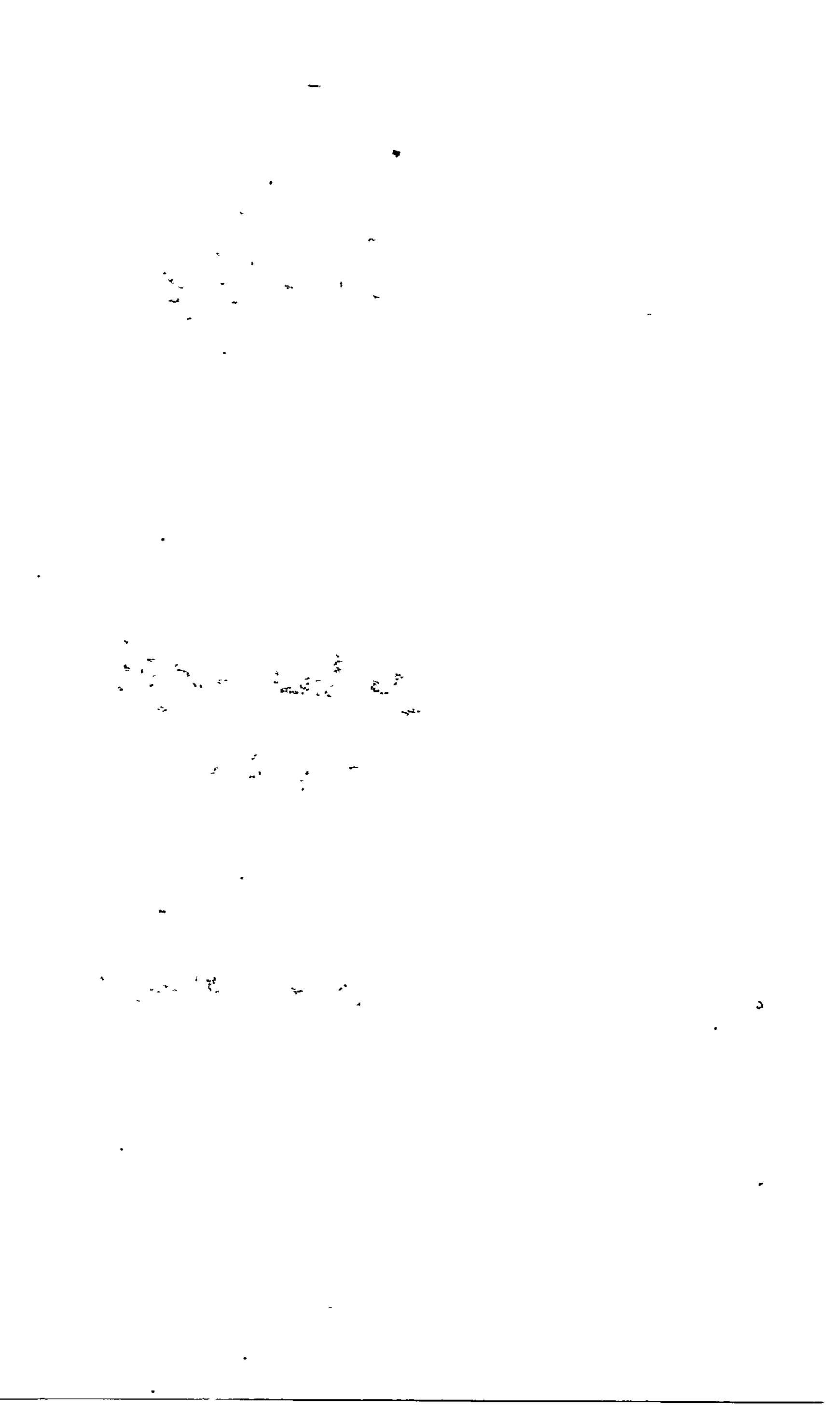
الترقيم الدولي: 6-1821-07-977-978

روايات الهلال

زوجة الساحر

برايان مور

ترجمة: هشام ممدوح طه



الجزء الأول

فرنسا ١٨٥٦



الفصل الأول

غادر الكولونيل المنزل فى الساعة الخامسة. وبينما اندفعت العربة التى تقله نحو البوابة الرئيسية للخروج، وضعت إيميلين قطعة التطريز وذهبت لتستطلع الأمر من وراء نافذة غرفة الجلوس. ساءلت نفسها بشأن هذا الزائر. لا بد أنه شخص مهم. كان زوجها قد احتجب عن رؤية أى شخص على مدى الأسبوعين الماضيين وظل حبيس حجرة شغله وأصدر تعليماته بألا يزعجه أحد. وعند وصول عربة الكولونيل إلى البوابة، تحركت دمية ميكانيكية على هيئة حارس مطلى الملامح ومزود بعجل خارجا من مبيته فى مشية مترجرجة، قدماه تسيران على مسار كهربائى ثم اقترب ولمس مفتاح البوابة. انفتحت البوابة، رفع الرجل الآلى ذراعه اليمنى على نحو متصلب مؤديا التحية. وبعدما اجتازت العربة الأسلاك الشائكة المخفية والموضوعة أمام المدخل، بدأت البوابة فى الانغلاق. أخذت العربة تمضى بعيدا وسط جدار من غبار فى الطريق



المؤدى إلى بلدة «تور»، عندئذ تدحرج الرجل الآلى عائدا إلى غرفته ودوى جرس كهربائى فى أرجاء المنزل معلنا رحيل الزائر. سمعت بعد لحظة جرس آخر. نظرت إلى لوحة الأجراس المثبتة فى حجرة الجلوس الخاصة بها. سيكون الجرس موجها لجول. سرعان ما سيصعد جول الدرج ليخبرها أن السيد لا يستطيع ترك عمله للانضمام إليها على العشاء.

انقضى أسبوعان منذ أن وصل تمثال ميكانيكى حسب ميعاد متفق عليه مع الورشة، حيث أفلح صنائعية زوجها فى تركيب التمثال وفقا للمواصفات التى حددها زوجها بالضبط. لكن كان هناك خطأ ما فى آليته. كانت يد الرجل الآلى، المفترض فى أنها ترسم رسوما ذات خطوط خارجية فقط باستخدام الحبر على صفحات من الورق، تتصرف بشكل معيب، فلم يصدر عنها سوى سلسلة من الشخابيط. وبدأ من فوره فى تفكيك الرجل الآلى على النحو الذى لا يألو جهدا والمستحوذ عليه، كما هى الحال دائما عندما يظهر عيب ما على دمية. لم يكن هناك سبيل للتناقش معه، ولا يعنى هذا أنها لم تحاول. لم يعد يعتبر نفسه ساحرا. إنه منذ الآن يعد مخترعا، عالما. لكن هل العالم الحقيقى يقضى أيامه يصنع دمى ميكانيكية؟

صلصل جرس على اللوحة فوق رأسها. سيكون هذا جول. سارت نحو مكتبها وضغطت على زر. انفتح الباب كهربائيا.

– «عذرا يا سيدتى. سيدى يرسل تحياته ويطلب لقاءك فى الصالون إن كان هذا مناسبا».

– «أخبره بأننى موافقة».

وبمجرد مغادرة جول الحجرة أغلق شعاع كهربائى الباب آليا. سارت نحو منضدة الزينة وجلست أمام المرآة الثلاثية وبدأت فى تصفيف

شعرها. كانت تخصص جزءا كبيرا من وقتها فى عملية التصفيف هذه، كانت تؤديها ثلاث مرات يوميا، تشد فروة شعرها الطويل الكثيف وهى تعد ضربات الفرشاة. كانت تتساءل أحيانا فى تلك الأيام ما إذا لاحظ أنها لم تعد تكحّل عينيها أو تضع مستحضرا لتحمير خديها إلا فى المرات النادرة التى كانا يتناولان عشاءهما فى الخارج. وحتى فى هذه الحالة، ما جدوى ارتداء ملابس رسمية ومحاولة التجمل؟ كان الأمر كما هو دائما: حين يدخلان حجرة يوجه الناس نظراتهم إليه، لا إليها، هو أونرى لامبير الشهير- وهى؟ هل يمكن لى أن أسألك يا مدام لامبير ما هو شعورك وأنت متزوجة من ساحر عظيم؟ لا بد أنه أمر مثير أن تكونى زوجة [1] لرجل كهذا؟

فى البدء كان الأمر مثيرا. كانت سعيدة لترك مدينة روان من أجل متع باريس. عاشا فى القسم السابع من العاصمة فى شقة مجهزة قال لها إنها هدية من أحد معجبيه. كما كان يمتلك ورشة فى نويي حيث استقدم ثلاثة من الصنائعية وكلفهم بتصنيع وطلاء الرجال الآليين والأجهزة الكهربائية، ومسرحا صغيرا بالقرب من القصر الملكى حيث كان كل موسم يقدم «أمسياته السحرية» ذائعة الصيت. اصطحبها معه فى أول عامين من الزواج فى سفرياته إلى الخارج، الأولى لبرلين والثانية إلى مدريد. استمتعت بمشاهدة هاتين المدينتين وتمنت أن تشاهد مدنا أخرى. لكن بعد وقوع أول سقوط لحملها قرر لامبير أنه لم يعد يتمنى أو هو فى حاجة إلى الاحتفاظ بمسرحه فى باريس أو السفر فى جولات لدول أجنبية. قال لها «لقد صنعت اسمى كرجل استعراضى منذ وقت

(١) زوجة: الصحيح زوج للأنثى والذكر والجمع أزواج للجنسين. آثرت أن أتركها على خطئها منعا للالتباس.

طويل. والآن حان الوقت أن أخصص المزيد من الوقت إلى اختراعاتى. وبالتالى يا عزيزتى قررت أن نعيش فى الريف يحيط بنا الخدم وكل أسباب الدعة فى منزل يمكننا أن نربى أولادنا فيه وأستطيع العمل فيه دون إزعاج».

وعلى الفور، بنفس أسلوبه المتكتم، اشترى ضيعة وأثثها خارج بلدة تور بدون حتى أن يجعلها ترى المبنى. وهكذا، عندما دخلت «مانوار ديه شن» للمرة الأولى وهى تعلم أنها ستكون منزلها سعدت وتوجست وأصيبت بخيبة أمل. سعدت لأن الحجرات كانت أكبر وأفخم من تلك الموجودة فى منزل والديها، وتوجست من المعروضات الغريبة، وأصيبت بالخيبة لأن الضيعة فى نهاية طريق ريفى يوصل إلى بلدة تور، وهى بلدة مملة بعيدة عن باريس. شعرت بأن المنزل أقرب إلى متحف مسرحى من كونه منزلاً ريفياً. امتلأت كل حجرة تقريبا بصناديق سحرية، ونصب مسرح عرائس كبير فى القاعة الرئيسية وأضيئت خشبته كهربائيا ووضعت على الجدران لوحات بورتريه لسحرة من أيام سالفة وملصقات ضخمة موضوعة فى إطار لعروضه الملكية أمام ملكة إنجلترا، إمبراطورة روسيا، الملك لويس فيليب والإمبراطور نابليون الثالث. بالإضافة إلى رنين ودق اثنتين وأربعين ساعة، كان يوجد معزوفة أجراس كهربائية تدق على الدوام بنغمات مختلفة، يعلم كل منها سيد المنزل بوصول أو انصراف زائر، بإعداد خادم وجبة معينة، بعمل البستانية فى منطقة محددة من أرض الضيعة، بوصول أو إرسال البريد الصباحى، بتشغيل المغارات والمعروضات الكهربائية لدى دخول أحدهم إياها. كان لامبير يتحكم ويراقب كل واحدِ من هذه الأنشطة فى حجرة العمل التى تقع فى بدروم أشبه بقبو.

والآن أخذت الساعات فى جميع أنحاء المنزل، بعد زيارة جول لها، فى الدق معلنة انقضاء ربع ساعة. هرعت خارجة من حجرة الجلوس الخاصة بها إلى حجرة الاستقبال فى الدور الأرضى. ونظرت، وهى تدخل إلى الحجرة، إلى الساعة المثبتة أعلى المدفأة، الموضوعة بشكل استراتيجى قصد منه إدهاش كل من لم يرها. ويبلغ ارتفاعها خمس أقدام، وصنعت من الزجاج الشفاف، وكانت مضبوطة تماما. هو يحرص على الانضباط فى مواعيده تماما. كانت تعرف أنه فى حوالى أقل من دقيقة واحدة سيظهر فى فتحة الباب.

«إيميلين!»

كما هى العادة دائما حين يدخل حجرة، كان كممثل يظهر على خشبة المسرح، والآن يفتح ذراعيه كأنه سيحتضنها، كفاه مرفوعتان ليظهر أنه ليس لديه ما يخفيه. ومن المعتاد أيضا أنه حين يكون منهمكا فى العمل فى المنزل يرتدى معطفا قديما من المخمل وقميصا مفتوحا وبنطلونا من قماش ذى مربعات اشتراه من متجر يبيع أزياء الطهاة وعمال المطبخ. لكنه اليوم ارتدى ملابس تأدية استعراض، معطف من الفراك الداكن، صدرية من الكتان الأبيض، قميص رسمى وربطة عنق من الحرير الأحمر، وبنطلونا ضيقا من الصوف الرمادى الداكن. كان هذا هو الزى الذى جعله مشهورا كأول ساحر يظهر ليس فى أردية شرقية مبهرجة أو أزياء مسرحية مبالغ فيها إنما يرتدى زيا رزينا، شخص لا يختلف عن جمهوره وبالتالى فإنه أكثر غموضا ليصبح الساحر إلى الأبد. والآن وفى إيماءة سحرية دس يده الطويلة البيضاء الرشيقة فى جيب

داخلى فى معطف الفراك وأخرج دعوة بأحرف مذهبة أمسك بها أمام ناظريها.

– «نحن سنذهب إلى كومبيان يا عزيزتى».

– «كومبيان؟»

– «نعم. لقد وجهت إلينا الدعوة لحضور سلسلة فى الأسبوع الأخير من نوفمبر».

– سلسلة؟ إن الإمبراطور يدعو ضيوفه ليقضوا أسبوعا للصيد والرماية وحضور الحفلات،

الكل سمع بهذه الحفلات العظيمة، كل شخص فى باريس تحدث عنها. هل سيقدم أونرى عرضنا هناك؟

– لا بد أن الأمر كذلك. لكن لما سيسطحبنى معه؟

– «أونرى إذا كنت ستقدم عرضا هناك، فلماذا أكون أنا مدعوة؟ إن الأرستقراطيين والأكابر... لايريدوننى».

سلّمها البطاقة المذهبة:

– «اقرئيها».

حدقت فى الأحرف المزينة:

منزل الإمبراطور
قصر التويليري، ٢٠ أكتوبر ١٨٥٦

السيد:

بأمر الإمبراطور يشرفنى أن أخبركم أنكم مدعوون ومعكم مدام أونرى لامبير لقضاء سبعة أيام فى قصر كومبيان من ٢٢ نوفمبر حتى ٢٨ نوفمبر.

ستنتظركم عربات البلاط لتوصيلكم إلى القصر يوم ٢٢ من الشهر عند وصول القطار الذى سيغادر باريس فى الساعة ٣٠ : ٢.

تقبلوا يا سيدى تأكيدى على مشاعري الفائقة،

كبير أمناء البلاط

الفيكونت دو لافيريير

السيد:

السيدة أونرى لامبير.

– «إنها دعوة لكلينا. وأنا لست مطلوبا لتقديم استعراض. أخبرت أن الإمبراطور يتمنى أن يرانى بخصوص مسألة ذات طابع قومى».

حدّقت فيه.

– «ما الذى تتحدث عنه»؟

– «لا أستطيع التحدث بشأنها، ليس الآن. إنه أمر سرى للغاية».

– «لكن يا أونرى لا أستطيع الذهاب إلى هناك. سأكون مرعوبة».

أدار ظهره وذهب ناحية النافذة التى تطل على الطريق الرئيسى. كان من عادته حين يستاء أن يحل عليه صمت مطبق.

– «أونرى، لا بد أن فى الأمر خطأ ما. أرجوك»؟

– «لا يوجد خطأ. إنه شرف عظيم، ألا تفهمين؟ كل شخص – المجتمع، الأرستقراطيون، المليونيرات، الفنانون – كل شخص يحلم بأن توجه له الدعوة للذهاب إلى كومبيان. أنتِ يا من كنت تتذمرين من رتابة الحياة هنا! هذه هى فرصة العمر. سنصبح ضيوف نابليون الثالث فى منزله. والإمبراطورة! سنكون مدعّوين لمدة أسبوع كامل».

– «أسبوع؟ ما الذى سنرتديه؟ نحن لا ننتمى إلى هذا العالم».

– «لا تقلقى. الكولونيل دنيو أعطانى قائمة بمستلزماتنا لزيارتنا. وبالنسبة لى، يتعين علىّ تفصيل ملابس تليق بالبلاط. وسيتعين عليك تجهيز ما لا يقل عن عشرين فستانا. فتقاليد سيدات المجتمع الراقى تقتضى ألا ترى سيدة بفستان واحد مرتين. يا إيميلين سيكون الأمر رائعا. سنستمتع وسنخالط الذوات وسنكون فى حضرة صاحبى الجلالة كل ليلة على العشاء».

– «لكن الأمر ليس إنى لا أرغب فى الذهاب! إلى جانب أن الأمر سيتكلف مبلغا باهظا! إن الخياط الخاص بى هنا لن يتمكن من تفصيل أى شىء يصلح. سيتعين علىّ الذهاب إلى باريس. ليس لدىّ الوقت لأن أنجز كل هذا. وفى كومبيان، ماذا عساى أن أفعل وسط عدد كبير من السيدات حاملات الألقاب اللائى سينظرن إلىّ من أطراف أنوفهن؟ وسترتدين أنت ملابس البلاط وتتناولين عشاءك وسط الماركيزات والكونتات. يا أونرى هذا المكان لا يخصنا. لا بد أن نعتذر، لا بد أن تختلق عذرا».

– «هراء! وماذا تعنين بقولك إنه ليس مكاننا؟ تقابلت مع أسر مالكة الكثير من المرات، لقد ذهبت إلى التويلرى، الإمبراطور يعرفنى».

– «كرجل استعراض، وليس كضيف!».

– «يا إيميلين، لست مدعوا بصفتى استعراضيا. لقد طلب منى أن أفعل لبلدى شيئا، شيئا على أعلى جانب من الأهمية. لهذا السبب يريد الإمبراطور أن يرانى. إنهم يحاولون إقناعى».

– «يقنعوك لتفعل ماذا؟».

– «سأخبرك لاحقا إذا ما قررت أن أفعله. عندما فاتحنى الكولونيل دنيو للمرة الأولى فى هذا الأمر كان منذ شهرين. إنه أتى إلى هنا خصيصا من أجل ذلك، فى نهاية أغسطس، هل تتذكرين؟».

- «كلا، لا أتذكر. لم أره قط، لم تقدّمه إليّ على الإطلاق. واليوم لم أر سوى قفاه وهو يرحل. من هو على أية حال؟».

- «إنه رئيس المكتب العربى - المكتب السياسى لفرنسا فى شمال إفريقيا - لم أجبه لطلبه بأية حال من الأحوال فى أغسطس الماضى. كنت قد حزمت أمرى. كنت مشغولا للغاية هنا. والآن عادوا ثانية بهذه الدعوة. يريد الإمبراطور بنفسه أن يقنعنى».

- «الإمبراطور؟».

- «نعم! إن نابليون الثالث يتودد إليّ لإقناعى. فكرّى فيها! وبقدر ما سيجعلونك تشعرين بعدم الارتياح، ستعاملين على أنك زوجة مخترع وهو ما لا يقل فى الرفعة المهنية عن النحات أو الكاتب أو أى من المفكرين الآخرين الذين سبق وحضروا هذه السلاسل».

نظرت إليه وهو واقف بجانب النافذة ويده مندّسة تحت ثنية فى صدريته مثل بونابرت، الذى يكُّن له إعجابا، مطلا برأسه قليلا إلى الأمام مثلما رأته يفعل حينما يستمع إلى سؤال من مشاهديه وابتسامته ونبرة صوته الناعمة التى تهدف إلى تشتيتها وتحويل انتباهها بعيدا عن مخاوفها. لكن بالطبع لم تكن المسألة تتعلق بكيفية معاملته هو إنما انصب انتباهها على كيفية استمرارها لمدة أسبوع كامل فى كومبيان، أسبوع من احمرار خديها خجلا، من النظر إليها بتعال، من جهلها بما تستطيع قوله.

- «قرأت عن السلاسل التى تقام فى كومبيان. كل الناس تعرف أنك تذهب إلى هناك ومعك خدمك. سأضطر إلى أن يكون معى وصيفة. هل يمكنك أن تتصور تيريس تؤدى هذا الدور؟ إنها لا تملك حتى زيا. وجول

هل هو سيكون خادمك الخاص (شماشرجيا) لك؟ أونرى اسمعنى. قل لهم أنى عليلة. أبلغهم أنك ستذهب بمفردك. إذا كانوا جد متلهفين لوجودك فلن يعيروا لذهابى معك أهمية. كما سيكون ذلك أرخص بكثير. هل عندك أدنى فكرة كم ستتكلف هذه الفساتين إذا حاكها خياط فى باريس؟».

– «لا تقلقى، سأدفع ثمنها. ويمكنك أن تدبرى وصيفة من أجل الرحلة. وسنوفر لجول الأزياء الرسمية المناسبة».

– «لكن هذا ليس سوى البداية».

– «اسمعينى يا إيميلين. إن هذا ما سنفعله. سأرسلك الآن إلى باريس على الفور. ستتولى مدام كورنيه إسداء النصح لك. إنها خبيرة فى مثل هذه الأشياء فدائما ما كنت أستشيرها حينما كنت أقدم عرضا ملكيا. ستوفر خياطا ووصيفة وكل ما ستحتاجينه. ستضطرين للبقاء فى باريس من أجل بروفات ضبط الملابس».

– «فى باريس؟ قد يستغرق الأمر أسابيع».

– «سنتوجه إلى كومبيان فى الثانى والعشرين، أى بعد أربعة أسابيع من الآن. سيوفر لك هذا وقتا كافيا. شهر كامل فى باريس، سيكون بالنسبة لك بمثابة إجازة. كنت دوما تشتكين من أنك تحيين حياة مملة هنا».

– «إذن لن أرك لمدة أربعة أسابيع؟».

– «لست أدرى. يحتمل أن آتى إلى باريس لمدة يوم أو اثنين، ولكن فى غضون ذلك يتعين علىّ أن أمضى فى عملى. والآن ماذا عنك؟ هل تظنين أنك تستطيعين الرحيل فى الغد؟ إذا كان الأمر كذلك، فسآمر

بتجهيز عربة لتأخذك إلى المحطة. قطار باريس سيغادر المحطة فى الظهيرة».

- «ولكن ماذا لو قلت أنى لن أذهب؟»

- «يا عزيزتى، لقد قبلت الدعوة بالنسبة إلى كلينا. وسينقل فى الغد الكولونيل دنيو شكرى لكبير أمناء البلاط. يا إيميلين يتعين علينا أن نفعل ذلك. لا أستطيع أن أعطيك الخيار».

أحست بأن الدموع تملأ عينيها. سمعته يدق على الجرس طالبا جول. «ربما ترغبين فى أن انضم إليك على العشاء هذه الليلة. أنا فى مرحلة حرجة فى عملى، لكن إذا كنت سترحلين غدا...؟»

- «كلا. سأتناول العشاء فى حجرتى. إذا كنت سأغادر فى الغد يتعين علىّ أن أحزم أمتعتى».

جاء ناحيتها. حبست دموعها. لم تستدر إليه. انحنى وقبلّها فى مؤخرة ظهر عنقها. قال لها «إنك قرة عينى، ماذا كنت سأفعل بدونك؟»

***

الإمبراطور. المجتمع. الإمبراطورية الثانية. الكل يتحدث الآن عن باريس الجديدة. فى العام قبل الماضى، فى شارع دو ريفولى فى الساعة الثامنة وقفت إيميلين وسط حشد من الجماهير يشاهدون طابورا من العربات وهى تتحرك نحو ساحة قصر التويليرى. رأت من هذه العربات سادة يلبسون بنطلونات تصل إلى الركبة وجوارب حريرية يهبطون، ضباط يرتدون أزياءهم العسكرية ويضعون أوسمتهم، سيدات يرتدين تنورات منتفخة ذات أسلاك، صدورهن شبه عارية، أعناقهن وأذرعهن مزينة باللآلىء والياقوت الأحمر والألماس. أشارت امرأة تقف بجانب

إيميلين إلى سيدتين ذائعتي الجمال، الدوقة دو بورتال والمركيزة دو كونتاداديه، وذلك أثناء مرور الضيوف أسفل خيمة ضخمة وهم فى طريقهم إلى قاعة الدخول إلى بافيون دو لوأورلوج. وقف الحرس السويسرى وقفة انتباه هناك وفى أياديهم الرماح ذات البلطة، والخوذات ذات الريش على رؤوسهم. كان مشهدا لم تستطع إيميلين أن تنساه، مشهد ظلت تحملق فيه فى تلك الليلة وكأنها تشاهد ممثلين فى عرض مسرحى بالغ البذخ، لمحة من عالم فخيم مهيب ليس مقدرا لها أن تعرفه. والآن، فجأة، دخله زوجها.

***

قالت مدام كورنيه وهى مبتسمة «يا طفلتى العزيزة، إذا كنت قلقة بشأن كيفية استقبالك، تذكرى أنه من الأهمية بمكان أن تكون ملابسك من تصميم مسيو وست. إن كومبيان عرض أزياء. وأنت حين تلبسين من تصميم وست ستعرفين أنك تنتمين إلى الطبقة العليا. هو ليس بخياط إنما هو فنان. إنه يصمم ملابس الإمبراطورة ذاتها».

قالت إيميلين «الإمبراطورة؟ لكن إذن سيكلفنى مبلغا باهظا».

ابتسمت مدام كورنيه وضربت فى خفة طرف أنفها بنظارة فضية ذات يد واحدة والتى تستخدمها كثيرا مثلما يستخدم المعلم عصا الإشارة. قالت «ليس مبلغا باهظا إلى هذا الحد. بالرغم من أن الثوب الأنيق الذى يصممه مسيو وست للسيدات اللائى يحضرن السلسلة ستكلف زوجك الكثير. إنه من الحتمى أن تغيرى ملابسك ثلاث مرات يوميا. ستحتاجين إلى ثمانى تايورات من بينها تايور الرحلة وسبعة فساتين لحفلات الرقص وخمسة فساتين طويلة لتناول الشاى. لكن الأمر سيستحق كل هذا. أؤكد لك أنك ستكونين قمة الأناقة».

قالت إيميلين «لا بد أن أتحدث مع زوجى». وسرى بصيص من أمل داخلها. عشرون فستانا يحوكها خياط الإمبراطورة؟ ربما سيدرك أونرى حجم المسألة.

قالت مدام كورنيه «لا حاجة لذلك، فلقد حصلت بالفعل على موافقة مسيو لامبير بترتيب موعد. وحدد ميعاداً وهو الخميس المقبل فى الثالثة بعد الظهر فى فيلا مسيو وست فى سوريسن. صدقينى، ستكون واحدة من أكثر التجارب بهجة فى حياتك. ياله من ذوق، ياله من فنان! سيسحرك».

فى الخميس الموعود، وصلت إيميلين ومدام كورنيه فى الثالثة بعد الظهر تماما أمام فيلا فى ضواحى باريس ولبست إيميلين أفضل ملابسها النهارية سواء فستان أو معطف أو قبعة وقادهما خادم إلى حجرة الاستقبال تزدحم بالكراسى ذات الحواف المذهبة والمرايا الجيدة والوسائد الموشاة وطاولات صغيرة مليئة بالتحف الصغيرة والصور ذات الأطر الفضية. دعيت إيميلين ومدام كورنيه للجلوس على أريكة ضخمة قماشها من الساتان الأحمر. وفى حجرة ملحقة، كانت توجد نافورة ترش ماء كولونيا على نحو لا ينقطع فتملأ الهواء برائحة لطيفة ولكن نفاذة. هلّ مسيو وست بعد عشر دقائق يصحبه ثلاثة مساعدين شبان. كان بدينا على نحو مهول ويتحدث الفرنسية بلهجة إنجليزية مما جعل فهم إيميلين لكلامه عسيرا. كان يرتدى ثوبا حريريا فضفاضا وبنطلونا مخمليا أسود وبيريه مخمليا هائلا غطى عينه اليمنى. وصف نفسه بالفنان وفى الساعة التالية بعد أن فحص إيميلين كما لو أنها قطعة أثاث، أخذ يخط اسكتشات ومجموعة من العلامات والرموز تطورت فى

الأسابيع التالية إلى تايورات نهارية من المخمل الرمادى والمخمل الأسود والبوبلين الأزرق الداكن يزينها من أعلى لفاع من فراء السمور. كما تمخض الأمر أيضا عن قبعات من فراء السمور[1] وفراء التشنتشيلا[2] ومعها معاطف تناسبها، خمسة فساتين طويلة لفترة بعد الظهر وستة فساتين سهرة، وكل تايور وفستان طويل وزى يشهد بأنه متفرد وبلا جدال من إبداع فنان فى تصميم أزياء علية القوم. ونتيجة لأن كل ثياب السهرة تنورات منتفخة ذات أسلاك، فتعين على إيميلين أن تتدرب على السير بها على صعوبتها الشديدة فى المناورة بالإضافة إلى أنها كان لا بد أن ترتدى بنطلونات أسفل الطوق المعدنى للتنورة. ولافتقارها لقطع بعينها من المجوهرات التى اعتبرها مسيو وست جوهرية، اصطحبتها مدام كورنيه لمتجر كتوم أجر لها المراوح المزينة والأساور ومشدات الصدر لمدة شهر رهنا مقابل مبلغ ضخم من المال. وفى نهاية الأمر، عندما اكتمل المظهر الخارجى، كلفت مدام كورنيه لمدة مؤقتة سيدة عجوز اسمها فرانسواز، كانت تعمل على مدى ثلاثين عاما فى خدمة منزل الكونت دو مين كوصيفة للكونتيسة. وكانت هذه السيدة على خنوعها إلا أنها كانت لوامة، مما أضاف سببا آخر كى تشعر إيميلين بالهلع وهى بمفردها فى السرير فى فندق مونتروز فى ليلة ٢١ نوفمبر وهى تنتظر وصول زوجها فى صباح اليوم التالى، يوم توشك السلسلة أن تبدأ.

نصحتها مدام كورنيه قائلة «سيسافر الخدم فى قسم مختلف من القطار لكنها مسئوليتك أن تتأكدى من أن جميعهم وأمتعتك موجودة على رصيف الانتظار قبل موعد مغادرة القطار بساعة كاملة».

---

(١) السمور: حيوان مفترس يعيش فى سيبيريا ذو فراء أسود فاخر.

(٢) التشنتشيلا: حيوان قارض شبيه بالسنجاب ذو فراء نادر.

وهكذا، فى صباح الثانى والعشرين ارتدت إيميلين ثياب السفر الأنيقة التى صممها مسيو وست وأخذت معها السيدة العجوز وذهبت إلى محطة جار دو نورد حيث كان يقف جول غير مستريح فى زيه الجديد أمام مدخل المحطة يحرس أربعة صناديق وستة صناديق خشبية هائلة ضمت تنورات وست المنتفخة ذات الأسلاك. عندما استدعى الحمّالين تبع خادمان الأمتعة إلى داخل المحطة بينما ظلت إيميلين خارج المدخل غير راغبة فى أن تكون أول ضيف يصل. فى الساعة الثانية بعد الظهر، عندما قررت فى النهاية أن تدخل، رأت من فورها، على رصيف رقم واحد، قطارا رشيقا، مركباته مزينة بالنسر النابليونى ينتظر أسفل يافطة مكتوب عليها فاخر وإمبراطورى. وقف بالقرب من هذه اليافطة سيد عندما رآها تقترب قدّم نفسه باسم الفيكونت وولش، مسئول التشريفات الإمبراطورى. اضطرت أن تقول له: إن زوجها لم يصل بعد.

– «لكن لايزال الوقت مبكرا يا سيدتى. ربما تودين أن أريك مقعدك؟ سأبلغه بمكانك».

قادها إلى داخل القطار وأجلسها فى مركبة ذات صالون ضخم، مزودة بمقاعد ذات مساند مريحة وطاولات تتناثر عليها الجرائد المصورة. شكرته وجلست فى غير ارتياح بمفردها حتى الساعة الثانية والربع عندما أخذت مقصورات الدرجة الأولى السبع تمتلىء بسادة يلبسون ملابس النهار وسيدات يرتدين معاطف السفر والقبعات، بدا الكثير منهم يعرف بعضهم البعض وأخذوا ينحنون ويومئون ويتبادلون الأحاديث بشأن معارف سابقة وحفلات استقبال وحفلات رقص إلى جانب مسائل أخرى لا تدرى إيميلين عنها شيئا. تحول عدم ارتياحها إلى هلع. أين أونرى؟

فى الساعة ٢٥ :٢ بالضبط أطلق القطار إشارة صوتية تصم الآذان. فى هذه اللحظة، وكأنه خطط لما يحدث ظهر لامبير يمشى الهوينى على الرصيف. وقف ليستشير مسئول التشريفات الإمبراطورى، وعند دخول مركبتها جاء إلى إيميلين وقبلّ خديّها بشكل رسمى. وبالرغم من أنه لم يرها منذ شهر، كانت أول كلمات ينطق بها: «أين جول؟».

- «إنه هنا، ولكن الخدم موجودون فى جزء آخر من القطار».
- «هل كان يحمل حافظتى؟»
- «أية حافظة؟»
- «أنت تعرفينها جيدا. إنها تشبه حافظة اسكتشات الفنانين تلك التى يحملون فيها الرسومات. لقد رأيتها على خشبة المسرح».
- «أتقصد تلك التى تخرج منها أشياء؟»
- «نعم، هى عينها. إذا كانت مع أمتعتى فلا يمكنك ألا تلحظيها».
- «نحن لدينا الكثير جدا من الأمتعة، لم ألحظها».
- «حسنا أين عربات الأمتعة؟»
- «أونرى، نحن ليس لدينا وقت. إن القطار يوشك على المغادرة. انظر، هاهم يغلقون الأبواب».

جلس رغما عنه قبالتها بعد أن انحنى للسادة والسيدات الآخرين فى المركبة، غرباء ردوا الانحناءة بشكل رسمى ومتحفظ. فى الساعة ٣٣: ٢ بعد الظهر، بعد أن أطلق القطار الإمبراطورى صرخة ثانية تصم الآذان وارتج رجة عنيفة مباغتة، غادر المحطة.

- الحافظة؟ جلست تقلّب قفازيها فى إحباط. لقد كذب علىّ. إنه ذاهب لتقديم استعراض. نحن لسنا مدعوين كضيوف إنما كساحر وزوجته.

مالت إلى الأمام. همست:

- «ماذا عن حافظتك هذه؟ أنت قلت إنه لم يطلب منك ذلك».

ابتسم ورفع كفا ذراعيه الرشيقتين إلى أعلى.

- «أخبرتك بالحقيقة، يا محبوبتى. لكن الكولونيل دنيو رأى أنه ستكون لفتة لائقة إذا ما شاركت فى أمسية من أمسيات الترفيه».

ثم بعد ذلك، وكأنه أحسّ أن الآخرين فى المركبة يستمعون للحديث، فالتفت إليهم وقال: «أنا آسف، نحن لم نتعارف بعد. هذه هى زيارتنا الأولى لكومبيان. لكن قيل لى إننا كضيوف من المتوقع أن نرفّه عن بعضنا البعض خلال السلسة. أليس كذلك؟».

أومأ أحد السادة الذى كان يرتدى ملابس ذات قصة إنجليزية، وعينه اليمنى تهدلت على نحو دائم مما يظهره بمظهر شرير. «نعم، فعلا. لكنى أحذرك، إن هذه التسالى مملة بصورة فائقة. ومع هذا فإنك أنت لامبير، أولست أنت؟ لقد شاهدتك على المسرح».

- «أونرى لامبير. لتسمح لى بأن أقدم لك زوجتى».

- «احتراماتى يا مدام. لا بد أن أقول إن وجود زوجك بيننا يجعلنى على ثقة من أننا سنستمتع على نحو رائع».

شعرت إيميلين بأن وجهها احمرّ. فقد تطابقت مخاوفها مع ما رأته فهاهم الركاب الآخرون الأرستقراطيون والذين تبدو كل نظرة منهم تجاهها أنها تحذرها من أنه بالرغم من تدريب مدام كورنيه وتهيئة مسيو وست لها، فستظل بالنسبة لهم، بلا أدنى شك، ابنة الطبيب التى تلقت نصف تعليمها فى دير فى روان، ريفية لا أمل فى انصلاحها إطلاقاً، وبالرغم أيضا من شهرته وادعاءته، فهى زوجة شخص يقدم عروضا على المسرح.

***

بعد انقضاء ساعة ونصف الساعة بالضبط من مغادرة محطة جار دو نورد، وصل القطار إلى كومبيان، الواقعة على بعد خمس وخمسين ميلا من باريس. وعند خروج الركاب من المحطة احتشد فى استقبالهم جمهور كبير من أبناء البلدة والسياح الذين تجمعوا لرؤية النبلاء والدبلوماسيين والفنانين وعلية القوم من الأجانب المدعوين من جانب الإمبراطور لحضور أحدث سلاسله. أحكمت إيميلين معطف السفر الجديد حول جسدها بسبب برودة نوفمبر، وأخذت تراقب تشاجر الخدم الخصوصيين والوصيفات أثناء إشرافهم على تعبئة عشرات صناديق الأمتعة داخل عربات البضائع. اصطفت عشر حافلات ركاب مكشوفة فى مدخل المحطة، كان هيكل الحافلات الخشبى مطليا باللون الأخضر الداكن يحدد خطوطه الخارجية اللون الأحمر، ويجر كل واحدة منها أربعة خيول. وامتطى الخيول القائدة راكبون يلبسون سترات مخملية حمراء قصيرة ويضعون قبعات مخملية سوداء على شعرهم الأبيض المستعار، وضفائرهم الصغيرة تربطها شرائط سوداء تتطاير إلى أعلى وإلى أسفل وراءهم وهم ينفخون فى أبواقهم ويفرقعون سياطهم أثناء ضجيج أحدثوه وهم يقودون الحافلات المكشوفة عبر بلدة كومبيان الهادئة. خلف الحافلات المكشوفة، سارت عربات الخدم وفى المؤخرة عربات البضائع التى تراوحت على متنها كتلة من صناديق الأمتعة إلى الأمام وإلى الخلف أثناء مغادرة الموكب شوارع البلدة المرصوفة بالحصى. سرعان ما أخذوا يمرون عبر طرق وتقاطعات داخل غابة ملكية هائلة للصيد، حيث توجد عند كل منحنى لافتة مطلية باللون الأحمر تشير

إلى قصر كومبيان. وعندما وصل الموكب أخيراً مصدرا جلجلة فى الساحة الرئيسية للقصر، حدّقت إيميلين فى بنايات ضخمة ترجع للقرن الثامن عشر، وفى الأجنحة وفى الأبراج والكم المهول من النوافذ.

قال زوجها، وهو يلتفت إليها مبتسما ابتسامة رضا، «جميل، جميل»، بينما شدّ السائقون لجام الخيول ليوقفوها وقفة مفاجئة أمام أقواس مداخل القصر. قال: «ياله من مكان رائع لقضاء أسبوعنا فيه! لكن إيميلين نظرت فى عدم ارتياح للدرج الحجرى الكبير حيث انتظر الخدم لمعاونة الضيوف على الترجل من المركبات، خدم يرتدون زى البلاط وشعورهم المستعارة المرشوشة بالبودرة، تذكّرت إيميلين بتلك الأمسية منذ عامين التى كانت فيها مجهولة ضمن حشد خارج قصر التويليرى حيث وقعت عيناها لأول مرة على هذا العالم المخيف. الآن عليها أن تهبط مثل بقية الضيوف، متظاهرة بأنها مثلهم، وتتجه نحو كبير أمناء البلاط. وبعد تبادل التحية الرسمية سلّمهم إلى رئيس الحجّاب الذى قادهم عبر سلسلة من حجرات الاستقبال المفرطة فى تزيينها فى الطابق الأرضى إلى قاعة طويلة اصطف فيها خدم خصوصيون انتظارا أن يريهم شققهم. رأت إيميلين، وهى تتبع الخادم الموكول بهما لامبير يلوّح إلى كولونيل وسيم ذى وجه يحمل ندبة وشارب عسكرى وجلد لوّحته الشمس.

– «من هذا الشخص؟»

– «إنه كولونيل دنيو. سأقدمك إليه فى وقت لاحق».

– «إنه الشخص الذى رتب كل هذا الأمر، أليس كذلك؟»

– «نعم. إنه ضابط اتصالى بهذا المكان».

تأملت الكولونيل بينما الخادم يقودهما نحو درج رخامى عريض يؤدى إلى الأدوار العليا من القصر. وعند مطلع هذا الدرج وقف خادم آخر ليسلم الضيوف بطاقة مرقمة مربوطة بشريط أصفر. وبعدئذ اتبعا خادمهما صاعدين الدرج. فى الدور الأول قاد الخدم بعض الضيوف، من بينهم الكولونيل، عبر ردهات مختلفة. وتكرر نفس الإجراء فى الطابق الثانى. لاحظت إيميلين أن الحجرات المخصصة لهؤلاء الضيوف المميزين يبدو أنها أجنحة يطل الكثير منها على المتنزه. وتعين على الضيوف الباقين أن يصعدوا درجا آخر للوصول إلى الطوابق العليا للقصر. وفى النهاية بعد أن تبقى زوج آخر فقط، صعدت إيميلين ولامبير آخر درج يؤدى إلى طابق يقع تحت السقف مباشرة. عندئذ أعلنت السيدة التى سبقت إيميلين لزوجها فى غضب:

– «عليك أن تحتج يا تيوفيل. هذا عار!»

– «أرجوك يا فلورنس، أنا أعلم بهذه الأشياء. إن المخصصات وضعت وفقا لخطة. من المستحيل أن نغير منها شيئا الآن».

قادهما الخادم إلى باب علقت عليه بطاقة بيضاء مربوطة بشريط أصفر مماثل للبطاقة التى تسلماها من قبل. رأت إيميلين رقما واسميهما مكتوباً بخط رقيق. فتح الخادم الباب ليقودهما إلى علّية باردة ذات سقف خشبى منحدر ونافذتها تطل على أبراج وأسقف. كان ملحقاً بهذه الحجرة غرفة نوم صغيرة مظلمة. دخلتها إيميلين لتخلع معطفها وقبعتها، هتف زوجها فى هذه الأثناء من حجرة الجلوس «أحسب أن الحجرة ستكون صغيرة جدا لكلينا معا. سأنام على الأريكة الموجودة هنا فى الخارج». كان كعادته متحفظا.

كان هناك طرق على الباب. دخل ثلاثة جنود من الحرس الملكى وقد أتوا بصناديق الأمتعة وصناديق التنورات المنتفخة ذات الأسلاك، التى شغلت غالبية مساحة حجرة المعيشة. توجه لامبير إلى حافظته من فوره وفتحها وهو يتنفس الصعداء ثم وضعها على جدار.

قال الخادم «سيرسل إليكم خدمكم على الفور يا مسيو. يود كبير أمناء البلاط تذكيركم بأن موعد العشاء فى السابعة والنصف وأن الإمبراطور والإمبراطورة سيرحبان بكما فى قاعة الاحتفالات الكبرى فى السابعة مساء».

أغلق الباب. رأت أونرى ينحنى ليحرك جمرات النار فى المدفأة لإذكائها فى الحجرة الخارجية.

قالت «إنها برودة التجمد. أظن أن هذه هى حجرات الخدم».

تظاهر بأنه لم يسمع. جلست على السرير. أحست بدوار. كان توتر الأعصاب، كانت تعلم ذلك، لكن علمها لم يسعفها. أخبرتها مدام كورنيه بأنه على المرء أن يغير ملابسه ثلاث مرات يوميا. كانت الساعة الآن الرابعة والنصف. وبما أنها مضطرة للاستعداد للاستقبال الإمبراطورى فى قاعة الاحتفالات الكبرى فلن يتاح لها وقت كاف لتغيير ملابسها لفترة ما بعد الظهيرة إنما عليها أن ترتدى فستان الدنتيلا السوداء على التل الأبيض ذات أنشوطتين من المخمل الأخضر وفتحة صدر منخفضة وتنورة ذات أسلاك. أوصت مدام كورنيه بهذا اللبس على أنه الاختيار الأنسب فى أول لقاء مع الإمبراطور والإمبراطورة.

ذهبت إيميلين إلى حجرة الجلوس قبيل الساعة السابعة بعد أن تأنقت بمساعدة فراسواز، الوصيفة العجوز ولكن الماهرة. ارتدى زوجها، متبعا التعليمات التى أعطيت له من قبل، لهذا اللقاء الأول فى البلاط، بنطلونا

أبيض يصل للركبتين وجوارب من الحرير الأبيض والفراك. رأته يفرك كفيه سعيا للدفء وهو يحدق فى صورته فى مرآة مستطيلة عمودية وضعت فى ركن من حجرة الجلوس. كانت نار المدفأة قد خبت تماما منذ زمن طويل.

- «هل أنت مستعدة يا إيملين؟ لا بد ألا نتأخر».
- «كيف سنعرف طريقنا؟»
- «لقد أخبرتك. كل شيء مخطط له هنا. سترين».

كان على حق، حيث افترضت ذلك، لأنهما عند مغادرتهما للحجرة كان هناك خادم فى انتظارهما فى الردهة. انحنى لهما وأشار لهما أن يتبعاه ثم قادهما نزولا الدرج عبر ردهات طويلة وصولا فى النهاية إلى قاعة الاحتفالات الكبرى. هنا وقف خادمان على باب صالون بالغ الضخامة. نظرت إيملين إلى أعلى فرأت السقف المصنوع من الفسيفساء المطلى والثريا البللورية البراقة ثم فى انزعاج من الضيوف الذين بدأوا فى دخول القاعة. وفى الساعة السابعة وسبع دقائق بالضبط أعلن خادم وصول كبير أمناء البلاط، الفيكونت دو لافيريير والعشيقة الرئيسية الكونتيسة دو باسانو، اللذين أخذا فى الاقتراب من صفوف الضيوف وهما يهمسان بعبارات الترحيب الرسمية. لم تدر إيميلين ما إذا كان عليها أن تنحنى مع ثنى الركبتين أم تنحنى فى وضع الركوع لذا فإنها وقفت تهز رأسها فى بلاهة أثناء مرور هذه الشخصيات العظيمة أمامها. وبالرغم من أنها خمنت أن نحو مائة شخص موجودون فى هذا الصالون الهائل، إلا أنه بدا وكأنه نصف مهجور. اقترب رئيس التشريفات من أونرى. «مسيو، إن السيدة التى سترافقها فى حفل العشاء هى مدام دوفيل. هى هذه السيدة الواقفة هناك مع زوجها مسيو دوفيل».

همست إيميلين أثناء ابتعاد رئيس التشريفات:

- «ومن الذى سيصحبني؟»

- «قد أخبرتك يا محبوبتى من قبل. كل شىء مرتب. لا يجب عليك أن تقلقى. إن الكولونيل يقول إنها مثل عملية عسكرية».

وبعد عشر دقائق، أغلقت أبواب قاعة الاحتفالات الكبرى كأنها إشارة إلى أن آخر ضيف قد وصل. اختفى كبير أمناء البلاط عبر باب صغير فى وسط القاعة. وعلى الفور بدأ الضيوف فى تكوين صفين طويلين. انفتح الباب الصغير وظهر الإمبراطور والإمبراطورة. بدا الإمبراطور مختلفا عن الصور الفوتوغرافية واللوحات التى رسمت له فقد ظهر أقصر قامة وأكثر بدانة وشارب المشمع أطول وجفناه مهدلان فى تكاسل كأنما صحا من نومه فى التو. كان يرتدى نفس زى البلاط مثل الآخرين بنطلونا أبيض يصل للركبتين وجوارب من الحرير وخفين وكان النيشان الوحيد الذى وضعه هو شارة ونجمة جوقة الشرف. لكن الإمبراطورة المهيبة فى فستان من التل الأبيض المزين بالترتر وإكليل مرصع بالألماس وعقد من اللآلئ هى التى خلبت لب إيميلين، لاحظت على الفور أن الفستان الذى ترتديه الإمبراطورة مع أنه أروع بكثير من فستانها إلا أنه بلا شك من صنع مسيو وست. فجأة أحست أنها أقل تشككا. فقد أصبحت بفضل مسيو وست جزءا من هذا الجمع. كلاهما صارا كذلك. ففى نهاية الأمر، كان أونرى يرتدى نفس نوع زى البلاط الذى يرتديه الإمبراطور.

اتجه الإمبراطور ناحية الرجال والإمبراطورة ناحية السيدات وهما يسيران الهوينى. وعند مرور جلالتيهما، كان الرجال ينحنون والسيدات

تنحنين وهنّ تثنين ركبهن فتغطس معهن التنورات المنتفخة بشدة. هبطت إيميلين إلى أسفل عندما صارت الإمبراطورة بمحاذاتها إلى الدرجة التى بدت معها وكأنها دفنت فى ثنايا فستانها المتعددة. ابتسمت الإمبراطورة لها مثلما فعلت مع الأخريات وهمست:

«مساء الخير «قبل أن تمضى. رأت إيميلين وهى تنهض من انحناءتها ووجهها متورد من الارتياح، رأت الأتباع يهرعون لفتح الأبواب بينما ذهب الإمبراطور إلى الإمبراطورة وأعطاها ذراعه وصحبها فى موكب اتجه نحو قاعة المأدبة. رأت إيميلين السادة من حولها يقتربون من السيدات ويقدمون أذرعهم. عاودها الهلع. من ذا الذى...؟ لكن الكولونيل دنيو جاء نحوها وذراعاه ممدودتان. وضعت يدها فى امتنان على كمه وانضما إلى الموكب وهو يسير نحو ردهة طويلة وخشيت أن ينزلق حذاؤها الجديد على الأرضية المشمعة جيدا. بدأ الضيوف الآن فى المرور بين صفين طويلين من حراس الإمبراطور المائة، وهم جنود يرتدون زيا مكونا من سترة زرقاء فاتحة اللون وبنطلونات قصيرة بيضاء وخوذات فضية تدلت منها حتى ظهورهم فروة من شعر خيول بيضاء. وقف الحراس المائة وقفة انتباه صارمة، يحدقون إلى الأمام، يتجاهلون استعراض السيدات بجواهرهن البراقة والضباط بزيهم العسكرى والدبلومسيين بنياشينهم وأوسمتهم. اختلست إيميلين نظرة إلى مرافقها وهى تمر أمام هؤلاء الجنود الأشبه بتماثيل وانتابتها ثقة طائشة مفاجئة. كانت على نحو ما وهى ترتدى هذا الفستان الرائع وتمسك بذراع هذا الضابط جزءا من هذا الحدث العظيم.

عند دخول الموكب إلى قاعة الطعام قاد كبير أمناء البلاط الإمبراطور والإمبراطورة إلى وسط القاعة وأجلسهما فى جهتين متقابلتين على مائدة

طويلة. وأخذ أمناء البلاط فى تعريف الضيوف أماكنهم بمجرد استقرار الإمبراطور وقرينته. اصطحب الكولونيل دنيو، الذى بدا فى غير حاجة إلى دليل، إيميلين بعد المليكين حتى مؤخرة المائدة وأجلس نفسه على يمينها. كانت المائدة حقلا من الشراشف البيضاء المزينة على مسافات منتظمة بصحبة زهور وأوان بيضاء مملوءة بالبونبون وصحاف كبيرة مليئة بالفاكهة. كانت أطباق الأكل من بورسلين السيفر يحمل حرف «ن» المذهبة ويعلوها تاج إمبراطورى. كان ما لا يقل عن خمسين تابعا ينتظرون أن يدفعوا كراسى الضيوف فى أماكنها. وشرعت فرقة عسكرية في عزف الموسيقى فى رواق دائرى كبير مسقوف يقع أعلى النوافذ الفرنسية وهو ما كان بمثابة مهلة مؤقتة لإيميلين من الكلام. تظاهرت بأنها تبتسم وتهز رأسها منسجمة مع اللحن تاركة للكولونيل الحرية أن يولى اهتمامه للسيدة الجالسة على يمينه. دخلت مجموعة جديدة من الأتباع تحمل الطبق الأول من الحساء وعندئذ مال الكولونيل دنيو نحوها قائلا : «لا بد من أن أحذرك يا مدام ستكون هناك كمية كبيرة من الطعام هذه الليلة، لكننا سنضطر إلى أن نأكل بسرعة. لن يقضى الإمبراطور أكثر من ساعة فى تناول العشاء. ومع هذا، فإن هذا ربما يكون نعمة، ألا تتفقين معى؟ من الممكن أن تكون مثل هذه المسائل مملة».

قالت «لست أدرى. لم أشهد مثل هذا من قبل على الإطلاق».

– «إننى مندهش. يبدو أنك متوافقة على نحو ممتاز. إذا كانت هذه هى زيارتك الأولى إلى السلسلة فإنى أراهن على أنها لن تكون الأخيرة. أنت أحدث حلية تتزين بها كومبيان».

قالت وهى تحس بدفعة من البهجة داخلها من كلامه «آمل أن تكون مخطئا».

- «لما تأملين فى هذا؟»

- «لأننى لا أنتمى إلى هنا. إنه ليس عالمى».

قال الكولونيل وهو يميل نحوها وأصابعه تلمس فى رقة ذراعها العارية «أيتها المدام العزيزة، أنا لا أحاول أن أتملقك. أنت شابة وجذابة وماذا يمكننى أن أقول؟ لا بد أن زوجك استخدم بعضا من سحره ليستخلصك بعيدا عن اهتمام باقى الرجال. لا يوجد عالم ليس مفتوحا لك».

تفادت عينيه. لا بد ألا أخدع، إن أمثاله من الرجال يلقون بالمجاملات مثل نثار الزفاف. «يا مسيو إنك عطوف جدا. أنا ريفية، شخص عادى تماما. للأمانة سأكون أسعد لو كنت فى منزلى أتناول عشائى على صينية فى حجرتى».

ضحك. «هل ما تقولينه حقيقى؟ لكن ألن تتذكرى هذه الأمسية على أساس أنها حدث خاص؟ فى نهاية المطاف، إن الرجل الجالس بعيدا عند آخر المائدة هو ابن أخى بونابرت. وهو نفسه شخصية فريدة. فكّرى فى الأمر، لقد جاء من المنفى واستولى على السلطة وتوّج نفسه إمبراطورا لفرنسا. إنجاز مذهل ! وأنت الليلة جزء من بلاطه. بل يمكننى أن أقول إننا الليلة نصنع التاريخ».

«وكذلك يصنعه الناس العاديون وهم يتسوقون ليلا فى شوارع روآن».

- «آه أنت ثورية، فهمت الآن».

قالت وقد احمرّ وجهها خجلا لأنها كانت صريحة جدا معه «كلا، كلا. مثلما قلت لك أنا شخص عادى. لذلك قلت ما قلت».

- «حسنا، لن نتجادل. أما أننى الآن وقد التقيت بك لا أصدق أنك تمتّين بصلة لهذا النوع الذى ذكرتى. لكن، بما أن وجودك هنا الليلة خطأ جزئى منى، آمل أن أتمكن من أن أريك أن قضاء أسبوع فى كومبيان يمكن أن يكون مبهجا جدا. توجد ممرات رائعة للنزهة فى الحدائق المحيطة بالقصر وفى الغابات. إذا ما رغبت فى أن تأخذى جولة، أو تزورى البلدة، توجد كل أنواع العربات التى يمكن أن تقلك. إذا وددت أن تركبى الخيل يوجد مائة وخمسين فرسا تنتظر فى الإسطبلات الإمبراطورية. هل تستمتعين بألعاب الورق أو الفوازير؟ إن الإمبراطورة مولعة بها. وبالطبع، يمكن للسيدات أن يحضرن رحلات الصيد أو يراقبن عمليات القنص. إنه منظر بديع».

قالت إيميلين «مراقبة الرجال وهم يطلقون النار على الطيور أو الكلاب تطارد غزالة ويقتلونها؟ كلا. إنى مولعة للغاية بالحفاظ على الحيوانات. بالنسبة لألعاب الورق، أنا عديمة المهارة. وأن ألعب لعبة الفوازير مع الإمبراطورة ! سأرتعب فى هذه الحالة. والآن أرأيت لماذا أتمنى أن أكون فى منزلى؟»

ضحك. «أدركت بالفعل. أحس بالعار أننى فرضت عليك مثل هذه الزيارة. ومع هذا، فإننى سأبذل قصارى جهدى لأرفّه عنك... إذا سمحت لى؟»

قال هذه العبارة وهو يبتسم وبدا وكأنه ينهى المحادثة واستدار للتحدث مع السيدة الجالسة على يمينه. ما الذى يعنيه؟ أكان يبالغ فى

إطرائها لتلعب دورها في هذا الشيء أيا كان الذي يريدونه من أونرى أن يفعله؛ أم هو من نوع الداعرين الذين يتجاهلون هنا في كومبيان أنها زوجة أونرى؟ إنه ينظر إليّ بهذه النظرة. هل هو الفستان الذى يجعلنى أبدو على هذا النحو؟ وهذه العجوز صففت شعرى الليلة بطريقة أفضل بكثير مما كنت سأصففه. تخيلى لو كنت جزءا من هذا، ألبس كل ليلة ملابس فخيمة، وينحنى أمامى الدوقات والكونتات والكولونيل يتقدمنى وأنا ممسكة بذراعه؟

وعند هذه النقطة، كأن السيد المسن الجالس على يسارها قد سمعها وقدم لها نفسه على أنه الكونت دو بورجوس وعلى الفور بدأ الحديث عن كلاب الصيد. «إننى أتطلع بشكل خاص يا مدام إلى عملية القنص وما بعد غد، كما تعرفين. يمتلك الإمبراطور قطيعا رائعا. كلاب إنجليزية. لديه مدرب ممتاز يعامل الكلاب بعطف ويدعهم يلبون ميولهم الطبيعية. من الخطأ أن يضربوا، كما تعرفين. لأنهم يفقدون حس المبادرة إذا فعلت ذلك. قيل لى إنه مشهد جذاب للغاية عندما ينطلق الكلاب وهم فى قمة نباحهم. مائة كلب صيد. تخيلى. ستستمتعين بهذا، ألن تفعلى، يا سيدتى العزيزة؟ ستكونين هناك، هه؟»

أومأت بطريقة كانت تأمل من ورائها أن تعنى الإيجاب والرفض فى آن واحد. ثانية عاودها الهلع. الأرستقراطيون، كلاب الصيد أشياء لا تدرى عنها شيئا. كيف سيتكمل هذا الحديث، هذه الأمسية، هذا الأسبوع؟ لكن بعدئذ نظرت من جديد إلى يمينها. التقط الكولونيل، وهو يحادث جارته، نظرتها له وابتسم لها ابتسامة متواطئة. استعادت ثقتها والتقطت قائمة الطعام. كانت توجد ستة أطباق: الحساء، الأوز، السمك،

مشويات، الاستاكوزا، الحلويات. كيف يتسنى لهم أن يأكلوا كل هذا خلال ساعة واحدة؟ لكن مع استمرار عزف الفرقة، وضعت الأطباق أمامها، كان هذا على الأقل إعفاء لها من تبادل الحديث مع الكونت دوبورجوس الذى حين رأى الطعام تخلى عن أية محاولة للكلام. قدمت القهوة ومشروبات كحولية حلوة المذاق ومعطرة على المائدة وفى الساعة الثامنة والنصف تماما وقف الإمبراطور والإمبراطورة. وعلى الفور، تقدم الأتباع وسحبوا الكراسى من تحت الضيوف فأجبروهم جميعا على الوقوف.

نظرت إيميلين، وهى على غير ثقة، إلى الكولونيل الذى قدم لها ذراعه وصحبها فى موكب عائدين عبر الردهة الطويلة حيث كان يقف الحراس المائة فى حالة جمود ثم إلى قاعة الاحتفالات الكبرى حيث استأذنها وذهب إلى جزء آخر من القاعة. بعيدا جدا فى نهاية الصالون الهائل، جلس شخص أمام بيانو وشرع يعزف لحنا.

سرت إيميلين على غير هدى بين مجموعات الضيوف المثرثرين بعد أن وجدت نفسها وحيدة يتجاهلها من يحيطون بها.

بدأت حفنة من الناس فى الرقص استجابة لحث أمناء البلاط، الذين تحلقوا مثل الممرضات يقودونهم كقطيع نحو عزف البيانو، الذى بدا صوته باهتا ومزيفا فى هذا المكان المهول. والآن رأت الكولونيل يتحرك ضمن الزحام يبحث عن شخص ما. كان معه أونرى؛ لا بد وأنهما يبحثان عنها. هرولت إليهما ولوّحت لاجتذاب انتباههما.

قال زوجها عندما ظهرت: أخيرا ! كيف حالك يا محبوبتى؟ هل أنت مستمتعة؟ قال الكولونيل: إنك كنت رفيقته على العشاء.

- «كم أنا محظوظ لهذا «قالها الكولونيل وهو يبتسم لها تلك الابتسامة الخاصة. «حسنا بعد أن لمت شملكما أنتما الاثنين... «ثم التفت إلى لامبير «بالمناسبة، قيل لى : إنه بالقطع لن يكون الليلة».

انحنى لها ومضى وفى التو دنا منه سيدان وشرعا فى محادثة. وقفت مهجورة مع أونرى، أونرى الذى لم يهتم بشأنها، أونرى الذى شعر بأنه فى غاية التكريم لوجوده هنا بين هؤلاء الأشخاص للدرجة التى جعلته لا يرى ما هو جلى جدا: إنه وإيميلين فى أدنى السلم الاجتماعى متجاهلين، معزولين فى العلية البادرة تحت السقيفة.

- سألت «ما الشيء الذى لن يحدث الليلة؟ ما الذى يتحدث عنه؟».

- «جلوسنا مع جلالة الإمبراطور. لست مندهشا. أتصور أن اللقاء سيحدث على انفراد. إن الأمر جد مهم لمناقشته أمام آخرين».

- «إذا كان الأمر مهما وأنت على هذا الجانب من الأهمية لما ألصقونا فى هذه العلية الباردة؟».

- «يا محبوبتى، جونو المؤلف الموسيقى قال على العشاء الليلة، إن حجرته رطبة وباردة وتطل على الإسطبلات وإن آخرين يشتكون نفس الشكوى. من الظاهر أنها دائما ما تحدث خلال السلاسل. إن كومبيان تعد جزءا من التاريخ الفرنسى لكن ذلك لا يجعل منها مريحة».

- «ماذا عن الكولونيل دنيو؟ أنا على ثقة من أنه لم يعط حجرة رطبة».

- «لست أدرى. أنا لم أسأله. لما تتصرفين على هذا النحو الكريه؟ قد أنفقت من المال الكثير لآتى بك إلى هنا. عليك فقط أن تحاولى الاستمتاع».

لم تجبه، لأن أحد أمناء البلاط اقترب وسأل إذا كانا يرغبان فى أن يرقصا وقال «إذا ما استطعنا أن نجعل الرقص يبدأ على نحو مناسب ولائق قد تنضم الإمبراطورة».

فى التو، وكأنه خادم وليس ضيفا، التقط زوجها ذراعها وقادها إلى ساحة الرقص.

- «لماذا نرقص؟ أنت لا تحب الرقص. لماذا نفعل شيئا لا نريد أن نفعله؟»

- «إنها مجرد أدب من آداب اللياقة. إلى جانب أننى أظن الرقص أفضل من الوقوف وسط جمع من الأشخاص لم أتعرف إليهم بعد. مع حلول نفس التوقيت غدا، سنكون قد تعرفنا إلى عدد من الشخصيات المثيرة للاهتمام من الرجال والنساء وستشعرين بألفة أكثر وكأنك فى بيتك».

- «أحقا سأشعر بهذا؟»

أدارها فى حركة من حركات الفالس الواسعة ونظر إلى السقف وتنهد.

- «أنا لن أتمكن من فهمك أبدا. هل تعرفين أنك الليلة تبدين الأكثر جمالا على الإطلاق؟ إن هذا الفستان رائع، ببساطة رائع. وشعرك وهذه المجوهرات... إننى فخور بك يا محبوبتي».

ما الذى يمكن قوله؟ أيا كان الذى يريد تحقيقه، عن طريق القدوم إلى كومبيان، لن يعرف الهوادة، كعادته، في سعيه إليه. إذا كان هذا يعنى تبديد كم كبير من المال على الأزياء من أجلها، ليكن. إذا كان هذا يعنى حجرة باردة رطبة فى العلية، ليكن. إذا كان هذا يعنى أن يتعرضا

للتجاهل والتعالى فى قادم الأيام، ليكن. هو لم يصبح أونرى لامبير من فراغ؛ فهو الشخص الذى جلس وحيدا فى حجرة لمئات المئات من الساعات، أصابعه تتلاعب بأوراق اللعب والعملات المعدنية حتى تعلّم واستطاع بمهارة فائقة أن يعيد إنتاج كل حيل خفة اليد المتضمنة فى كتب عالم السحر: كان مخترعا للدمى الميكانيكية التى تصنع الفطائر والمستحضرات، تفتح البوابات وتتوازن على حبل مشدود، ساحر فى علم الكهرباء استخدم أسرار العلم الجديدة ليغرس فى نفوس مشاهديه السذج الاعتقاد بأنه ربما كان متحالفا مع قوى الظلام. نعم كان ودودا، ونعم كانت تعتقد أنه يحبها. لكن حبه لم يكن كحب رجل عادى. كان مثل كل شىء ينجزه، مثل كل شىء يسعى إليه، مرتبط بطريقة ما بحياة الإيهام التى يحياها.

انضم إليهم الكولونيل من جديد بعد التاسعة بقليل وقدم إليهما رجل مصارف عجوز رأى لامبير يؤدى استعراضا فى سان بطرسبرج أمام إمبراطورة روسيا.

– «كانت ليلة مدهشة، يا سيدى. أتذكر أن الإمبراطورة كانت فى قمة الانبهار. لا أستطيع أن أصف لك كم أنا سعيد لوجودك معنا هذا الأسبوع. ستكون سلسلة أكثر إثارة عن آخر واحدة حضرتها. أحسب أننا سنتشرف بحضور عرض؟»

قال لامبير فى غلظة «لست هنا لأقدم عرضا لكن إذا طلب منى، ربما أشارك فى نوع من الترفيه».

ابتسم رجل المصارف العجوز:

– «رائع. إننى أتطلع لهذا، يا سيدى».

استفسر الكولونيل دنيو قائلا :

– «والسلسلة التى حضرتها آخر مرة؟ من كان الضيوف؟»

– «الأمير ميترنيخ والجمع المصاحب له. وحفنة من الأجانب حملة الألقاب. دوق هاميلتون قدم للصيد وكان هناك أرشيدوق من روسيا. وتعتبر هذه ما يسمى بالسلسلة الفخيمة. فى واقع الأمر، كانت مملة جدا».

لاحظت أن أونرى لم يكن مسرورا مما يقال. سأل:

– «هناك سلاسل مختلفة ومتعددة إذن؟»

– «أى نعم. يقيم الإمبراطور أربع سلاسل مختلفة فى كل موسم. ويقلق الناس من تحديد أى السلاسل وجهت لهم الدعوة لحضورها. الكل يريد أن توجه له الدعوة بالطبع ولكن لأى منها؟ إنها مسألة تتوقف على المكانة الاجتماعية. هناك قصة فى هذا السياق «عند هذه النقطة انطلق رجل المصارف العجوز فى قهقهة مزعجة» يقولون إن سيدة سألت أخرى هل أنت مدعوة إلى السلسلة الفخيمة؟ جاء الرد، بالطبع لا. إنما دعيت لتلك التى دعيت لها».

سأل لامبير «وأى سلسلة هذه؟»

– «أحسب أنها السياسية. يوجد مهندسون مهتمون بمشروع قناة السويس ورجال مصارف أمثالى لأن هذه المشاريع لا بد أن تمول وبالطبع فإن البارون هاوسمان موجود هنا ومعه خطط بشأن جديد للشوراع الكبرى فى باريس. ويجد حفنة من الشخصيات السياسية. من أمثالك، أيها الكولونيل. أنت جزء من المغامرة الإفريقية للإمبراطور، أليس كذلك؟»

ابتسم الكولونيل. «إننى أخدم فى إفريقيا، نعم. لكننى هنا كصديق للمسيو لامبير. إن الإمبراطور مبهور بمهاراته».

قال رجل المصارف العجوز «حسبنا آمل أن نحظى بالاستمتاع بها. آه، إنهما سيدخلان الآن».

نظرت إيميلين فى الاتجاه الذى أشار إليه فرأت الإمبراطور والإمبراطورة يدخلان الصالون الخاص الصغير، يرافقهما نحو دستة من الضيوف.

قال رجل المصارف العجوز «يجب أن تزداد حمية الرقص الآن».

سألها الكولونيل دنيو «هل لى أن أحظى بهذا الشرف؟ «وفى لحظة كان قد جرفها إلى ألحان موسيقى الفالس التى تردد صداها خافتا آتيا من نهاية القاعة المهولة.

رقصا. ابتسم لها لكن لم يتكلم. أحست بلمسات يديه الحميمة فى أسفل ظهرها وهو يوجه خطواتها والتفافاتها. أدركت عندما انتهت الرقصة أنه تحرك بها فى مناورة وأخذها لجزء بعيد جدا عن زوجها. قال «إنك ترقصين على نحو رائع. هل نستمر؟»

وهكذا كان يحادثها بين الرقصات حديثا بريئا ولكن نظراته لم تكن بريئة بالمرة، وتمكن من أن يحتكرها حتى خرج الإمبراطور وحاشيته من الصالون الخاص. قدم الشاى والكيك وبعد لحظات انحنى صاحبا الجلالة إلى الضيوف واتجها نحو الأبواب والتفتا عندما وصلا إليها ثم أومآ برأسيهما إيماءة أخيرة واختفيا عن الأنظار. وفى التو هرع لامبير، كأن أحدا صرفه، عبر القاعة وأمسك بذراع إيميلين.

«لنذهب الآن يا محبوبتى. لا بد أنك متعبة». التفت إلى دنيو. «حتى الغد، إذن يا كولونيل».

نظر الكولونيل إليها. «حتى الغد يا مدام».

الفصل الثاني



استيقظت أين؟ سقف خشبي مظلم، ضوء شتوي غائم قادم من النافذة، ملاءة رطبة من الكتان تلامس عنقها، استيقظت مثلما فعلت في الليل تشعر بالبرودة والحيرة من حلم بالجرس المائة وإمبراطورة مبتسمة وعربة ركاب مكشوفة ووجه أسمر وسيم، لكن هذا هو الصباح وزوجها يرتدى روبا فى الحجرة الملحقة يراقب بينما يضع خادم، على رأسه شعراً مستعاراً وعلى وجهه مساحيق، صينية عليها أباريق فضية بها قهوة بالحليب ثم انصرف.

هتفت «كم الساعة؟»

- «التاسعة. كل شيء هنا يدور مثل الساعة. قد تركوا لنا جدولاً بالمواعيد».

راقبته وهو يلتقط فرخا من الورق كان موضوعا على صينية القهوة. قرأ: «برنامج اليوم. قهوة الصباح، التاسعة صباحا. الغداء، الحادية

عشرة صباحا. جماعة الصيد، الثانية بعد الظهر. حفل موسيقى، التاسعة مساء.»

صب فنجانا من القهوة وأحضره لها فى حجرة النوم. قال «سأراجع بعض مذكرات العمل. ماذا ستفعلين؟ لدينا ساعتان قبل الغداء».

- «هل تمطر السماء؟»

- «كلا».

- «إذن، سأخرج لأتمشى».

أومأ وعاد إلى المكتب فى حجرة الجلوس. لم يكن الأمر مختلفا عما كان عليه فى المنزل. كان عليها أن تتولى إسعاد نفسها. نظرت إلى صناديق الأمتعة، نصفها أخرجته فى ضجيج وعدم راحة فى حجرة النوم الصغيرة المظلمة هذه. ما الذى ستلبسه؟ أى أزياء الصباح سيكون الأنسب للمشى فى الأراضى المحيطة بالقصر؟ قالت مدام كورنيه : إنه فى نهاية الصباح لا بد أن تغير ملابسها للغداء. قررت ألا تستدعى فرانسواز الوصيفة العجوز المستخفة بها، ليس بعد. سأذهب لأرتدى ملابسى وأخرج ثم بعدما أبدل ملابسى أستدعيها لتصفف لى شعرى.

اختارت أكثر الفساتين النهارية بساطة، طاقم من قماش بنى تحفه شرائط من جلد كلب البحر ومعه معطف وقبعة وإسطوانة من الفراء لتدفئة اليدين تناسبها. لم يرفع لامبير حتى ناظريه عندما دخلت حجرة المعيشة وهى مرتدية طاقمها.

- «كيف لى أن أعرف أين أمشى؟»

- «يوجد خدم بالخارج».

قادها تابع يرتدى زيا أخضر مخصصا لأمثاله نزولا عبر متاهة من السلالم والردهات فى القصر وصولا إلى باب أفضى إلى سلسلة من

الحدائق. «من المحتمل أن تمطر يا مدام، لذا أنصح بأن تسلكى الممشى الذى تغطيه التعريشة. ستكونين بمأمن هناك».

بلغت التعريشة ألف متر طولا كانت مظلمة، تظللها أوراق النباتات. كانت السائرة الوحيدة على مدى ثلاثين دقيقة؛ ثم انضم إليها رجل دين كاثوليكى، يرتدى أروابا حمراء قانية، يرتل فى كتاب الشعائر اليومية وكأنه فى حديقة دير، أومأ برأسه دليلا على أنه أحس بوجودها وهو يمر بجانبها. تخيلت وهى ترتدى المعطف والقبعة اللذين يزينهما جلد كلب البحر، ويداها متدثرتان فى إسطوانة فراء كلب البحر، تخيلت نفسها كواحدة من سيدات المجتمع الراقى اللائى اعتادت أن تراهن يستمتعن بنزهتهن الصباحية أسفل بواكى ميدان ديه فوسج. أرتدى ملابس من تصميم مسيو وست، أدعى إلى كومبيان، أنحنى أمام الإمبراطورة، أجلس على نفس مائدة لويس نابليون، كولونيل وسيم يبتسم لى، وصيفة تساعدنى على ارتداء ملابسى وتصفف لى شعرى... ومع هذا فإننى فى نفس هذا الوقت فى الأسبوع المقبل سأرجع إلى تور فى مانوار ديه شين، زوجى منعزل فى ورشته، دميته الميكانيكية تفتح بواباتنا للتجار المحليين الذين يظنون أننا متحالفون مع الشيطان، رنين الأجراس تخطره بكل حركة فى المنزل نهارا وليلا تدق اثنتان وأربعون ساعة مسجلة الثوانى، الساعات، والسنين. سيصبح الحرس المائة والعربات المكشوفة والقطار الملكى والإمبراطور والإمبراطورة شيئا ما حدث ذات مرة منذ أمد بعيد. ستملأ مجموعة ملابسى الجديدة حجرة التزين، سأحزم التنورات ذات الأسلاك إلى الأبد. فأين سألبسها يا ترى؟ حتى ولو فى زيارة إلى باريس لن تكون هناك مناسبة. يمكن أن ألبس أزياء

بعد الظهيرة فى تور، ولكن ليس لدينا أصدقاء هناك، لا يوجد من يقدرها ويمتدحها. سألبس المعاطف والقبعات والثياب النهارية، نعم، مرارا وتكرارا، حتى تصبح موضة قديمة وتوضع بعيدا كتذكارات إلى جانب فستان الزفاف والفستان الذى ارتديته وأنا أتناول سر القربان المقدس للمرة الأولى..

سمعت صوت سقوط المطر الخفيف، لكن الممشى أمامها ظل جافا تحميه كثافة النباتات فوقها. تخيل هذا القصر الضخم المليء بالخدم والأثاث واللوحات والمشغولات اليدوية ومع هذا، فإنه يستخدم بضع أسابيع فقط من كل عام. لو كانت أمى على قيد الحياة، كنت سأخبرها بشأن الفساتين والحرس المائة وانحناءتى للإمبراطورة؛ لكن والدى لن يصدق أننا دعينا إلى هنا لأن الإمبراطور يريد من أونرى أن يقدم خدمة ما. ما الذى يمكن أن تكونه هذه الخدمة، سيقول إن زوجك ليس جنديا ولا دبلوماسيا، ما الذى يمكن أن يحتاجونه منه، ما الفائدة التى سيجنونها من ورائه ومن وراء حيله؟

رأت فى نهاية نزهة التعريشة سياجا وممرات وحدائق رسمية، مهجورة بعد أن أسدل عليها المطر ستائره. ما هو الوقت؟ نظرت خلفها. كان رجل الدين قد دخل. انتابها القلق فجأة، جرت فى اتجاه العودة فى ممشى التعريشة المظلم الذى أصبح الآن طويلا ومملا حتى وصلت إلى المدخل حيث وجدت هناك التابع المخصص لها يجلس على كرسى عال، ينتظرها. أخبرها بالساعة. الغداء فى الحادية عشرة، باق أقل من ثلاثين دقيقة لتغيير ملابسها. قادها عائدة إلى حجرتها ومضى مسرعا لاستدعاء الوصيفة العجوز. جلست إيميلين مفزوعة، كتفاها عاريتان

بينما أخذت الوصيفة العجوز وفمها مملوء بالدبابيس. أغلق لامبير مفكرته وقال غاضبا:

- «لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ نحن متأخرون بالفعل. إن الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق. كيف فعلت هذا؟»

- «لتذهب إذن، إذا ما رغبت فى ذلك. يمكنك أن تقدم اعتذارا عن غيابى».

- «يحتمل أن أفعل. يجب على أحدنا أن يكون منضبطا فى مواعيده». طوى الكتاب بصوت مسموع وانصرف خارجا من الحجرة.

قالت جزئيا لنفسها وجزئيا للوصيفة العجوز «ربما ألا أذهب. لن يفتقدنى أحد».

- «كلا يا مدام. سيلاحظون. أى الفساتين ستختارين يا مدام؟»

اختارت الفستان المصنوع من البوبلين الأزرق الداكن يزينه مخمل أزرق داكن وجاهدت وهى تحشر جسمها فيه بينما تشكّت الوصيفة العجوز وهى تقفل سوارّها بمشبك.

- «أنت جاهزة الآن، يا مدام. بالهناء والشفاء».

وقف تابع لدى الباب. تبعته نازلة الدرج عبر ردهات طويلة ومملة حتى وصلا القاعة الكبرى حيث ألفت - علامة سيئة - الحرس المائة يقفون فى حالة استرخاء، ثم وقفوا وقفة انتباه وهى تمر مهرولة. كانت أبواب قاعة الطعام مغلقة. هرع خادم لفتحها وأدخلها التابع المخصص لها.

كان الغداء قد بدأ. تبعت التابع وهى مطرقة الرأس ومحمّرة الخدّين بمحاذاة المائدة الطويلة. أين أونرى؟ أين يجب أن تجلس؟ هل

الإمبراطور رفع رأسه وهى تمر بسرعة من أمامه؟ كبير أمناء البلاط فعل ذلك.

همس التابع «لم تحدد أماكن الجلوس بشكل رسمى بالنسبة إلى الغداء. أتحبين يا مدام أن تجلسى هنا؟»

سحب كرسيا وأخيرا جلست. رحبت السيدة الجالسة قبالتها بابتسامة ثم التفتت لتهمس شيئا ما إلى جارها، وهو شاب أرستقراطى، فوضع يده على فمه كأنه يكتم ضحكة. ما الذى يقولانه؟ أيسخران منى؟ ثم رأت بعد ذلك أونرى عند الطرف الآخر من المائدة يميل إلى الأمام ليجذب انتباهها وسدد لها نظرة غاضبة. حاولت أن تجعله يتخلى عن نظرته بأن حدّقت فيه لكنه أدار رأسه، وكأنه يوبخها وتحادث فى ابتهاج مع جارته الجالسة على يساره. أين الكولونيل؟ لكن المائدة طويلة جدا، والضيوف يربو عددهم على المائة يمكن أن يكون فى أى مكان وسط هذا الحشد. التفتت إلى السيد الجالس على يمينها.

قالت «صباح الخير».

– «ليس أفضل الصباحات، أليس كذلك، يا مدموازيل. إنها تمطر فى الخارج. أتوقع أنهم سيضطرون إلى إلغاء نزهة الصيد بعد ظهيرة اليوم. هل مرافقك بندقية؟»

– ما الذى يعنيه؟ شعرت بأنها فى ورطة، ابتسمت له. دعانى بمدموازيل. بندقية؟

قال السيد «يوجد الكثير من البنادق الماهرة جدا فى هذه السلسلة. إن الأمير فون لوفنشتاين، وهو نمساوى، موجود هنا. لقد تمكن من اصطياد ألف ومائتى طائر فى يوم واحد فى كومبيان فى العام

الماضى. مذهل. وبالنسبة لى، إننى سعيد لأنها تمطر. أخشى أن أقول إننى رام خائب».

- «أتمنى أن تمطر الأسبوع بأكمله».

ابتسم السيد. «من أجلى يا مدموازيل؟ كم هو جميل منك».

قالت «كلا، أقصد من أجل الطيور».

ضحك. «أرى أنك تتمتعين بقلب رقيق. لكننى لاحظت أنك تكادين أن تأكلى تدرجا[1]».

نظرت إلى طبقها. تقدم تابع ملأ كأس النبيذ الخاص بها من دورق بللورى. ورفع السيد كأسه ليتبادلا النخب. قال :

- «أنا آسف. لم يكن هذا عدلا. سامحينى. دعينى أقدم نفسى. أنا جان دو كورسل. وأنت يا مدموازيل؟».

قالت «لامبير. وأنا مدام».

- «لامبير؟ هل أنت، بالمصادفة زوجة الساحر؟ قيل لى إنه هنا».

- «نعم».

ابتسم ونظر إليها مرة أخرى الآن، أحسست بأن نظرته تحمل نوعا خاصا من التلطف. «آه ! إذن نحن فى انتظار مفاجأة ممتعة، أليس كذلك؟ لا بد أن تقدمينى لزوجك. كنت مبهورا دائما بالسحرة والحيل السحرية».

***

توقف المطر. أخذ الضيوف يغادرون مائدة الغداء بينما بدأ يشرق ضوء شمس نوفمبر البارد متسللا من النوافذ الفرنسية الطويلة المطلة على الحدائق الرسمية عند نهاية القصر. انتظرت إيميلين عند أبواب

(١) التدرج: طائر أحمر الجناحين أزرق العنق طويل الذيل.

غرفة الطعام حتى انضم إليها لامبير ثم سارت معه فى غضب صامت حتى الردهة التى يقف فيها الحرس المائة. فى نهاية الردهة وقفت مجموعة من أمناء البلاط يتحادثون مع ضيوف بعينهم، كان أحدهم الكولونيل دنيو، الذى ما أن رآها حتى أتى من فوره، انحنى وقبل يدها، قبلة حقيقية، بللت شفتاه جلدها.

– «صباح الخير يا مدام. وأنت يا لامبير يا رفيقى العزيز، عندى أخبار لك. هل تصطاد بالبندقية؟»

رأت أونرى ينظر إليها محذرا. قال وهو يضحك ضحكة زائفة «ليس بصورة منتظمة لكنى أستطيع أن أصوب بالبندقية. ومع هذا، ليس معى بندقية ولا عدة الصيد».

قال الكولونيل «ولا أنا، لكنهم سيجهزوننا. لقد طلب الإمبراطور أن ننضم إلى مجموعته بعد ظهيرة اليوم. وأنت أيضا يا مدام بالطبع. ستنتظر العربات فى الساحة الرئيسية فى الساعة الثانية». التفت إليها:

– «ستنضم إلينا الإمبراطورة، وبالتالى فإنه يمكن أن تظفرى بفرصة الالتقاء بها. لا تنسى أن ترتدى ثيابا تبعث على الدفء. إنى أتطلع لأن أراك بعد ظهر اليوم». انحنى وابتسم واستدار وذهب اتجاه الحدائق.

قالت «ما الذى دهاك؟ لماذا قلت إنك تصطاد؟ أنت لم تخرج قط فى رحلات صيد، أنت قلت لى إنه لا يستهويك هذا الأمر. إلى جانب أنه أمر قاس، بشع، غبى».

– «أعرف، أعرف. لكنى مضطر إلى الذهاب، إنى مضطر! هذه دعوة شخصية من لويس نابليون نفسه. أستحلفك بالله يا إيميلين! أرجوك، يا محبوبتى. أنت مدعوة أنت الأخرى. لو رفضت ستكون إهانة موجهة إلى الإمبراطورة. أرجوك؟ أنا لم أطلب منك الكثير، أفعلت؟»

– «كلا». فجأة أحست كأنها ستنسحب.

– «إذن، أرجوك؟».

***

في الساعة الثانية، ساعدهما الخدم في الصعود إلى العربة المكشوفة وغطوهما ببطاطين ثقيلة. جلس الكولونيل في مواجهة إيميلين، ساقه تلمس ساقها تحت البطانية. انخرط لامبير الذي جلس في الطرف الأقصى من العربة مع جاره رجل المصارف العجوز في محادثة متقطعة.

نفخ في الأبواق في الفناء الرئيسي عند خروج الإمبراطور من قوس المدخل الرئيسي في صحبة سيد، قال الكولونيل دنيو إنه الأمير ميترنيخ، السفير النمساوي. اعتلى الاثنان عربة صغيرة تجرها الكلاب وتولى الإمبراطور القيادة. تلته الإمبراطورة هابطة الدرج الحجري الكبير، ترتدي فستانا أخضر للصيد وقبعة ثلاثية الأركان تزينها جديلة ذهبية. وكانت تصحبها الأميرة فون لوفنشتاين، زوجة الصياد الشهير. طرقع الإمبراطور بسوطه فتحركت عربته وتبعها موكب العربات خارجة من الفناء الرئيسي ودخلت شبكة من الطرق الخاصة والتي تقاطعت داخل الغابة الملكية الضخمة. كانت إيميلين، وهي متدثرة بمعطف السفر والحذاء ذي الرقبة المبطن بجلد كلب البحر، على وعي بأنها والكولونيل محشوران وأن هذا يسليه ويسعده.

سألها:

– «هل أنت متدفئة بما يكفي؟ أخشى أن يكون الجو باردا عند الصيد».

قالت «إني مرتاحة جدا.في واقع الأمر أتمنى ألا أبرح هذه العربة وألا أضطر للمشاهدة».

– «لكنك ذهبت إلى مطاردات للقنص من قبل، ألم تذهبي؟ أتصور أن زوجك رام ماهر».

– «هل قال لك ذلك؟»

ضحك. «كلا ولكنه يبدو أنه على علم بالبنادق».

قالت «أنا لم أره يصطاد قط. إنه يخرج الطيور والأرانب من القبعات».

ضحك مرة أخرى ونظر إليها مبتسما ابتسامة إعجاب وتواطؤ.

– لماذا قلت هذا؟ السخط على أونرى، نعم؛ لكن هناك شيئاً أكبر. أردت أن نسخر منه سويا.

الآن صار بمقدورهم أن يروا أمامهم مساحة كبيرة من الأرض مفتوحة تحيط بها غابة كثيفة. تجمع هناك حشد فى انتظار وصولهم. بدا لإيميلين عند هبوطهم من العربات وكأن سكان كومبيان عن بكرة أبيهم تحولوا إلى مطاردى القنص من مخابئه ومشاهدين. اتخذ الآن ممارسو هذه الرياضة أماكنهم بتوجيه من أمناء البلاط فى صف طويل يتوسطه الإمبراطور والأمير ميترنيخ على يمينه والأمير فون لوفنشتاين على يساره. رأت زوجها والكولونيل يقفان قرب آخر الصف.

بمجرد اصطفاف ممارسى هذه الرياضة فى أماكنهم طلب من السيدات أن يقفن خلفهم على نحو قريب جدا من وجهة نظر إيميلين، لأنه خلف السيدات مباشرة وقف حرس الطرائد يندفعون إلى الأمام لحشو وتسليم البنادق لأسيادهم. وفجأة، رفع لويس نابليون يده وتحركت فى ضجة هائلة صفوف من مطاردى القنص عبر الغابة مجبرين الطيور على الطيران من فوق الأشجار والأرانب البرية على الهرولة فى المساحة

المفتوحة. وقد أفزعت الضجة المئات من الحيوانات وجمعتها فى منطقة لا فكاك منها والآن تدفع دفعا لتلقى حتفها.

وقفت إيميلين وقد صمّها هدير البنادق وأغمضت عينيها أمام سيل الحيوانات النافقة المنهمرة من السماء، وهى تعى أن من كل الجهات حولها ينطلق مطاردو القنص لالتقاط الحيوانات النافقة والتى توشك على أن تنفق ويضعونها فى أجولة مرقمّة وبالتالى يستطيعون حصر عدد الحيوانات التى اصطادها كل رام. أونرى؟ والكولونيل؟ التفتت ونظرت فى آخر الصف. كان لامبير يرفع بندقيته ويطلق النار ويتبادلها مع من يحشوها له بأخرى جديدة، كان ماهرا ولكن حركته مسرحية كما هو الحال فى كل شىء، نسى وحشية هذه الرياضة وسط سعيه المحموم ليرى كواحد من هؤلاء الأرستقراطيين الأثرياء والخاملين. نظرت لما وراءه، إلى الكولونيل دنيو. وقف بوجهه ذى الندبة ميت الإحساس، يطلق النار كجندى فى صلابة نحو عدو غير مرئى فى السماء، متجاهلا المخلوقات المثيرة للشفقة الساقطة عند قدميه، منها ما نفق ومنها ما يوشك على مفارقة الحياة.

أحست إيميلين بالغثيان وأخذت تستدير يمنة ويسرة لتفادى من يحشون البنادق وأولئك الذين يلتقطون الطيور النافقة، أصداء ارتجاج إطلاق النار، رائحة البارود، نتن الموت، وأدركت فجأة أنها ستتقيأ ولذا رفعت تنورتها الطويلة وجرت للخلف نحو العربات. رأت أمامها الإمبراطورة ووصيفتها تهرعان نحو العربة المكشوفة وسائقها أتى بدرجة خشبية ليساعدهما على الصعود إلى العربة. استدارت الإمبراطورة فرأت إيميلين وجهها شاحب وهلعة.

- «هل أنت بخير يا عزيزتى؟»

هزت إيميلين، التى عجزت عن الكلام، رأسها وهى تكتم العصارة الهضمية فى حلقها.

قالت الإمبراطورة «إن الجو بارد جدا. هذه هى رطوبة نوفمبر. نحن الآن سنرجع أنصحك أن تحذي حذونا إذا ما كنت تشعرين بأنك لست على ما يرام».

بعد أن قالت هذا، صعدت الإمبراطورة ووصيفتها فى مقعديهما. استدارت إيميلين مبتعدة حتى لا تريا شيئا. مالت بجسمها للتقيؤ.

أقبل أحد أمناء البلاط مسرعا عبر الحشائش:

- «يا مدام أنت تشعرين بالتوعك. أترغبين فى العودة يا مدام؟».

هزت رأسها وهى تعسة، تتلمس منديلا داخل إسطوانة الفراء لتمسح فمها. سمعت أمين البلاط ينادى «جورج !».

جاء الحوذى ولمست أصابعه قبعته مؤديا التحية. «إذا سمحت المدام واتبعنى؟».

قادها إلى الفيتون[1]، ساعدها فى الصعود إليها وغطاها بروب ثقيل. التفت بعض سكان القرية ليروها بينما أخذت العربة الصغيرة تتدحرج فى طريق ملكى. بدا تقطع أصوات البنادق الغاضبة على مبعدة شبيها بنعيق الغربان على نحو غريب. ثم أصبحت وحيدة، هادئة بعيدة عن ضجيج المجزرة، تسمع فقط وقع حوافر الفرس، الحوذى الجالس على دكته أمامها يهز رأسه مع اهتزاز الفيتون فى طرقها نحو قصر كومبيان.

---

(١) الفيتون: عربة ذات أربع عجلات يجرها جوادان تحمل من أربعة إلى خمسة ركاب.

أظلمت السماء. ازداد الرذاذ ليصبح مطرا خفيفا. فتح الحوذى مظلة وأعطاها إليها ثم ضرب حصانه بالسوط ليركض. جلست إيميلين وعيناها مغمضتان، رأسها مطرق، تقبض على عصا المظلة بيديها مثل الصليب المحمول فى موكب، بدأ الغثيان يعاودها. إذا ما استمر هطول المطر فسيتوقف الصيد وسيعودون للقصر باحثين عن تسلية جديدة. قتل الطيور، صيد الغزلان، حفلات الشاى، مآدب، الفوازير والأحاجى، حفلات الموسيقى، الرقص، أى شىء وكل شىء يجتازون به الملل والعجرفة واللامبالاة فى حياتهم. لماذا تظاهرت بأن الكولونيل ليس واحدا منهم، إنه الشخص الذى أتى بنا إلى هنا، كيف يمكن له أبدا أن ينجذب إلى شخص مثلى، أيا كان ما يريده من أونرى، فإنه يناسبه ويسليه أن يغازلنى، وأكون مغفلة لو ظننت أنه شىء آخر. لو كانت هذه العربة ستوصلنى إلى روان. كان والدى سيعطينى دواء يوقف الإحساس بالغثيان، وستخلع مارى لى ملابسى وتأتى لى بشاى عشبى وتضع قرب الماء الساخن فى سريرى. سأقول لأونرى إنى مريضة، سأقول له إننى ستنتابنى الحمى، سأقول له إنه لا يمكننى أن أستمر فى البقاء هنا وأنا مريضة، سأطلب منه أن يعيدنى إلى تور مع تلك الخادمة العجوز، ستعتنى بى، إنه ليس مضطرا لأن يصحبنى، يمكنه أن يبقى حتى آخر الأسبوع، يقدّم عرضا ويتحدث مع الإمبراطور بشأن ذلك الشىء أيا كان الذى يريدون منه تنفيذه، على أية حال هو غاضب منى، كان فى قمة غضبه هذا الصباح عندما أتيت متأخرة عن موعد الغداء وعندما لم أرغب فى الذهاب إلى مطاردة القنص بالبنادق. لن يفتقدنى أحد. سأذهب إلى سريرى الآن. غدا فى الصباح، سأرحل.

دمدمت الفيتون عابرة الأقواس الكبيرة المؤدية إلى الساحة الرئيسية.
وبمجرد عبورها الساحة أعطى كبير الخدم، الذى كان واقفا عند البوابة الرئيسية، إشارة تفيد اقتراب عربة. أقبل تابعان مسرعين لمعاونة إيميلين على الهبوط. هتف الحوذى «إن المدام أصابتها وعكة». وفى التو، فحص كبير الخدم قائمة وحدد رقم حجرة لامبير. حمل التابعان إيميلين، مثل ممرضين فى غاية الاعتناء وتوفير سبل الراحة، الدرج الطويل حتى حجرتها. وجلب خادم ثالث حطبا وأوقد نارا فى موقد حجرة الجلوس.

– «هل نستدعى خادمتك يا مدام؟»

– «كلا، شكرا».

ذهبت إلى غرفة النوم المظلمة، وأغلقت الباب وخلعت ثيابها ومشدّها ودخلت السرير. عاودها الغثيان فى شكل نوبة، ثم انقضى. وفى خلال دقائق، حل إنهاكها فغرقت فى نوم عميق.

***

«يا مدام؟ لوسمحت؟ هل تستطيعين شرب هذا؟» استيقظت فى غرفة مظلمة باستثناء شمعتين يتذبذب ضوؤهما. كانت الخادمة العجوز تقف عند رأسها، تقدم شايا عشبيا فى كوب من الخزف الراقى، وجعلت ارتعاشة يديها الواهنة الكوب يتراقص فى طبقه.

– «كم تبلغ الساعة؟»

– «إنها الثامنة، يا مدام».

– الساعة الثامنة. يوشكون أن ينتهوا من عشائهم.

قالت الخادمة العجوز «أنا لم أوقظك فى وقت مبكر عن هذا حيث أوصى الطبيب أن نسمح لك بالراحة».

– «هل جاء الطبيب إلى هنا؟»

– «نعم، برفقة زوجك، يا مدام. لقد ألقيا نظرة منذ زمن. إن مسيو يتناول عشاءه الآن. قال إنه سيطل عليك قبل الحفل الموسيقى. كيف حالك يا مدام؟ هل تشعرين بأنك تحسنت؟»

قالت «لست أدرى». لكنها كانت تدرى. تراجعت حالة الغثيان. لم تعد تحس بالبرودة. أصبحت الآن مشاهداتها المقرفة فى هذا اليوم ذكرى. أنا بخير، لكن إذا كان سيسمح لى بالرجوع إلى المنزل فلا بد ألا أفصح عن ذلك.

– «أشكرك على الشاى العشبى، يا فرانسواز».

– «ارتاحى الآن يا مدام».

***

عندما أفاقت وجدت زوجها يركع بجانب السرير يمسّد يدها. نظرت إلى وجهه القلق، وعلى الفور، رأت جانبا كان لا يمكن تجاهله: بالرغم من تمحوره حول ذاته، وبالرغم من عجزه عن فهم وحدتها وإحساسها بالملل، وبالرغم من طموحه الجموح، كان يحبها.

– «كيف حالك يا محبوبتى؟»

– كيف لى أن أكذب عليه؟

قالت «أفضل».

– «لا أستطيع أن أسامح نفسى. لم أعلم بما حدث إلا حينما عدت بعد رحلة الصيد. بحثت عنك عند من يحصرون عدد الحيوانات التى جرى اصطيادها وعندما قالوا إنك عدت أعترف أننى ظننت أنك فعلت هذا لتحقّرينى. آه يا محبوبتى، إنى آسف. كان يجب علىّ أن أهتم بأمرك أكثر».

قالت «لا عليك. إنى لم أستطع أن أشاهد هذه الحيوانات تقتل».

– «حسنا، على الأقل الآن نعرف ماذا سنفعل. سينظمون رحلة لصيد الغزلان يوم السبت وفى أعقابها سيقيمون نوعا من مراسم الصيد. سأتحدث مع دنيو. سنوجد لك أعذارا».

قام من وضع الركوع. «ولدىّ أخبارا طيبة بالنسبة لك، يامحبوبتى. سنحظى أنا وأنت ودنيو بلقاء خاص مع الإمبراطور يوم الجمعة. وبالتالى يمكننا أن نسترخى حتى هذا الموعد. سمعت أنهم سيقيمون عرضا مسرحيا فى الغد. ستكون فرقة تياتر فرانسيز بكل تأكيد. لنأمل أنك ستكونين بخير للاستمتاع به».

– انحنى ومال عليها وقبّل خدها. «نامى الآن. تصبحين على خير».

الفصل الثالث

كان مسرح البلاط، الذى يضارع أى مسرح فى باريس، من ناحية الضخامة، تضيئه ألف شمعة، مما خلق وميضا رومانسيا متوهجا، فأبرز المجوهرات والفساتين التى ترتديها السيدات ضمن المشاهدين. كانت المقصورة الإمبراطورية مصممة على شكل محارة وتبدأ من أول صف من الصفوف المدرجة حتى آخر مقاعد الباركيه فى صالة العرض. وكان مقعدا جلالتيهما فى وسط المقصورة ومقاعد الضيوف من السيدات وأكثر السادة أهمية من حاملى الألقاب موضوعة على جانبيهما ووراءهما. جلس السادة الآخرون على مقاعد خلف الأوركسترا وظلوا يتبادلون الجلوس على المقاعد بين الفصول. وإلى جانب ضيوف الإمبراطور، وجهت الدعوة إلى ضيوف فى حفل ضخم فى قصر مجاور ليملأوا بقية مقاعد المشاهدين.

ظهرت الآن الإمبراطورة فى المقصورة وسط صمت مفاجىء وتبعها الإمبراطور مبتسما وأصابعه تلمس نهايات شاربه الطويل المشمع. هب

الجميع وقوفا عند ظهور جلالتيهما، انحنت السيدات بثنى ركبهن وانحنى الرجال. وانحنى صاحبا الجلالة ردا على ذلك. أعطى رئيس التشريفات الإشارة وعلى الفور رفع الستار. وجلبت مناظر المسرحية من باريس بينما لعب أدوار الممثلين الرئيسية القدير كوكلان ومادلين بروان ومدام فافار، وجميعهم أعضاء فى فرقة التياتر فرانسيز.

جلست إيميلين، التى ارتدت أكثر فساتين وست جمالا، فى الصف الثانى. كانت تنظر حواليها وهى مشدوهة من المكان والمجوهرات والفساتين، وإحساسها بأنه بالرغم من مشاعرها العدائية، إلا أن هذه الليلة تعد واحدة من أعظم المناسبات فى حياتها. وقد استحوذت عليها قصة المسرحية منذ أول لحظة تقريبا. وأصبح كوكلان ومادلين بروان تجسيدا حيا للشخصيات التى لعبا أدوارها. وكانت المسرحية ذاتها مؤثرة: انتحبت حتى أن منديلها المصنوع من الدانتيلا صار مبللا مع تكشف القصة تدريجيا. وانضم إليها زوجها والكولونيل دنيو فى الاستراحة. وبدا أنهما هما الآخران قد غيّرت فيهما الأمسية شيئا. حتى لامبير الذى دائما ما يحكم على العرض المسرحى من وجهة نظر مهنية كان هذه الليلة متحمسا، مبتهجا مثل صبى يشاهد أول مسرحية فى حياته.

فى العاشرة والنصف انتهى العرض المسرحى، وبعد ذلك تبع كل الضيوف الإمبراطور والإمبراطورة إلى قاعة الاحتفالات الكبرى. ثم أرسل الإمبراطور فى طلب الممثلين الذين ظهروا بعد تغيير أزيائهم واستقبلوا بعاصفة من التصفيق. راقبت إيميلين كوكلان يتحدث مع الإمبراطور ولاحظت كيف أنه كان قادرا على أن يجعل الإمبراطور فى

حالة ارتياح، يضحك ويحادثه فى غير اكتراث على نحو بدا معه أن الضيوف المتميزين عجزوا عن ذلك طوال الأيام السابقة. لسبب ما أراحها هذا وجعلها أكثر طمأنينة عن أى وقت مضى منذ وصولها إلى كومبيان. كان الإمبراطور رجلا، كان إنسانا، أراد أن يمتّع نفسه، هو الذى يقف أعلى السلم الاجتماعى لم يزدر كوكلان، الذى كان مثل زوجها، شخصاً يقدم عرضا على المسرح.

فى الساعة الحادية عشرة قدّمت المرطبات، وأعلن أن العربات جاهزة، وانحنى الفنانون انحناءة توقير لجلالتيهما واستأذنوا فى الانصراف. ثم انسحب الإمبراطور والإمبراطورة. ورحل الضيوف الذين قدموا من القصر المجاور فى عرباتهم، تاركين لضيوف الدار حرية التوجه إلى حجراتهم.

***

فى الصباح التالى ظل مزاجها الذى تغير على حاله. أحست بأنها بلا هموم، حرة ولم تعد مستفزة من مظاهر الأبهة التى تحيط بها. فاجأت نفسها، بعد أن تناولا وجبة منتصف النهار، مع اقتراب رئيس التشريفات، ليسأل كالعادة ماذا يعتزمان عمله وأجاب لامبير كالعادة بأنه يرغب فى الجلوس والقراءة، بأن طلبت مشاهدة بعض المناظر فى الجوار.

قال رئيس التشريفات «فكرة رائعة، توجد قلعة بديعة قريبة وهى قصر دو بييرفون، وهو أطلال سابقة يجرى ترميمها بناء على قرار من الإمبراطور. ويعد واحدا من مشروعاته العظيمة. إنه يستحق الزيارة».

رأت إيميلين فى هذه اللحظة الكولونيل دنيو وقد صعد إليهما ووقف بجانب لامبير مباشرة. «هل قلت قصر بييرفون؟ إننى أرغب فى رؤيته بشدة. هل تسمحين لى بأن انضم إليك يا مدام؟».

قال أونرى وهو يلتفت إلى الكولونيل «رائع، إذا ذهبت معها فستخفف عنى قليلا الشعور بتأنيب الضمير».

لاحظت على الفور أن الكولونيل بطريقته المتواطئة تجاهل تعليق زوجها، وبدلا من ذلك، أخذ ينظر إليها فى انتظار ردها.

قالت له «لا بد أن أرتدي ملابس السفر. لكننى يمكن أن أكون جاهزة، لنقل، فى حوالى نصف ساعة؟»

– «ستكون بانتظارك اللنداو[1] وبها سلّة للأطعمة فى الساحة الرئيسية، وقتما تهبطين».

ابتسمت للكولونيل. «هل هذا يناسبك؟»

– «تماما يا مدام. إلى اللقاء».

***

كانت غابة بييرفون ملاصقة لغابة كومبيان الملكية. شرعا فى الذهاب وسط غيوم نوفمبر وهما جالسان جنبا إلى جنب متدثرين بالفراء والبطاطين، عبر طرق الغابة المتعرجة وأوراق الأشجار الميتة والجافة تصدر حفيفا أثناء انسحاقها تحت أقدام الجياد. فى البداية جلسا صامتين يشاهدان ما حولهما من مناظر جميلة للأشجار والبحيرة؛ ثم مع استمرار السير فتح دنيو حديثا مهذبا عن مسرحية ليلة أمس وممثليها. وفجأة، قال:

(1) اللنداو: عربة خشبية بأربع عجلات ذات غطاء قابل للطي ويجرها حصانان ويجلس فيها الركاب فى جهتين متقابلتين.

– «تبدين اليوم أكثر سعادة. أنا لا أعنى أنك لم تعودي مريضة. أنت لم تعودى تكرهين وجودك هنا. ألست على حق؟»

– «نعم».

– «إننى سعيد. فقد كانت فكرة الإتيان بك إلى هنا فكرتى، كما تعلمين».

قالت «كلا، لم أعلم. لكن قل لى. لماذا تريدنى أن أكون هنا؟»

– «لأنك جزء من خطتى. أدرك أن كلامى يبدو محيرا، لكن عندما سنتقابل مع الإمبراطور يوم الجمعة القادم، أظن أن الأمر سيتضح. إنك عنصر مهم جدا فى هذه المسألة. نعم، نعم لقد ارتكبت خطأ. تصورت أنك ستستمتعين بزيارة كومبيان. عندما رأيت أن ذلك ليس صحيحا، انزعجت. لكن الآن هل مسرحية ليلة أمس جعلتك تغيّرين ذهنك؟ آمل فى هذا».

– ما الذى يعنيه؟ قالت «لماذا أنا جزء من خطتك. أخبرنى».

– «ليس الآن. لكني أعدك أننى سأفعل».

انتهت الرحلة عبر غيوم نوفمبر الباردة مع انتشاءة مباغتة فى الطريق عندما رأوا فجأة الحجم المهول للقلعة – القصر بييرفون – الذى ارتفع وشمخ عن البلدة الصغيرة التى تحمل نفس الاسم. واتبعوا الطريق المؤدى إلى القصر فوصلوا إلى بوابة ثم إلى بوابة ثانية عبروها إلى ساحة، وأخيرا قبقبت عربتهم على جسر يرفع وينزل لتتوقف أمام المدخل الرئيسى. ساعدها الكولونيل على النزول قائلا «دعينا لا نتخذ مرشدا، أو نفعل ذلك؟ إنهم يتكلمون كثيرا جدا. دعينى أكن مرشدك. إننى أعرف بعض الأشياء عن هذا المكان. ألا تحسبين أن الأمر سيكون أكثر إمتاعا إذا اكتشفناه بأنفسنا؟»

وهكذا، لوّح مبعدا الخادم الذى انتظر ليرشدهما، مرا من خلال كنيسة صغيرة مظلمة ذات قباب، صعدا أكثر من مائة سلمة حجرية للوصول إلى منصة تطل على منظر البلدة الصغيرة والغابة المحيطة بها. هبّت ريح باردة متسللة من خلال الاستحكامات وهما يقفان جنبا إلى جنب ينظران إلى أسفل. ارتعشت وأعطت ظهرها. عندما رأى هذا، خلع رداءه المبطن بالفراء ولفّه حول كتفيها. كان هذا سلوك أى سيد مهذب فى مثل موقفه، لكنه حينما فعله لم يترك الرداء إنما أمسك به وهو على جسدها للحظة طويلة. قال «أرى أنك مهيأة لمناخ أكثر دفئا. أنت تحتاجين إلى الشمس، أنت تحتاجين إلى الفضاء، أنت تحتاجين إلى الصحراء. إن الصحراء لها جمال لا يمكن تخيله حتى يراه المرء. لا بد أن تزورى إفريقيا».

وعند نطقه بهذه الجملة رفع يده عن الرداء. أحكمته على نفسها.

– «إفريقيا؟ لماذا أذهب إلى إفريقيا؟ إنى لا أفهم».

– «ستذهبين». أمسك بذراعها. «لنهبط ونلقى نظرة. زار هذه القلعة الكونت دو فوجيه منذ أيام وأخبرنى أنها ليست مثيرة بحق. تمكن شخص ما منذ مائة عام من شرائها بثمانية آلاف فرنك فقط. تخيلى! والآن كما تعرفين فإن الإمبراطور يرممها. قال فوجيه إنه يوجد شىء واحد مذهل هنا، مدخنة هائلة فى صالة الحرس. لنعثر عليها لنتناول طعامنا فيها، هيا بنا؟»

استدعى خادم بالقصر الحوذى وأتى لهما بسلة الطعام فى صالة الحرس، وهى قاعة ضخمة مهجورة، مؤثثة فقط بدكاك حجرية عتيقة وتهيمن عليها المدفأة، تضارع مساحة بلاطها إسطبل الخيول فى الضخامة، يبلغ ارتفاع مدخنتها أربعين قدما، يزينها مائة سنجاب

منحوتة حدقت فيهما بفضول حجرى. نشر الحوذى إحدى بطاطين العربة على بلاط المدفأة. أفرغ اللحوم الباردة وفاكهة وكيك ونبيذ وأتى خادم القصر، الذى عرف أنهما زوار سلسلة الإمبراطور، بحطب وما يوقده به، وأشعل نارا صغيرة أسفل قوس المدفأة الكبير. انصرف الخادم والحوذى بعد ذلك فتركهما وحيدين فى القاعة التى يتردد فيها صدى الصوت فى أرجائها الشاسعة.

أضفت شمس ما بعد الظهيرة، التى تسللت عبر نوافذ عالية ضيقة، تحجبها غيوم نوفمبر الباردة، أضفت على الظلال حولهما ضوءا ذهبيا ضبابيا. رفعت إيميلين غطاء رأس المعطف الذى ترتديه، كاشفة عن عنقها، تاركة لفة شعرها الكثيف تنزل على خدها. طقطقت النار واضطرمت، تصاعد الدخان فى دوامات أعلى جدران المدخنة. مالت نحوها، سقط الضوء الذهبى الغائم على كتفيها وشعرها.

قال دنيو «إنك تشبهين ملاكا من العصور الوسطى». أمسك بزجاجة النبيذ وجلس بالقرب منها، أعطاها كأسا. «هل تعرفين تبادل الأنخاب الألمانى؟ كلا؟ دعينى أريك إياه. أمسكى بكأسك». مال إلى الأمام، عاقدا ذراعه التى تحمل كأسه عبر ذراعها فى حركة جعلتهما تقريبا وجها لوجه. قال «لنشرب الآن. إنه نخب للصداقة».

شعرت بالحرج لأن شيئا حميما على نحو خطر خلقته هذه الرابطة، تلامس جسمهما، اقترب وجهه الأسمر الوسيم جدا من وجهها، شربت كأس النبيذ حتى ثمالته دون أن تدرك ماذا فعلت. نظر إليها فى استغراب وهى تسحب ذراعها من ذراعه.

- «أصدقاء؟ ألسنا كذلك؟»

- «بالطبع». أطرقت رأسها لتتفادى عينيه.

– قال «يا مدام، أنت لغز».

– «لم؟»

ضحك وهز رأسه. «لست أدرى لماذا، لكنك هكذا. إن ابتسامتك غامضة مثل ابتسامة الجيوكنده. أخبرينى كيف أصبحت زوجة لساحر؟»

كان الدور عليها فى أن تضحك.

– «لأنه دعانى على المسرح خلال إحدى استعراضاته».

– «ألقى عليك تعويذة ففتنك، أهكذا فعل؟»

ابتسمت.

– «بدرجة أو بأخرى».

– «وهل ما زلت مفتونة؟»

نظرت إلى أعلى نحو دائرة صغيرة باردة من السماء فى قمة المدخنة العظيمة فوقها. بماذا أرد على هذا؟ نعم؟ متى تكون كلا؟

قال «إنى آسف. كنت أتفكه. أعلم أن لامبير مأخوذ بك. لقد فتنت الساحر. يجب أن تسمعيه وهو يتحدث عنك».

أعاد ملء كأس نبيذها وأمسك به لها. نظرت فى هاتين العينين السمراوين اللتين تسعيان إلى جعلها شريكته فى التواطؤ. لم تقبل بالكأس.

– «أشكرك، لكن يتعين علىّ أن أرجع الآن. تقول القاعدة إنه على السيدات أن يكنّ موجودات فى غرفهن بحلول الساعة الرابعة. هذا الوقت الذى سترسل فيه الإمبراطورة إذا ما دعتنى لشرب الشاى معها».

ابتسم. «أخبرينى. هل ستدعين، هل تظنين ذلك؟».

- «كلا. لكن أريد الرجوع. أرجوك؟».

قام من فوره.

- «طبعا يا مدام».

***

فى الساعة ٤:٢٠، سمعت نقرا على الباب فى حجرتها فى كومبيان بعد أن خلعت فستان السفر ولبست بدلا منه فستاناً لفترة بعد الظهيرة من الفيلا الزرقاء. ذهبت الخادمة العجوز لتجيب وهناك كان يقف فى الردهة تابع وصبى صغير.

قال التابع «مسيو لامبير؟»

قالت الخادمة العجوز «مسيو لامبير فى المسرح. ترك لك رسالة أن تبعث الصبى له هناك».

عندما أغلق الباب سألت إيميلين، وهى واهنة من الارتياح، «هل تظنين، يا فرانسواز، إنه من الممكن أن تدعونى؟»

قالت الخادمة العجوز «فى مثل هذه الساعة، أشك فى هذا. إن الدعوات توجه فى الدقائق الأولى بعد الرابعة. وعلى قدر ما أتذكر، يا مدام، كقاعدة توجه الدعوات فقط إلى السيدات اللائى لهن معرفة سابقة بالإمبراطورة».

قالت إيميلين «مسيو لامبير فى المسرح إذن».

- «نعم يا مدام. إنه هناك ومعه رجله جول. قال لى جول إنهم يستعدون لتقديم استعراض».

- «استعراض؟ متى؟»

- «أظنها الليلة يا مدام».

***

فى الساعة الثامنة اصطحبها للعشاء سيد، ليس الكولونيل دنيو، إنما هو شخص لم تلتقط اسمه، بدين مصاب بسوء هضم ظل يتحدث طوال تناول الوجبة. «هل أنت باردة؟ «كان هذا هو أول سؤال له، ثم بدون سماع الإجابة اشتكى من أن حجرته تقع فى الجزء المعرض للتيارات الهوائية فى القصر وبها مدفأة تخرج دخانا. «مالم يكن المرء أميرا أو بارونا أو سيدة عامرة الصدر يحاول الإمبراطور غوايتها حتى تصل إلى سريره. سيتجمد على الدوام فى هذا المكان. والتسلية! كنت هنا منذ سنتين وعلى مدى أربع أمسيات متوالية أجبرنا على المشاركة فى لعبة الفوازير المملة. توجد لديهم حجرات مليئة بأزياء مسرحية ويطلب منك أن تختار بعض حركات سخيفة لتوضيح جمل بلهاء. لحسن الحظ، إن هذه ليست واحدة من السلاسل الأرستقراطية. إن الأرستقراطيين يعشقون لعبة الفوازير. لست أدرى ما رأيك، يا مدام، فى هذه المسألة، إلا أننى أجد الطبقة الأرستقراطية غبية بصورة لا تصدق. شكرا أيها الرب، هذه هى ما يسمونها سلسلة الدرجة الثالثة، حيث لا تنتمى الغالبية العظمى من الضيوف، كما تكونين قد لاحظت، إلى الذوات إنما هم من البورجوازية الغنية، رجال مصارف وأجانب أثرياء، أشخاص يرغب الإمبراطور فى استخدامهم على نحو ما.

– «هل زوجك هنا؟»

– «نعم، إنه هنا».

– «أنا آسف. آمل ألا أكون قد وضعت قدمى فى الموضع الخطأ. إنه ليس من رجال المصارف، أليس كذلك؟»

– «كلا».

- «حسنا. بالمناسبة، بعد أن قلت ما قلت عن التسلية، أظن أن العرض المسرحى الذى قدم فى الليلة الماضية لم يكن سيئا. ما رأيك فيه، يا مدام؟»

- «أرى أنه كان رائعا».

- «لو أنه كان باستطاعتهم أن يقدموا شيئا مثل هذا كل ليلة، ما كنا لنموت مللا. هذا ما نحن بحاجة إليه. رجال تسلية محترفون. يا ترى ماذا أعدوا لنا هذه الليلة؟»

نظرت إيميلين حتى نهاية المائدة الطويلة إلى حيث يجلس لامبير كعادته مندمج فى حديث مع رفاق العشاء. ليست سلسلة الدرجة الأولى حسبما يقول هذا الرجل. أجانب، رجال مصارف، أناس يرغب الإمبراطور فى أن يستخدمهم على نحو ما. يا ترى ما الذى يريده من أونرى؟

رفع خادم طبق الحلو الخاص بها وقدّم قهوة. خلال أقل من نصف ساعة سيقف أونرى أمام كل هؤلاء الناس، ليس كضيف لكن كساحر، هنا ليدخل البهجة ويسلى جموع الحاضرين. وستنتهى فزورتى. سأكون زوجة الساحر.

***

فى الساعة التاسعة، رد صاحبا الجلالة على انحناءات السيدات والسادة من المشاهدين وجلسا فى المقصورة الإمبراطورية، أعلن رئيس التشريفات أن اثنين من الضيوف المدعوين سيتوليان الترفيه عن الحضور قبل بدء رقص المساء. وعندئذ، رفع الستار. وقف سيد طويل على منصة وبدأ يقرأ قصيدة. همست جارة إيميلين «من هو؟» وأجاب شخص ما «إنه تيوفيل جوتييه».

رأت إيميلين أن أونرى على الأقل فى صحبة طيبة. فحتى هى سمعت عن جوتييه: أخبرها والدها ذات مرة بأن جوتييه شاعر فذ. لكن أثناء تلاوته، عندما رفعت رأسها ونظرت إلى المقصورة الإمبراطورية وجدت الإمبراطور مدفونا فى كرسيه وعينيه مغمضتين كأنما هو نائم. قادت الإمبراطورة التصفيق، ثم رأت إيميلين الإمبراطور يفتح عينيه ويصفق فى وهن ويلتفت ليحادث ضيوفه. أسدل الستار.

بعد فترة وجيزة، كان رئيس التشريفات يتمشى بين مقاعد السادة الواقعة خلف الأوركسترا، رفع ناظريه للمقصورة الإمبراطورية محاولا التقاط عين الإمبراطور. عندما لوّح الإمبراطور بالموافقة، دقّ رئيس التشريفات بعصاه ثلاثا على ألواح الأرضية. رفع الستار عن مسرح خال تماما إلا من طاولة صغيرة فى المؤخرة وفى وسط المسرح منضدة على هيئة حامل خشبى يستند على قائمين من النوع الذى يستخدمه الفنانون فى تكديس لوحاتهم. وضع على هذا الحامل حافظة أوراق طويلة من الجلد الأخضر موشاة بأحرف ذهبية:

أونرى لامبير
حافظة الرسومات

انتظر المشاهدون. وبعد ثلاثين ثانية من الصمت، ظهر لامبير من الكواليس يرتدى معطف الفراء الذى كان يرتديه خلال العشاء ويحمل عصا صغيرة من الأبنوس تنتهى بطرفين من العاج على هيئة زيتونة. ابتسم وانحنى للمشاهدين وسار حول الحافظة من جميع الجهات

مستخدما عصاه ليظهر أنه لا يوجد شيء جرى إخفاؤه أسفل الحامل الخشبى. ثم وضع العصا على الطاولة الموجودة فى المؤخرة ثم عاد إلى الحامل وفتح وأغلق الحافظة الطويلة الضيقة مظهرا أنها خالية. استدار ليواجه الجمهور وانحنى ثم أعاد فتح الحافظة مخرجا منها حزمة صور مطبوعة من لوح معدنى منقوش. صفق الجمهور. وعاد وفتح الحافظة مخرجا منها أربع يمامات أطلقها فى الهواء. تصاعد التصفيق مع إغلاقه للحافظة، ابتسم وفتحها من جديد ليخرج هذه المرة ثلاثة أوانى نحاسية كبيرة. فتح واحدة ليكشف عن احتوائها على بازلاء خضراء والثانية ليكشف عن احتوائها على جذوة مشتعلة، والثالثة على ماء مغلى. بعد أن أظهر للجمهور محتويات الأوانى، عاد إلى الحامل والحافظة ليخرج هذه المرة قفصا ضخما مليئا بطيور صغيرة أخذت تطير من غصن إلى غصن. صار التصفيق الآن عارما، ورفعت إيميلين ناظريها إلى المقصورة الإمبراطورية فرأت الإمبراطور يبتسم ويصفق وعيناه الناعستان الشبيهتين بعيون السحالى تشعّان بالاستحسان. انحنى لامبير للمقصورة الإمبراطورية ثم التفت ثانية إلى الحافظة الخاوية فاتحا إياها بسبابته. وعلى الفور، أطل صبى صغير برأسه مبتسما للجمهور. أدخل لامبير يده ورفع الصبى من الحافظة، وأوقفه على خشبة المسرح. كان نفس الصبى الذى رأته إيميلين خارج حجرتها فى وقت سابق بعد ظهيرة هذا اليوم. رفع لامبير يده فأسكت الجمهور وأومأ إلى من فى الكواليس. عندئذ ظهر خادمه جول حاملا دكة خشبية ذات ارتفاع منخفض ووضعها فى وسط المسرح. وأتى بعد ذلك بثلاثة مواطىء صغيرة للقدم

ووضعها على الدكة ومعها قصبات من الخيزران. أخرج لامبير، الذى كان مواجها للجمهور وبجانبه الصبى، من جيبه قنينة صغيرة.

«سموكم، السيدات والسادة، لقد اكتشفت فى الأثير خاصية جديدة ومذهلة. إذا سمح المرء لشخص باستنشاق هذه المادة عندما تكون فى أعلى درجات تركيزها، فسيصبح جسده خفيفا كالبالونة». نطق كلامه كله على نحو اعتبرته إيميلين أنه نبرة البروفيسور، أسلوب حديث يبدو معه وكأنه عالم وليس كرجل استعراض.

جعل الصبى الآن يصعد حتى موطىء القدم الأوسط ويفرد ذراعيه. وضع قصبتين طويلتين تحت ذراعى الصبى لتثبتهما على هيئة صليب، ثم رفع غطاء القنينة وثبتها أسفل أنف الصبى. فاحت رائحة فى المسرح. وغفا الصبى على الفور. أحنى لامبير جسمه وسحب موطىء القدم من تحت قدمى الصبى، تاركا إياه على ما يبدو فى الهواء، كان سنده الوحيد هو القصبتان الطويلتان اللتان ترفعان ذراعيه فى وضع الصلب. راقب المشاهدون الموقف فى مزيج من الانبهار وعدم الارتياح أثناء رفع لامبير للقصبة من تحت ذراع الصبى اليمنى. لم يسقط الصبى أو حتى تحرك. ظل فى مكانه، وسنده الوحيد القصبة الموضوعة تحت ذراعه اليسرى. أمال لامبير باستخدام إصبع واحدة جسم الصبى على الجانبين ورفعه فى وضع أفقى. بدا وهو معلق فى الهواء أنه بلا وزن. انحنى لامبير للمقصورة الإمبراطورية. دوى الصفيق وهتافات «برافو! «فى المسرح بينما التفت لامبير إلى الصبى، وحرّك جسده الذى هو بلا وزنَ ثانية بسبابته، لوضع رأسى. لمس وجه الصبى بيده فأيقظه وأمسك

به حيث بدأ يتعثر ثم أوقفه فى أمان على خشبة المسرح. أمسك بيد الصبى ومرة أخرى انحنى للمقصورة الإمبراطورية.

أسدل الستار.

***

كانت الموسيقى، هذه الأمسية، فى قاعة الاحتفالات الكبرى، أعجوبة، بيانو ميكانيكى يدير ذراعه فى تفان أحد أمناء البلاط. لكن كان من يرقصون حفنة قليلة. كان الكلام حول إيميلين منصب على استعراض زوجها الغامض والساحر.

- «لامبير؟ هذه هى المرة الأولى التى أراه فيها يؤدى استعراضا، لكنه بالطبع مشهور».

- «أذكر أنه منذ سنوات قليلة كان يمتلك مسرحا خاصا به فى باريس. كانت أمسياته الساحرة، فى ذلك الوقت، آخر صيحة».

- «ظننت أنه تقاعد».

- «يا أورتنس، هل تذكرين، نحن حضرنا استعراضا عندما كنت مبعوثا فى مدريد. كان ذلك فى البلاط. كان الملك حاضرا».

- «نعم بالطبع. أعرف أنها منحتنى إحساسا فريدا وكأننى أشهد شيئا خارقا للطبيعة. وساورنى نفس الإحساس هذه الليلة».

- «كلا، إنها مجرد خديعة. لكنها شديدة الحذق».

- «حسنا، لا بد أن أقول إنه أعلى قامة من أى ساحر رأيته من قبل. كانت عملية رفع هذا الصبى شىء شاذ مخيف».

جاءتها هذه التعليقات وشبيهاتها وهى تسير بين مجموعات من الضيوف، بحثا عن أونرى والكولونيل دنيو. لكن زوجها لم يكن موجودا

أما الكولونيل دنيو فقد رآته بعد أن جابت القاعة بأكملها ذهابا وإيابا مرتين، الذى قطع حديثه على الفور مع سيدة مسنة، وهرع للانضمام إليها.

- «آه، مدام! إيميلين ! كنت أبحث عنك فى كل مكان. خلال بضع دقائق سنتوجه إلى الصالون الصغير. إن زوجك محاط بالمعجبين، لكنى سأقتنصه فى الوقت المناسب. إذا كان من الممكن أن تنتظرى هنا، سآتى به إليك ثم نذهب جميعا معا».

وحيدة مرة أخرى وسط حشد من الغرباء، وقفت إيميلين تنتظر فى عصبية إلى مدخل الصالون الصغير، حيث يتوجه الإمبراطور والإمبراطورة فى الساعة العاشرة من كل ليلة إلى هناك مخصصا ساعة للحديث مع أصحاب الحظوة من ضيوف بعينهم. كانت الساعة الآن العاشرة والنصف. اتجهت إلى المرايا المعلقة بطول الجدران وأخذت على عجل تفحص شعرها ومساحيق التجميل فى وجهها. سيجرى تقديمى إليهم. سأضطر إلى التحدث. كلا، لأدع أونرى يتولى الحديث. سأنحنى وأنحنى على ركبتى وكفى. أيهما؟ لا بد أن أكون هادئة. ليس لدىّ الوقت حتى لتصفيف شعرى. لماذا لم أفكر فى هذا الأمر فى وقت سابق؟

لكن فى تلك اللحظة وهى فى دوامة حيرتها، جاء دنيو ولامبير لينضما إليها. كان لامبير مبتسما ولا يبدو عليه أثر من التوتر بشأن المقابلة القادمة. «آه، ها أنت يا محبوبتى. سار الأمر على ما يرام، أليس كذلك؟ كان الجميع فى غاية الحماس. فى واقع الأمر، لم أخل إلى نفسى لحظة». التفت إلى دنيو. «يا شارل، كنت على حق. كانت فكرة جيدة جدا أن جعلتنى أرفّه عنهم الليلة. لم يكن بالكثير، لم يكن استعراضا

حقيقيا لكنه قدر ضئيل يكفى لإعطاء الإمبراطور تصورا عما أستطيع عمله».

قال دنيو «عرفت أن جلالته كان مبتهجا. راقبته وأنت تؤدى استعراضك. أنت نجم الأمسية». ابتسم إلى إيميلين. «هل نحن مستعدون إذن؟»

أخذ ذراعها. انحنى اثنان من أمناء البلاط المكلفين بالحراسة، الواقفين لدى باب الصالون الصغير وتنحيا. فجأة، وجدت إيميلين نفسها فى غرفة الاستقبال، مؤثثة على نحو مبهرج ومهيمن عليها فى أقصاها تمثال هائل من الرخام الأبيض لعم الإمبراطور، نابليون الأول، فى وقفة معهودة واضعا يده داخل صدرته. كان يوجد نحو عشرين شخصا فى الغرفة، معظمهم أعضاء فى الدائرة المقربة من جلالتيهما، وهم الذين يجلسون عند العشاء دائما فى مقاعد قريبة من الزوجين الإمبراطوريين. رأت إيميلين الإمبراطورة، محاطة بالمعجبين، تتحدث مع جوتييه، الشاعر الذى ألقى قصائد فى وقت سابق من هذه الليلة. أومأ لهم أمين بلاط بأن يتبعوه، قادهم عبر مجموعات من الأشخاص مباشرة إلى الطرف الآخر من الغرفة، حيث جلس الإمبراطور، أسفل تمثال سلفه، مثل ملك على عرشه يستمع إلى سيد متين البنية جلس أمامه فى تواضع مثل مقدم التماس. عندما انحنى هذا الرجل وانسحب بعيدا عن الكرسى الشبيه بالعرش اقترب أمين البلاط من الإمبراطور وهمس بشىء فى أذنه. نظر الإمبراطور إلى أعلى، انصبت عيناه الناعستان على إيميلين وليس زوجها. كانت نظرته لدهشتها تنم عن استحسان داعر، وهو انطباع زاد من الإحساس به حقيقة أن وجهه يزينه شارب رفيع، طويل مشمع ولحية

مثل ذقن الماعز ومدببة، جعلته يشبه الساتير[1] فى لوحة لروبنز[2]. أدار الإمبراطور نظره إلى دنيو، وقال مبتسما:

- «آه، ها أنت ذا أيها الكولونيل».

- «هل تسمح سموك، بأن أقدم لك مسيو ومدام لامبير؟»

انحنت إيميلين انحناءة متعجلة ومرتبكة بعد أن صارت متأكدة من أنها ستتعثر فى تنورتها المنتفخة. وانحنى زوجها بطريقة شرقية تقريبا.

قال الإمبراطور للامبير «هذه الليلة ليلة رائعة بحق. أنت، يا سيدى، تعمل فى تحضير الأرواح. أظن أننى رأيتك تقدم عرضا منذ سنوات قليلة ماضية. هل كانت فى فونتينبلو؟»

- «نعم، جلالتك. كان لى هذا الشرف».

- «وهل هذه السيدة اللطيفة زوجتك؟ آه، كم أحب أن أجلس وأتحدث معك، يا عزيزتى. لكن مشكلة الأحاديث المسائية تكمن فى أنه لا توجد محادثة حقيقية. يوجد الكثير من الناس. يا كولونيل، أظن أننا سنناقش مشروعنا فى الغد بعد الظهر؟»

- «هذا صحيح، يا صاحب الجلالة».

- «فى هذه الحالة، لا بد لى أن أرجو مدام لامبير أن تشرفنا بحضورها. سيجعل هذا اللقاء شيئا أتطلع إليه بشكل خاص».

فى الوقت الذى كان فيه الإمبراطور يقول هذا الكلام، رأت إيميلين الإمبراطورة والأميرة ميترنيخ قد قدمتا واستمعت الإمبراطورة إلى

---

(١) الساتير إله من آلهة الغابات مخمور وشهوانى وهو رجل على هيئة جدى ويرمز به أيضا إلى الرجل ذى الغرائز الحسية الشديدة.

(٢) روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) يعد واحداً من أشهر الرسامين الفلمنكيين وكذلك من رجالات الدبلوماسية الأوروبيين. ويظهر الساتير فى لوحة الحرب والسلام التى تصور آماله فى إحلال السلام بين إنجلترا وإسبانيا بوصفه مبعوث الملك فيليب الرابع عاهل إسبانيا.

ما قاله. رأت أن الإمبراطورة حدّجتها بنظرة تقدير باردة ثم التفتت إلى زوجها: «عزيزى، أظن أن الوقت حان بالنسبة لنا للانضمام إلى الصحبة».

وقف الإمبراطور من فوره، انحنى لإيميلين، وأمسك بذراع الإمبراطورة. توجها إلى الباب المؤدى إلى قاعة الاحتفالات الكبرى. وعلى الفور، أشار أمناء البلاط إلى أن كل الضيوف فى الصالون الصغير عليهم أن يتبعوهما.

***

فى وقت لاحق، عندما انصرف الزوجان الإمبراطوريان وأخذ الضيوف يصعدون السلالم متجهين إلى غرف نومهم، توقف لامبير عند منبسط الدرج، ووضع يديه على كتفيها، ونظر إليها فى تصميم. قال:

- «كانت هذه أمسيتك. ليست أمسيتى».

- «ماذا تعنى؟»

- «ألا تعرفين؟ إنك استهويت الإمبراطور. وأخذك دنيو فى نزهة إلى بييرفون بعد ظهر اليوم. نزهة لاثنين. هل يجب أن أغار؟»

ابتسمت وهزّت رأسها.



الفصل الرابع



- «مدام؟ مدام لامبير؟»

رأت إيميلين، التى كانت تسير تحت ضوء شمس شتوية وسط ضفاف من نبات الفوشيه فى حدائق القصر الرسمية، رأت الوصيفة العجوز تسرع الخطى فى الطريق إليها.

- «ما الأمر يا فرانسواز؟»

تلعثمت السيدة العجوز بعد أن وصلت مقطوعة الأنفاس:

- «يا مدام، أرسل الماركيز دو كوو ليبنئك بأنك ستجلسين بجانب جلالته فى وجبة منتصف النهار. لا بد أن تكونى مستعدة عند أبواب قاعة الاحتفالات الكبرى بمجرد دخول صاحبى الجلالة قاعة الطعام. أحسب أنك يجب أن ترتدى ملابسك الآن، يا مدام».

- «وزوجى؟»

- «إن الدعوة وجهت لك وحدك يا سيدتى».

فى الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق، وقفت إيميلين تنتظر مع ضيوف آخرين خارج القاعة الكبرى ورأت الأبواب تفتح لدخول الزوجين الإمبراطوريين لقاعة الطعام. عندئذ جاءها سيد قدم نفسه باسم الماركيز دو كوو، وأعطاها ذراعه وقادها عبر القاعة الطويلة إلى ذلك الجزء من قاعة الطعام الذى اتخذ فيه الإمبراطور وصحبه مقاعدهم. على يمين جلالته كان المقعد خاليا. لم يقف الإمبراطور لكنه ابتسم لها وهى تنزلق فى مكانها. عبر المائدة هزت الإمبراطورة رأسها على نحو يليق بملكة. ثم أومأ الإمبراطور إلى مدير قاعة الطعام وفى التو، جيىء بالأطباق الأولى إلى قاعة الطعام. كان خادم الإمبراطور الشخصى يقف خلف كرسيه يتناول الطبق من يدى مدير قاعة الطعام ويقدمه لجلالته، الذى بدأ يأكل، عندئذ سلم الخادم الشخصى المدير طبق الغرف فى إشارة إلى أنه يمكن الآن تقديم الطعام للضيوف.

قال الإمبراطور وهو يلتفت إلى إيميلين «هل تعرفين لعبة الكروكيه، ياعزيزتى؟»

- «كلا، يا صاحب الجلالة».

- «قيل لى إنها أحدث صيحة فى لندن، بالطبع إنها لعبة فرنسية عتيقة. فى واقع الأمر، طلبت عدة من باريس. إذا وصلت قبل أن نغادر كومبيان، أنا وأنت يجب أن نتعلم لعبها سويا. هل هذا سيبهجك، يا عزيزتى؟»

- «هل هى لعبة من لعب الورق، جلالتك؟ يؤسفنى القول إننى جد غبية فى لعب الورق».

ضحك الإمبراطور:

- «كلا إنها لعبة تمارس فى الهواء الطلق. تضربين الكرة بمطرقة خشبية. على أية حال، سنرى. أخبرينى أستذهبين مع زوجك إلى إفريقيا؟ هذا إذا أقنعته بمعاونتنا. أريدك أن تكونى بجانبى بعد ظهيرة اليوم. على جانبى وسندى».

ابتسم ووضع يده على ذراعها. أحست أنها احمرت خجلا وهى تنظر إلى يد الإمبراطور المليئة بالشعر وأظفاره المطلية تدغدغ لحمها العارى. هذا الرجل ابن أورتنس دو بوأرنيه وابن أخى بونابرت، عيناه الداعرتين تستملحانها وابتسامته الساخرة قليلا تشتهيها. وإفريقيا؟ ثم ما هذا الأمر بشأن إفريقيا؟

- «يجب ألا ننسى صيد الأيل». أحكم أصابعه حول ساعدها. مال إلى الأمام، وصار شاربه الطويل المشمع على بعد بوصات من وجهها. «ستكونين ضيفتى فى حفل الكوريه يوم السبت المقبل».

- الكوريه؟ ابتسمت له فى غموض. «ما يكون هذا، جلالتك؟»

- «حفل ختام صيد الغزلان. ألم تعرفى عنها شيئا؟ حسنا، ولما يجب أن تعرفى؟ إنك صغيرة جدا. كم أنت جميلة. بالفعل أنت كذلك. جميلة جدا».

بعد أن قال هذا، دفع طبقه بعيدا فرفعه خادمه الشخصى على الفور. وقدم له طبقا ثانيا فى التو، وبينما أخذ الإمبراطور يتذوقه والتفت إلى السيدة الجالسة إلى يساره، شرع سيد عجوز يجلس على يمين إيميلين فى الحديث معها حول رقصة تسمى لانسرز. قال «إننى أستبشعها. إننى عجوز جدا على أن أؤديها، لكن لا بد من ذلك إذا طلب من شخص

أن يشارك فيها لا يستطيع الرفض. هل تستمتعين بها؟ أستطيع الزعم بأن الإمبراطور مهووس باللانسرز».

عند هذه النقطة، فهمت إيميلين قاعدة المحادثة فى المجتمع الراقى. لم تكن مضطرة لأن تفهم ما يقال لها؛ كل ما عليها هو الإجابة بأكثر الموافقات والابتسامات والإيماءات غموضا. كانت محادثة بلا هدف، فاصل قصير فى الخدمة العاجلة والقاسية لتقديم الطعام، الضروري لإشباع رغبة الإمبراطور فى ألا يستغرق الغداء أو العشاء أكثر من ساعة على المائدة.

وبالتالى فإنه بعد خمسين دقيقة، عندما وقف الإمبراطور وأزاح خادمه الشخصى الكرسى بعيدا عن المائدة، فى التو تقدم الأتباع إلى الأمام ووضعوا أيديهم على ظهور كراسى الضيوف، فى إشارة إلى أنه على الجميع الوقوف. سحبت الكراسى وتبع الموكب الإمبراطور والإمبراطورة فى توجههما إلى قاعة الاحتفالات الكبرى. اصطحب إيميلين الماركيز دو كوو الذى دنا منه فجأة زوجها وانحنى للماركيز ثم أخذ ذراعها وقادها إلى الرواق المطل على الحديقة.

– «ما الذى قاله لك؟»

– «من؟»

– «الإمبراطور. رأيته يتحدث إليك. هل أخبرك لم دعاك».

– «يريدنى أن أذهب إلى إفريقيا. معك. أونرى، ما هذه المسألة؟ لما لا تريد أن تخبرنى؟»

– «لأن الأمر سرى. ستعرفين فى القريب العاجل. ما الذى قاله أيضا؟»

– «يريدنى أن أكون بجانبه ما بعد ظهيرة اليوم، أيا كان ما تعنيه هذه الكلمة».

لاحظت أن ذلك أرضاه.:

– «إذن أحقا يريدوننى بالفعل». ابتسم. «ما الذى قاله بشأنى؟»

– «لا شىء».

– «بالمناسبة، كنت أراقبه طوال الغداء. كان يضحك ويبتسم لك. رأيته يضع يده على ذراعك. بالطبع، أنت تعرفين سمعته كفاجر بشع. هل فعل...؟»

– «هل فعل ماذا؟»

– «عندما وضع يده على ذراعك. ما الذى كان يتحدث بشأنه معك؟»

– «الكروكيه».

– «الكروكيه؟».

– «نعم. اللعبة. يريد أن نتعلمها سويا».

– «أنت وأنا؟»

– «كلا. لويس نابليون وأنا». بدأت تضحك. نظر إليها وكأنها صفعته.

قال «دنيو سيقابلنا على أول سلمة فى الدرج الرئيسى فى الساعة الثانية تماما. لا تتأخرى».

وسار بعيدا.

***

عندما هبط الكولونيل دنيو الدرج الرئيسى للقصر بعد ظهيرة ذلك اليوم، لم تعرف إيميلين فى البداية من صاحب هذه القامة المهيبة فى زى

عسكرى وعليه رداء فضفاض طويل وقبعة موشاة بالذهب. كان الكولونيل فيما مضى يرتدى ملابس مدنية، مثل معظم السادة الآخرين الذين يحضرون السلسلة. لكن الآن، فى الزى العسكرى، نظراته السمراء المليحة وهيئته العسكرية تصاعد أثرها إلى الدرجة التى جعلتها حين رأته يقترب تحس فجأة باستثارة سريعة واخزة للضمير. هرعت نحوه بشكل غريزى وبينما هو ينحنى ليقبل يدها بدا وكأنه هو الآخر مأخوذ بحالتها المزاجية.

- «أين زوجك؟»

قالت «سيصل قبل ثلاث دقائق بالضبط من موعد لقائنا. إنه دائما ما يفعل ذلك».

قال دنيو «مثل الإمبراطور تماما. كما لاحظت، إنه يقسّم وقته إلى أجزاء مستقلة محكمة. بالطبع، من ذا الذى يلومه. لديه الكثير جدا من الأمور فى ذهنه هذه الأيام».

لم تعرف ما الذى يمكن أن يكون فى ذهن الإمبراطور. الكروكيه، ربما؟ لكنها أمسكت لسانها.

ظهر لامبير بالضبط فى الوقت الذى تنبأت به وسار ثلاثتهم فى ردهة طويلة مرورا بباب أدى إلى حجرة أفضت إلى أخرى أكبر منها. حيث كان اثنان من أمناء البلاط فى انتظارهم. عندما دقت الساعة معلنة انقضاء نصف ساعة تماما، خرج ثلاثة من السادة من الغرفة الداخلية وهم غارقون فى حديث هامس. أشار أحد أمناء البلاط، بعد ابتعاد السادة، إلى دنيو الذى التفت إلى إيميلين. «بعدك أيتها المدام العزيزة». وهكذا قادتهم إيميلين وهم داخلون إلى مكتب الإمبراطور. جاء

الإمبراطور لتحيتها آخذا يديها فى يديه وقادها، فى حرص على راحتها، إلى كرسى على يمين مكتبه. أجلسها على هذا الكرسى ثم جلس إلى مكتبه، بالقرب منها، ملوّحا وهو شارد لدنيو ولامبير بالجلوس قبالته. رأت إيميلين عندئذ أن الإمبراطور بدا عليلا: لوى عضلات وجهه ألما وهو يميل إلى الأمام لالتقاط ملف على مكتبه، تحيط بعينيه هالات سوداء، وجهه منتفخ، ولاحظت وهى مصدومة أن خديه مطليان بأحمر الخدود.

ومع هذا عندما بدأ يتحدث خرج صوته قويا وراسخ الاقتناع.

- «أيها السادة نحن على علم بسبب وجودنا هنا اليوم، لكن ربما لا يعلم مسيو لامبير بمدى احتياجى الشديد له. أحسب أن الكولونيل دنيو طلب منك منذ أشهر قليلة ماضية أن تعاوننا وأنك، لسبب وجيه دون شك، رفضت».

قال لامبير «لتسمح لى جلالتك، إنى لم أدرك أن الطلب جاء من جلالتكم».

- «لكنك كنت على حق، يا عزيزى. إن الطلب لم يصدر منى. إنى لم أكن على دراية بالاقتراح حينذاك. والآن دعنى أشرح لماذا أراه مشروعا مهما. كما تعرف كل فرنسا، أن جيوشنا منحتنا نصرا عظيما فى القرم(١). سأكرم الجنرالين ماكمون وبليسييه فى احتفال خاص عند عودتى إلى باريس فى الأسبوع القادم. كما سيقلّد جنودنا النياشين والأوسمة أيضا. لقد أبلى الجيش بلاء حسنا ولهذا - نظر إلى دنيو - أبلغت الحاكم العام فى الجزائر بأننا لا نريد التورط فيما آمل أن يكون

(١) حرب القرم: (١٨٥٣ - ١٨٥٦) حرب شهيرة دارت رحاها بين تركيا التى تحالفت معها إنجلترا وفرنسا ضد روسيا انتهت بفوز الحلفاء على روسيا وتوقيع معاهدة باريس فى مارس ١٨٥٦.

الصراع النهائي في فتح هذا البلد حتى تنال قواتنا قسطا وافرا من الراحة في الوطن. ووفقا لهذا، أخبرته أن ينتظر حتى الربيع قبل أن نكلف جيوشنا بتأدية هذه المهمة. لكنني أستطيع أن أتفهم سبب قلق الحاكم العام راندون من هذا التأخير. إنه يخشى من أن يشن مرابط[١] ذو قوة وعلى جانب من الخطورة حربا مقدسة قبل هذا الموعد. أنت الخبير بشئون العرب يا كولونيل. ماذا ترى؟»

قال دنيو « تكمن هناك مخاطرة، جلالتك. وإذا ما تأخرت الحملة الأخيرة إلى الربيع، فستوجد كل المبررات لنا كي نجرب المناورة التي اقترحت».

التفت الإمبراطور إلى إيميلين.

– «لا بد أن الأمر محير بالنسبة لك، يا عزيزتي. إني لا أدرى مقدار ما قيل لك». كانت إيميلين قد تعلمت الدرس على الغداء، فابتسمت وأومأت على نحو مبهم، بينما أشعل الإمبراطور سيجارا طويلا وأطفأ عود الثقاب بصوت به صفير. قال «لا عليك. سينجلي الأمر كلية حالا. الآن «– نظر إلى لامبير –» أعرف أن ما عرضته لنا في تلك الأمسية لا يمثل سوى معشار من مواهبك. إن ما نحتاج إقناع العرب به شيء أكثر إبهارا، شيء يفزعهم ويدهشهم. الكولونيل دنيو أبلغني أنك الرجل المناسب لنا. إنه يقول إنه رآك تقدم أنواعا من الإيهام مذهلة إلى الدرجة

(١) مرابط: يرجع أصلها إلى كلمة الرباط، وتولد عنها المرابطون وهم جماعة المسلمين الذين يتولون الدفاع عن الثغور في الأمصار الإسلامية وتحولت إلى حركة على يد يحيى بن إبراهيم والطبيب عبدالله ثم صارت دولة المرابطين التي حكمت المغرب وإسبانيا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وكان المجال الأوسع لانتشارهم هو شمال إفريقيا. ويحوز المرابطون على سلطان ديني هائل حتى الآن في دول غرب إفريقيا المسلمة. وتتحول قبورهم إلى مزارات. وقد تصدوا على نحو بارز للاستعمار الفرنسي.

التى تجعلنا حتى نحن نقع تحت غواية الاعتقاد بأنك تمتلك قوى خارقة للطبيعة». ضحك الإمبراطور ونفث دخان سيجاره والتفت إلى إيميلين وغمز لها بعينه مثل عم خبيث. ثم أسند ظهره إلى الكرسى وقال للامبير «دعنى أشرح لك ما الذى يدور فى رأسى. لدىّ خطط كبرى بالنسبة إلى الجزائر. إنى أراها كنقطة التقاء بين الشرق والغرب والمفتاح للتوسع الاقتصادى لإمبراطوريتنا. فى العام التالى، فى الربيع سأبعث بجيوشنا إلى إفريقيا، وأخضع إقليم القبائل، وأكمل فتحنا لهذا البلد بكامله».

نظر الإمبراطور إلى دنيو.

– «الآن يا كولونيل – حدثنا عن المرابط».

– «المرابط، جلالتك؟ دعنى أولا أوضح أن البلدان الإسلامية جد مختلفة عن بلادنا. يحظى المرابطون أو القديسون هناك بسلطان سياسى وروحى يفوق نفوذ أى حاكم».

نفث الإمبراطور الدخان.

– «وضع تعس بالنسبة إلى الشيوخ».

«بالفعل. ومن أجل ذلك، فقط المرابط هو الذى يستطيع إعلان الجهاد، أو الحرب المقدسة ضدنا. فى الوقت الحالى، يا صاحب الجلالة، الجزائر عن بكرة أبيها يسيطر عليها شخص يدعى بو عزيز، هو مرابط ذو كاريزما، ظهر فى الجنوب ويقال إنه يمتلك قدرات تعجيزية. وبسبب سلطانه، إذا ما أعلن حربا مقدسة، سيعتقد العرب أن الرب يقف إلى جانبهم وإذا ما قاتلوا، سيهزموننا. كان اقتراحى، الذى يوافقنى فيه الحاكم العام راندون، إذا ما استطعنا جعل مسيو لامبير يذهب إلى الجزائر وننظم له عدة عروض أمام مشاهدين من السكان الأصليين، قد نقنعهم بأن الإسلام لا ينفرد بامتلاك قدرات تعجيزية. بمعنى آخر،

سنقدم لهم مرابطا آخر أعظم من بو عزيز ونقنعهم بأن الرب ليس إلى جانبهم إنما إلى جانبنا نحن».

قال الإمبراطور «أظن أن هذه نظرية خطيرة إلى أبعد الحدود. إنها مقامرة بالطبع ومن الممكن جدا ألا تؤدى إلى شىء. لكن ماذا إذن إذا انتصرنا؟ إذا أفلحت يا مسيو لامبير، ستنقذ الآلاف من أرواح جنودنا».

على الفور انحنى لامبير انحناءة صغيرة فى اتجاه الإمبراطور.

– «تشرفنى جلالتك بثقتكم وبالطبع سأبذل قصارى جهدى لأستحقها».

– «حسنا».

التفت الإمبراطور إلى إيميلين:

– «يا مدام، سيذهب زوجك إلى الجزائر لعدة أسابيع. سيضطر إلى السفر إلى أماكن مختلفة. أشار الكولونيل دنيو إلى أن بقاءه هناك سيكون أكثر بهجة إذا رافقتيه. الأمر يرجع إليك، بالطبع، لكن الجزائر، كما قيل لى، بلد مثير جدا، وسيكون جزءا من خطتنا أن نرسل زوجك إلى هناك فى أكبر احتفال يمكننا إقامته يليق بأرفع سفرائنا. سيوجه لكما الشيوخ والمجتمع الفرنسى الدعوات لحضور حفلات تكريم ومآدب عشاء. ستسكنون فى الجزائر العاصمة كضيوف على الحاكم العام. ماذا تقولين؟»

نظرت إيميلين إلى لامبير، الذى أومأ برأسه على نحو لا يلحظه أحد، يحثها على القبول. قالت «يسعدنى، جلالتك، أن أذهب. وكما قلتم ستكون مثيرة جدا».

وعلى الفور، مال الإمبراطور نحوها ووضع يده على ذراعها ثانية، أصابعه مرت من مرفقها حتى كتفها فى ملاطفة شبقة طويلة. «حسنا،

جسنا. ياالك من رجل محظوظ أنت يا لامبير، لتتزوج من هذه الفتاة الرائعة ! لا تنسيا، أنتما ضيفاى الخاصان فى حفل الكوريه غدا مساء».
وقف ورفع يدها فى يديه ووضع شفته ذات الشارب على جلدها. «إلى أن نلقاك أيتها المدام العزيزة».

بعد بضع دقائق قليلة، تملكتها حالة من الاستثارة المفاجئة وهى تسير بين زوجها ودنيو عبر الردهة الطويلة المعرضة للتيارات الهوائية.

سألت دنيو «لكن متى سنرحل؟ وأى نوع من الملابس سأحتاجه فى إفريقيا؟»

قال «هناك سفينة ستبحر من مرسيليا إلى الجزائر العاصمة فى السابع والعشرين. وأخرى ستبحر بعدها بثلاثة أسابيع. ويعتمد الأمر على ما إذا كان زوجك يستطيع تجهيز ما يحتاجه فى الوقت المناسب بالنسبة إلى أى من الرحلتين. ما رأيك يا أونرى؟»

قال لامبير «إننى بالفعل حددت ما الذى سأحتاجه. يمكننى أن أكون مستعدا فى السابع والعشرين. ماذا عنك يا عزيزتى؟ «التفت إليها وكأنه يسألها ولكنها كانت تعلم تماما أنه سؤال بلاغى ليس إلا.

– «نعم سنكون مستعدين». قالتها لدنيو.

قال دنيو مبتسما لها «بالنسبة للملابس فى هذا الوقت من السنة سيكون مثل طقس يوم صيفى جاف فى فرنسا. لا تقلقى، سندرس كل الترتيبات اللازمة. أنت تعرفين كم أنا مبتهج لوجودك معنا فى هذه المغامرة».

قال لامبير «إن الإمبراطور شخصية فذة، أليس كذلك؟ قد قابلت الكثير من الملوك والملكات كما تعرفان لكن لم أقابل مثله. من الواضح أنه رجل ذو رؤية عظيمة».

أدركت إيميلين الآن، بعد أن استمعت، أن زوجها لم يكن بحاجة إلى إقناع لقبول هذه المهمة. لم تره طوال سنوات زواجهما الخمس سعيدا بمثل هذا القدر في هذه اللحظة. أصبح الآن أكبر من مجرد ساحر. الآن صار مبعوث فرنسا في مهمة خطيرة. ولكن في الوقت نفسه أحست أن دنيو على وعي بهذه الخيلاء ومستمتع بها. لأنه استدار إليها وعلى وجهه ابتسامته الحميمة المعهودة وسأل:

– «ما رأيك أنت فيه يا مدام؟ إنه يهوى مغازلة السيدات أليس كذلك؟»

قالت ضاحكة «لكن نحن النساء لنا عيون أيضا. إن الإمبراطور يضع أحمر الخدود».

قال دنيو موافقا «يحتمل هذا».

التفت إلى لامبير، «لكنك على حق بالطبع. إنه رجل ذو رؤية عظيمة. فكر في الأمر. منذ ثماني سنوات كان عضوا عاديا في الجمعية الوطنية، ثم بعد ذلك بثلاث سنوات، قاد انقلاباً وأطاح بالحكم والآن هو الإمبراطور نابليون وبطل القرم المظفر. وفي نفس هذا الوقت من العام المقبل، آمل أن يكون فاتح الجزائر. بمساعدتك بالطبع».

ضحك لامبير «بمساعدتي أنا؟ إنه ليس بحاجة إليّ».

– «بلى يا رفيقي العزيز. كلنا في حاجة إليك». لكنه حين قال هذا التفت دنيو إليها وغمز بعينه. أحست في هذه اللحظة أنها حين تكون في بلد غريب مثير قد تواجه محنة جديدة. لأنه في إغماضة العين العابرة الخفية هذه كان هناك اقتراح بالخيانة الكبرى.

***

فى الصباح التالى سلّم الخادم، الذى اعتاد أن يحمل إليهما القهوة والبرنامج اليومى، إلى إيميلين مظروفا يحتوى على رسالة موجزة من الفيكونت وولش. أبلغها بأن برنامج اليوم هو الأخير فى السلسلة سيشمل مطاردة الغزلان وفى المساء حفل الكوريه أو الاحتفال برياضة النهار. وأضافت الرسالة أنه يوجد مكان محجوز لها فى عربة مدام دو فرنان نونبييث بحيث يمكنها من التمتع بمشاهدة المطاردة. لم يأت ذكر لزوجها. سلّمت الرسالة إلى لامبير.

قالت «إننى لا أريد الذهاب ولماذا لم يسألوك؟»

قال «إن العربة للسيدات لا تقلقين بشأنى. سيعتنى بى».

– «مازلت لا أريد الذهاب. تذكر، لقد مرضت بعد الصيد بالبنادق. وعدتنى بأنك ستتقدّم اعتذارا باسمى».

– «لكن ألا ترين أنهم بعدما صنعوا كل هذه الترتيبات خصيصا لك سيكون من الوقاحة إذا رفضت. إلى جانب أنها يا محبوبتى لن تكون بنفس سوء الصيد بالبنادق. أشك كثيرا فى أنك ستكونين قريبة إلى الدرجة التى تجعلك ترين القتل. ويقولون إنه مشهد رائع بحق أزياء الصيادين، كلاب الصيد ومظاهر الروعة والأبهة. تذكرى أن هذه الليلة سنكونا ضيفا الإمبراطور. إذا كانوا قد أرسلوا هذه الرسالة إليك لا بد وأنها تعنى أنه وراء الدعوة. أنت تعلمين كم هو مفتون بصحبتك. أرجوك يا إيميلين. إن هذا هو آخر يوم لنا هنا. دعينا لا نفسد الأشياء».

وبالطبع كان على حق. لا بد أن الإمبراطور قد تحدث إلى الفيكونت وولش. لم تكن لتستطيع الرفض. ونتيجة لذلك، قدمها أحد أمناء البلاط إلى مدام دو فرنان نونبييث، وهى زوجة رجل مصارف إسبانى، وسرعان

ما أجلست بجانب مدام نونييث وسيدتين أخريين فى مركبة البرلين[1] الرسمية متوجهة إلى كارفور ليتوال، وهى نقطة اللقاء فى الغابة الملكية حيث تتجمع العربات الأخرى على جانبى الطريق انتظارا لوصول حاشية الإمبراطور. وكانت عدة المطاردة الإمبراطورية والسادة الضالعون فى المطاردة بالفعل متجمعين على مفترق الطرق ومدام نونييث التى أدركت إيميلين أنها اختيرت لتكون السيدة المرافقة لها لأنها خبيرة فى مسائل الصيد بدأت تشير إلى الأعضاء المتنوعين فى فريق الإمبراطور. كان فريق الإمبراطور مكونا من عشرة أعضاء: صيادون ومدربو كلاب الصيد وخدم يتولون قطيعا من الكلاب مكونا من مائة كلب صيد إنجليزى. كان منظر السادة راكبى الخيول بستراتهم الحمراء وأحذيتهم ذات الرقبة الطويلة وهم يكبحون جماح جيادهم التى تقف على أرجلها الخلفيتين فى انتظار وصول الإمبراطور، ذكّر إيميلين بمشهد مماثل فى لوحة.

خلافا لمنظر البنادق والاستعدادات الوحشية للرماية بالبنادق، كان هذا منظر بالغ الروعة والإبهار، والآن صعدت مجموعة الإمبراطور الخاصة إلى مفترق الطرق كان منظرا مدهشا وهم يرتدون معاطف الفيراء المخملية الخضراء ذات الحواف القرمزية والضفائر الذهبية وبنطلونات بيضاء من جلد الماعز تصل حتى الركبتين وقبعات ثلاثية الجواف. اصطف الصيادون المنتظرون خلف هذا الركب الرسمى واختلط قطيع كلاب الصيد الإنجليزية بين راكبى الجياد فى عنقود من الذيول المهتزة وتحركاتهم تحت سيطرة صيادى الفريق. دوّت أبواق الصيد بصوت حزين بغتة، فانطلقت الجياد والرجال وكلاب الصيد عدوا

(١) البرلين: مركبة كبيرة مقفلة ذات أربع عجلات.

إلى داخل الغابة مخلّفة وراءها سحابة من الغبار وأوراق النبات المتطايرة وارتجت الأرض تحت وقع الحوافر.

وانطلقت عربات الضيوف عبر الطريق الواسع فى محاولة لمتابعة تقدم المطاردة وذلك وسط جلبة من قرقعة السياط وصياح قائدى العربات. وفى نهاية المطاف، قابلوا راكباً بمفرده عند تقاطع طرق أخبرهم بأن الآيل المتقدم عليهم بمسافة كبيرة قفز فى الماء وهو يسبح فى جنون تلاحقه كلاب الصيد. وبّخت مدام نونييث الحوذى محاولة التقدم على بقية العربات لتشهد عملية القتل ولكن لراحة إيميلين كان هذا مستحيلا، وفى غضون لحظات صاح شخص ما بأن الآيل محصور وعندئذ قررت مدام نونييث فى غير اكتراث بما أن طريقهم مسدود فإنهن من الأفضل أن يعدن إلى القصر.

***

جلست إيميلين بعد ساعتين فى حوض حديدى متدفئة ومسترخية بينما تصب عليها فرانسواز أباريق الماء الساخن على ظهرها العارى. الليلة ستتأنق لأنها الأمسية الأخيرة فتلبس تنورة منتفخة أنيقة وشعرها مصفف لأنها لا تستطيع تسويته بنفسها وتضع أساور وقرطين يتعين إعادتهم فى الأسبوع المقبل للصائغ الباريسى الذى استأجرتهم منه. بعد الاستقبال السابق على العشاء الذى سيقام فى قاعة الاحتفالات الكبرى ستسير للمرة الأخيرة فى الردهة العظيمة مارة بالخوذات الفضية للحرس المائة لتشارك فى آخر حفل عشاء بعدها تلحق وأونرى بالإمبراطور والإمبراطورة فى شرفة البلاط الرئيسى لتشهد طقسا أخير لحملة المشاعل. غدا بعد قداس الأحد وتناول غداء مبكر سيعود بهما

القطار الإمبراطورى إلى باريس. بحلول ليل الاثنين ستكون فى منزلها فى تور حيث عاشت وسط دق الساعات وقرع الأجراس ورفاقها من الخدم الأربعة وعشرات الدمى الميكانيكية وزوج مختف مثل راهب فى ورشته. هذا الأسبوع فى كومبيان بإحراجاته وأبهته، بإغراءاته وترفعاته هل سيكون مجرد ذكرى مرة واحدة فى العمر، الفساتين المبهرة تخزن دون أن تستخدم فى مناديل ورقية، وورق البرامج اليومية يصفّر فى مكتبها؟ أم أنه من الممكن أن تكون هذه بداية حياة جديدة يعامل فيها أونرى، لدى وصوله إلى الجزائر، كسفير وإذا ما وفق فيما طلب منه يمكن أن توجه له ولها لدى عودتهما إلى فرنسا دعوة من الإمبراطور لحضور سلسلة إمبراطورية مرة أخرى؟

فى الوقت الذى صبّت فيه خادمتها آخر إبريق من الماء الدافىء على صدرها، وقفت إيميلين فى الحوض مبتلة ولامعة. رأت جسدها يافعا رشيقا فى مرآة مستطيلة عمودية. لا يمكن لأحد أن يخمن أن هذا الجسد حمل مرتين جنينا ميتا فى رحمى. إنى أبدو كعذراء. إن أونرى هو العجوز وليس أنا. وبهذه الملابس وفى هذا العالم، لست من كنت. لقد غيّرتنى كومبيان.

***

رافق مسيو ليجل، السيد العجوز الذى تصدر أحذيته الجلدية اللماعة صريرا على الأرضية الخشبية فى الردهة الطويلة، إيميلين عقب الاستقبال السابق على العشاء إلى قاعة الطعام للمأدبة الأخيرة. وعلى الفور رأت أن ترتيبات طاولة الطعام وأدواته صارت أكثر استفاضة وفخامة من المعتاد. وعندما أبدت إعجابها، أبلغها مسيو ليجل أن هذه

تعد أطقم خزف سيفر الفاخرة، وهو تقليد فى أمسية الكوريه. «إن هذه أمسية خاصة جدا يا مدام».

وبالفعل لاحظت أن أحاديث الضيوف كانت أكثر حيوية من المعتاد، والأتباع حريصون بشكل خاص على ملأ كؤوس السادة الفارغة، الطاولة الطويلة تضج بضحكات عالية ونوادر حول حوادث صيد هذا اليوم. حتى الإمبراطور بدا منتبها من نعاسه اليقظ وخرج عن العادة وأمر بعدم تقديم القهوة والمشروبات الروحية على طاولة العشاء إنما خلال حفل الاستقبال اللاحق بالعشاء، وهو استقبال تداول أمناء البلاط تحذير السيدات من برودة الجو خلاله وعليه فإنه من النصيحة الواجبة أن يحتطن بالتدثر بالشالات وما شابه من أجل الكوريه.

فى الساعة التاسعة تماما اقترب كبير أمناء البلاط الفيكونت دو لافيريير من جلالته ليعلمه بأن كل شىء جاهز. وسط جلبة التوقع، تقدم الإمبراطور والإمبراطورة نحو البهو الطويل الذى يشرف على ساحة الشرف، وهى الساحة الرئيسية الشاسعة للقصر. لحقت الإمبراطورة، التى تفضلت بقبول معطف من فراء السمّور من وصيفتها، بالإمبراطور إلى الشرفة بينما أخذ أمناء البلاط يدورون بين الضيوف يرشدون فى تكتم سيدات محظوظات من بينهن إيميلين إلى اللحاق بالإمبراطور وقرينته. أوقف معظم بقية الضيوف أنفسهم أمام النوافذ العشرين للبهو الطويل بينما جلس بعض السادة من بينهم لامبير على الدرج الخارجى الذى يفضى إلى ساحة الشرف.

استجمعت إيميلين قواها لمقاومة برودة الليل وأحكمت الشال على كتفيها وهى تسير خارجة. لمحها الإمبراطور فأومأ إليها بالانضمام إليه

وإلى الإمبراطورة فى مقدمة الشرفة. وقف الأتباع والخدم والسائسون والخادمات، أسفل منهم فى الساحة، مكوّنين دائرة واسعة لإبعاد أهالى كومبيان القرويين الذين جاءوا لمشاهدة الكوريه. انبعثت رائحة قار كريهة من حلقة من المصابيح المشتعلة يحملها عاليا خدم يرتدون زيا خاصا فسكبت ضوءا عكس احمرارا بدائيا وحشيا على المشهد. وقف كبير الصيادين فى أقصى طرف من الساحة فى مواجهة صاحبى الجلالة وهو يحمل رأس وقرون الآيل الذى ذبح بعد ظهيرة ذلك اليوم. كان ملحقا به جلد الحيوان مطويا داخل جوال احتوى على العظام والأحشاء. أسفل الشرفة الإمبراطورية مباشرة والتى جلس على الدرج المجاور لها بعض السادة الضيوف، أمسك ثمانية من خدم الصيد بقطيع من كلاب الصيد التى أخذت تعوى وتحاول الفكاك. وفى الوقت الذى راقبت فيه إيميلين المشهد فى رعب، انحنى كبير الصيادين لجلالته ثم لوّح بجلد الآيل عاليا فى الهواء ووسط دوى مفاجىء لأبواق الصيد أطلقت الكلاب لتندفع نحو وجبتها. لكن خلال ثوان، طرقع كبير الصيادين بسوطه وتوقفت كلاب الصيد فى طاعة أمام فريستها وكأنها تخشى أن يسلخ جلدها. ومرة أخرى أطلقها دوى النفير، ومرة أخرى، على بعد قدم واحدة من جوال الأحشاء والعظام توقفت الكلاب بطرقعة سوط. والآن، رفع الأتباع مصابيحهم عاليا فى الهواء بينما تكوّرت الكلاب فى الأرض فى صمت. فى ظلام الدائرة الخارجية، أطلق السكان المحليون صيحة إعجاب عظيمة. أحست إيميلين بأنها ترتعش. فى هذه اللحظة، لمست يد ظهرها ودفعت الطوق المعدنى للتنورة المنتفخة بميل لتنزلق إلى أسفل وتعبث فى مؤخرتها. استدارت لتواجه الإمبراطور وانشغاله الخبيث.

هزّت إيميلين رأسها وأوشكت على التحدث عندما دوّت أبواق الصيد وأطلقت الكلاب لالتهام مكافأتها. حدقت إيميلين أمامها ورأت كلاب الصيد تمزق جوال الجلد وسمعت عواء وزمجرة والصوت البشع لقرقشة العظام أثناء تنازع القطيع على الأحشاء الدموية. التفتت إلى رفقائها، وهى عاجزة عن المشاهدة، لترى وجوه السيدات عليها أقنعة من الابتسامات الثابتة والسادة يضحكون جهرا. لم تعد يد الإمبراطور تداعبها. بدلا من هذا تقدم إلى الأمام فى جلال إلى درابزين الشرفة ورفع ذراعيه فى إيماءة إلى النصر. دوّت أبواق الصيد فى جلبة جديدة تصم الآذان، طرقعت السياط وأجبرت الكلاب، بعد أن التهمت كل شىء عدا الرأس والقرون، على الانصياع على عجل وطوّقت وقيّدت. التفت إليها الإمبراطور مبتسما. قال «بإمكاننا الدخول الآن. آمل ألا تكونى قد أصبت بنزلة برد».

هزت رأسها بالنفى. لم تكن ارتعاشتها لها صلة بالبرد على الإطلاق. أحست أنها فى أى لحظة يمكن أن تتقيأ. حاولت أن تبتسم حيث أنه فى هذه اللحظة جاءت الإمبراطورة وأومأت إليها وعندئذ أمسك الإمبراطور بذراع قرينته فى شهامة.

قال لإيميلين «على الأقل كانت قصيرة. هلا استغرقت مآدبنا وقتا قصيرا مثلها».

***

فى الصباح التالى، وسط الظلمة الناجمة عن إغلاق النوافذ استيقظت إيميلين إثر طرق على الباب. سمعت زوجها ينهض من على أريكته فى غرفة المعيشة ويذهب ليستطلع الأمر. لم يكن كما توقعت الخادم المكلف بإحضار القهوة لكنها فرانسواز، وصيفتها، التى دخلت

غرفة نومها وفتحت النوافذ ووضعت غطاء للرأس من الدانتيلا السوداء على سريرها. «آسفة لإزعاجك يا مدام لكنك يا مدام لا بد أن تضعي هذا عند حضورك للقداس هذا الصباح. إنه أمر لا مفر منه. يتعين على السيدات أن يضعن غطاء الرأس والأكتاف على النمط الإسبانى بما أن صاحبة الجلالة إسبانية وتفضل أن يكون الأمر على هذا النحو. وإذا سمحت لى سيدتى، لا بد من أن أبدأ فى جمع أدوات الزينة الخاصة بك».

وهكذا بدأ صباح الأحد الأخير هذا بإيميلين وقد وضعت غطاء أسود للرأس وكأنها فى حالة حداد ولامبير أرسل جول لاستعارة كتاب القداس لأنهما نسيا وضع كتب الصلوات أثناء حزم أمتعتهما. وتبعا خادما، بعدما شربا قهوة الصباح، عبر ردهات لانهاية لها للوصول إلى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالقصر حيث سيقام القداس. وهناك وجدت إيميلين ما توقعته وصيفاتها، السيدات اللائى حضرن السلسلة، وقد وضعن أغطية رأس من الدانتيلا السوداء ملتحفات بها على الطريقة الإسبانية. دخلت الإمبراطورة، التى كانت تضع غطاء رأسها فى يسر من اعتادت عليه لسنين طوال، وركعت وحدها فوق جميع المصلين الآخرين فى تجويف فى الجدار يطل على المذبح. لم يكن الإمبراطور حاضرا. وبمجرد دخول الإمبراطورة فى التجويف، ظهر كاهن واثنان من الشمامسة. بدأ القداس.

انحنت إيميلين فى مقعدها ذى الظهر الطويل وأطرقت رأسها كأنها فى صلاة. لكنها لم تكن تصلي. وبعد لحظات نظرت إلى جماعة المصلين فوجدت، كما هى العادة فى القداس، أنها ليست الوحيدة فى غيبة عن الصلاة. كانت السيدات اللائى يضعن غطاء الدانتيلا يفحصن جيرانهن

خفية. كان السادة يطالعون كتب صلواتهم مثل طلبة غير منتبهين والجميع ينظرون بين الفينة والأخرى عاليا إلى التجويف حيث تركع الإمبراطورة ويداها متشابكتان على مسبحة وعيناها مثبتتان على المذبح. نظرت إيميلين حواليها نحو زوجها ورأت أنه، كما هى عادته فى الكنيسة، يقرأ كتاب الصلوات بإمعان وكل حين يتأمل حركات الكاهن على المذبح كأنما حين يدقق انتباهه يمكنه يوما ما أن يحل غموض تحول الخبز والنبيذ إلى جسد ودم السيد المسيح. ما الذى يعتقده هو بالنسبة للمعجزات؟ هل هو، الذى قال إن كل هذه الأشياء مجرد أوهام، يتضمن فى استنكاره غموض ومعجزة القداس؟ لم تفكر قط فى أن تسأله لكن هذا الصباح كان ذهنها معبأ بلوحة الكوريه الوحشية فى الليلة الماضية وذكرى يد الإمبراطور عليها، أحست الآن أنها أكثر من أى وقت مضى، ابنة أبيها، حيث كان كثيرا ما يتردد أن دكتور ميرسييه من الماسونيين. بالطبع لم يكن أحد يعرف ما إذا كان هذا حقيقيا لكن من المؤكد أنه إذا ما أعلن عن معتقداته ستتأثر ممارسته المهنية كطبيب. كان كثيرا ما ينظر إلى الماسونيين، مثل اليهود، على أنهم أعداء الدين وبالرغم من أن نابليون الثالث معروف عنه أنه أكثر ليبرالية من سابقيه، إلا أن الكنيسة لم تفقد جزءا من سلطتها على معاقبة الخارجين عليها.

ومع هذا، فإن إيميلين فى سنواتها الأولى كانت تتشبه بأمها فى تقواها. لم تتململ وهى طفلة أثناء القداس إنما كثيرا ما كانت تغرق فى حلم عن أنها ستصبح ذات يوم راهبة، شابة ونقية تضع غطاء أبيض على رأسها تركع أمام مذبح مليئ بالشموع والزهور والبخور، راهبة

ترعى المرضى، تحذو حذو أبيها، لكن، خلافا له، تكدح فقط من أجل مجد الرب الأعظم، راهبة يمكن يوما ما أن تطوّب مثل راهبة – شهيدة – قديسة مثل التى تتحدث عنها الأخوات فى الفصل، راهبة تصعد عند وفاتها لتجلس بجانب الرب الأب، لن تعد إيميلين مرسييه إنما الأخت المباركة آن مارى من طائفة القلب المقدس.

كل هذا كان منذ زمن طويل. فى آخر سنة دراسية لها. بدأت ترى الراهبات على أنهن سجّانات، شخصيات مؤنبة متنائية لسن نساء مثل والدتها وخالاتها من النساء، إنما وصيفات مطيعات، بلا أبناء، معزولات عن الحياة، داخل كنيسة ذكورية. يمكن للمرء أن يداوى المرضى كممرض أو يعلّم الأطفال الفقراء كيف يقرأون ويكتبون بدون أن يخضع للقواعد التاسية لطائفة دينية. وبالطبع يمكن للمرء أن يتزوج.

سألها والدها:

– «ماذا تريدين أن تعملى؟ قلت ذات مرة : إنك ترغبين فى أن تعملى فى عيادتى. هل مازلت تريدين ذلك؟»

أغضب هذا الكلام والدتها.

– «عملها فى العيادة لن يهيئها لتصبح زوجة. هناك أشياء معينة يتعين على الفتاة تعلمها. يجب أن تبقى مع الراهبات عاما أو عامين آخرين. بحلول هذا التاريخ، ستبلغ من العمر ما يؤهلها لاتخاذ قرار بشأن أى مسار فى الحياة تريد أن تنتهج».

فى نهاية المطاف، تحدث إيميلين والدتها. فقد ظلت لمدة عامين قبل زواجها تعمل فترات صباحية لمدة ثلاثة أيام أسبوعيا فى عيادة الدكتور

مرسييه. وأثناء تلك الفترة سادت وجهة نظر أبيها. كانت كاثوليكية لكنها لم تعد ورعة. لم تعد تتلو صلواتها المسائية؛ كانت تحضر القداس وتتناول السر المقدس بانتظام لكن بدون تفكير، نادرا ما كانت تتذكر حلمها القديم فى أن تصبح قديسة أو مخاوفها، وهى مراهقة، من لعنة الرب. أصبحت المحافظة على الطقوس التزاما وليس عملا من أعمال العبادة. كانت إلى حد كبير قد فقدت إيمانها.

كان قداس هذا الصباح، ليس كما يتوقع فى مثل هذه الأجواء، أى أن يكون قداسا كامل المراسم، يغنى فيه كورال. بدلا من هذا، كان قداسا بسيطا، مثل الذى يمكن أن يقام فى أى كنيسة صغيرة قروية، وبدا الكاهن فى عجلة خلاله مثله فى ذلك مثل معظم الأحداث فى السلسلة، حيث لا يسمح صاحبا الجلالة بأى تباطؤ. وهكذا خلال خمسة عشر دقيقة، جاءت اللحظة لرفع خبز الذبيحة. دقّ ناقوس القداس الصغير فى صمت، محذرا جماعة المصلين أن ينظروا إلى أعلى فى خشوع بينما رفع الكاهن برشان القربان المقدس من الخبز غير المختمر وكأس النبيذ اللذين تحولا إلى جسد ودم السيد المسيح. لكن فى هذه اللحظة، رفعت إيميلين رأسها مثلما تعلمت أن تفعل منذ طفولتها، ورأت الكأس ولم تفكر فى دم السيد المسيح ولكن فى المشهد الدموى لليلة الماضية، المصابيح الحمراء، المطلية بالقار المشتعلة فى الظلام، الكلاب المزمجرة، فكوكها الملطخة بالدماء، قرقشة العظام. ركعت الإمبراطورة فوقها فى لوحة من الإخلاص، يداها متشابكتان فى الصلاة، عيناها مركزتان على الكأس المرفوعة، نفس الإمبراطورة التى ابتسمت الليلة الماضية فى ابتهاج وهى تترأس الاحتفال الشيطانى بالقتل. دق ناقوس

القداس الصغير مرة أخرى فى إشارة إلى نهاية الرفع. اختلطت جماعة المصلين وأخذت تسعل فى استرخاء مع اقتراب القداس من نهايته. سرعان ما سيصطفون خارجين من الكنيسة، اكتملت هذه المراسم، مراسم بدت لإيميلين هذا الصباح ليست سوى طقس للمجتمع، خدمة لا تعدو فى بلاط نابليون الثالث أكثر من معنى استعراض عسكرى.

عندما سلّمت هى وأونرى كتاب الصلوات لخادم عند باب الخروج من الكنيسة وتوجها إلى الصالون حيث تجمّع الضيوف فى موكب ختامى عبر الردهة الطويلة مرورا بصفى الحرس المائة الشبيهين بالتماثيل لحضور آخر غداء فى السلسلة، رأت الإمبراطور فى وسط القاعة يرد على الانحناءات وتحيات الضيوف الذين تحلقوا حوله. وفى الوقت الذى وقفت فيه تراقب المنظر، التفت الإمبراطور نحوها، جاء إليها وأمسك بيدها وقبلّها وابتسم ابتسامته الناعسة.

«إن هذا دائما وقت حزين، أليس كذلك يا عزيزتى؟ الفراق. نعم، إنى أحس بهذا فى مثل هذه المناسبات عندما أتعرف على أناس جدد مثلك وزوجك ثم قبل أن نوشك أن نعثر على الوقت الكافى لنعرف بعضنا البعض جيدا، يغادر القطار المكان متجها إلى باريس ويتعين أن نفترق».

ما الذى يجب أن تقوله؟ عندما ترددت اندفع زوجها. «كانت متعة وشرفا عظيما يا صاحب الجلالة. إنى على يقين من أننا لن ننسى أبدا كرمك وعطفك علينا خلال هذا الأسبوع المنصرم». لكن الإمبراطور لم ينظر حتى إلى لامبير. بالرغم عنه أطلق يد إيميلين قائلا «ومع هذا عندما تعودين من إفريقيا، سأدعوك إلى فونتانبلو. إن فونتانبلو، أيتها المدام العزيزة بها بعضا من أماكن النزهة الجميلة التى يسعدنى أن أعرفك

عليها. لدينا زوارق «الكانو «الطويلة الخفيفة وقوارب مسطحة القاع وكافة أنواع القوارب التى نجوب بها بحيرة جميلة جدا. نحن حتى لدينا جندول من البندقية. أستطيع أن أتخيلك فى جندول، يا عزيزتى. حسنا، ربما سأراك فى جندول. آمل هذا».

عند قول الإمبراطور هذا، انحنى لها وأشار إلى كبير أمناء البلاط الذى كان يحوم فى الخلفية. «الآن، يتعين علينا التوجه للغداء. إلى اللقاء أيتها المدام العزيزة».

***

إلى اللقاء؟ لكن فى الغداء الأخير وما تلاه فى الطريق إلى محطة كومبيان وخلال رحلة القطار إلى باريس، لم تتوفر لديهما فرصة للتحدث مع صاحبى الجلالة، اللذين أحاط بهما ضيوف متزلفون، بديا متعجلين ومرتبكين وكأنه يتعين عليهما الاندفاع صوب ترتيبات أخرى بما أن السلسلة انتهت. وهكذا، عندما بلغت الساعة الخامسة بعد ظهيرة ذلك اليوم، لدى وصولهما إلى محطة جار دو نورد راقبا الكولونيل دنيو، وقد حمل أمتعته اثنان من الجنود يسرعان الخطو على رصيف المحطة، وكأنما هو الآخر فى عجلة. رآهما وجاء إليهما قائلا إلى لامبير «سنكون على اتصال الأسبوع القادم. سأعد كل الترتيبات اللازمة. وأشكرك مرة أخرى، يا رفيقى العزيز». ثم التفت إلى إيميلين فقبّل يدها ويا للغرابة استخدم نفس عبارة التوديع التى استخدمها الإمبراطور: «إلى اللقاء أيتها المدام العزيزة».

وسط ضوضاء الضيوف واحتشاد الحمّالين وأكوام الأمتعة، سرعان ما غابت قامته العسكرية من أمام ناظريها. خيم الحزن عليها. التفتت إلى لامبير.

- «هل سنراه ثانية قبل أن نرحل؟»
- «من الممكن ألا نفعل. سيرحل إلى الجزائر العاصمة الأسبوع المقبل».

ثم حان الوقت كي يدفع لامبير مستحقات فرانسواز، الوصيفة العجوز التى حين تلقت النقود انحنت بجسدها لأسفل على نحو صورى لإيميلين ثم انصرفت وهى تسحب حقيبة أمتعتها الصغيرة وراءها على الرصيف. أرسل لامبير جول ليؤجر عربتى أجرة صغيرتين لتحملهما وأمتعتهما إلى فندق مونتروز حيث يقضيان الليلة ويعودان فى الصباح التالى إلى تور.

كانت السماء تمطر. توهجت مصابيح الشوارع فى الشوارع العريضة المتماثلة فى باريس الجديدة، التى أنشأها البارون هاوسمان، مدينة الطرق الواسعة التى يبلغ عرضها خمسين مترا، ذات الميادين العظيمة، والمتنزهات الخضراء، والآثار الضخمة، التى نقل الكثير منها حجرا حجرا من مواقعها القديمة لتناسب أحلام الرجل الذى قبّل فى هذا الصباح تحديدا يد إيميلين. لكن سرعان ما انحرفت عربتها عن الطرق العريضة، جيدة الإضاءة ودلفت إلى الأطلال المتداعية خلف هذه الواجهات الفخمة، عائدة إلى المدينة التى عرفتها إيميلين طوال حياتها، تلك باريس ذات الحارات سيئة الإضاءة، والشوارع الجانبية الضيقة، الصاخبة بأصوات الباعة الجائلين الحواة والسبّاكين وسنّانى السكاكين وآثار أخرى باقية من عمر المدينة العتيقة من العصور الوسطى التى نمت مثل درع السلحفاة عبر القرون، باريس تلك ذات الأحياء حيث يتلاصق الريفيون مع أبناء قراهم مثل العناقيد، ذلك العالم الدافىء، المظلم، القذر، الذى ستطيح به خطط الإمبراطور الكبرى.

خلد لامبير للنوم كعادته مبكرا. فى حجرة نومهما فى فندق مونتروز استلقى، رأسه إلى أعلى، نائما أو متظاهرا بالنوم. سارت نحو المرآة فى حجرة الاستقبال الصغيرة، ذهنها يعج بالأفكار وذكريات الأسبوع الفائت. على منضدة التزين قبعت علبة مجوهراتها. فتحتها ولامست بأصابعها الأساور والعقود والأقراط ومشابك الصدر التى يتعين إعادتها غدا قبل مغادرة باريس ثم رأت فى قاع العلبة كيسا صغيرا من المخمل فسحبته. أخرجت منه الخاتم الذى أهداها زوجها إياه عندما أعلنت خطبتهما، وهو حجر زفير أزرق موضوع وسط مجموعة من اللآلىء. تذكرت الوقت الذى أهداه لها تظاهر بأنه أخرجه من صدرها. للحظة تساءلت ما إذا كان الخاتم مزيفا وأن هذه خدعة. لكنها حين أخذته إلى فرومان موريس فى شارع سانت أونوريه لتركيبه قال لها الصائغ «يا مدموازيل : إن هذا حجر فريد فى وسط بديع».

الآن وضعت الخاتم الزفير فى أصبعها ورفعت يدها وهى تنظر فى المرآة وتحملق بلا يقين فى إيميلين التى ردت على حملقتها بحملقة مماثلة وتذكرت الوقت الذى غازلها فيه لامبير بإهدائها هذا الخاتم منذ خمس سنوات. ذلك اليوم فى بييرفون حين قلت مزحة عندما سأل دنيو كيف أصبحت زوجة أونرى لامبير. قلت إنه دعانى للوقوف على خشبة المسرح. ضحكنا وسأل دنيو ما إذا كان أونرى قد ألقى علىّ تعويذة ففتننى. جعلتها نكتة، لكن هل كانت نكتة؟ هل كل ما فى حياتى يجرى عرضا أو مصادفة أم أن القدر هو الذى أرسلنى إلى المسرح فى هذه الليلة لمشاهدة عرضا ما كنت لأراه أبدا ما لم يعط أحد مرضى أبى إليه تذكرتين لحضور هذه المناسبة الخاصة لمشاهدة أونرى لامبير المشهور

عالميا الذى سيكون فى روان لمدة ثلاثة أيام فقط مثله من قبل؟ وإذا لم يرغب ابن عمى فى الذهاب معى ما كنت لأذهب بمفردى. وإذا كان أونرى قد ظهر على هيئة ساحر بملابس مسرحية، ما كنت لأوجد فى هذه الحجرة معه هذه الليلة. لكن كلا إنه بدا مثل سيد مهذب وعندما هبط عند صف الأضواء السفلية للمسرح مبكرا خلال العرض وأشار إلىّ وسألنى ما إذا كان بحوزتى إيشارب ليستعيره، أذكر أننى سحبت الإيشارب الحريرى المحيط بعنقى وكأننى كنت تحت تأثيره وصعدت على خشبة المسرح، نصف مبصرة من الأضواء السفلية، لأقف بجانبه وأنظر فى الظلام. وهذا الرجل الغريب، الساحر أخذ إيشاربى وضغطه فحوّله لكرة وهزّه وأداره فى كل اتجاه ليؤكد أن لا شىء مخبّأ به ثم أمسك به من وسطه وهزّه مرة أخرى ولدهشة جميع الحضور سقطت ريشة طويلة على الأرضية. أدار الإيشارب على الجانب الآخر وعلى الفور سقطت ريشة ثانية وثالثة ورابعة وفجأة مع قرع طبول من موقع الأروكسترا انهمر سيل من الريش من الإيشارب، فغطى خشبة المسرح كلها من حولى. أذكر أنه ابتعد عنى وهبط خشبة المسرح مظهرا إيشاربى من كل الجوانب ليبرهن على أنه لا يخبىء شيئا. ثم عقد فى كل زاوية من زاويا الإيشارب عقدة وفجأة لوّح بيده على الإيشارب المعقود وهزّها فانحلّت العقد لتكشف عن صحبة ورد حقيقية، والتى قدمها إلىّ وسط صوت التصفيق. وجاءت اللحظة التى لن أنساها. ففى الوقت الذى أنزلنى فيه من على خشبة المسرح مال نحوى وقال فى صوت هادىء «يا مدموازيل، هناك شىء خاص حدث لى هذه الليلة. لا بد أن أراك مرة أخرى». وكأن يدا سحرية وضعت مفكرة وقلما فى يده. «شرّفينى بكتابة عنوانك. سأبعث لك رسولا غدا. إن هذا شىء مهم بالنسبة إلى كلينا».

حدث هذا كله أثناء استمرار تصفيق الجمهور وأنا مثل شخص وقع تحت تأثير سحر ما كتبت عنوانى. وعاد على خشبة المسرح وخلال باقى ليلة العرض أشعرنى فى كل حركة سحرية رائعة أنه يؤدى هذا العرض من أجلى ولى وحدى. بالطبع لم أخبر أحدا بما فعلت. كان أبى سيستشيط غضبه إذا عرف أننى أعطيت رجلا غريبا بالمرة عنوانى. لكنى أتذكر أنى ابتهجت عندما عدت من تدريس فصلى فى سان سولبيس لأجد خطابا فى انتظارى، سلّمه رسول ومعه صحبة من الورود الحمراء. هل يمكن لنا أن نتقابل بعد أن ينهى عرضه؟ هل يمكن لنا أن نتعشى سويا؟ ما الذى جعلنى أقول نعم؟ كانت الجملتان الأخيرتان الواردتان فى الدعوة: «صدقينى، أيتها المدموازيل العزيزة، هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أطلب فيها هذا المعروف من أحد من جمهورى. لأنك كما أخبرنى قلبى وحدسى، المرأة المقدر لى أن أكمل معها بقية حياتى». وأنا أنظر إلى الوراء الآن، أحسب أنه فى مناسبات معينة يمتلك قوة سحرية أو على الأقل قادر على استدعاء إرادته على نحو بالغ القوة بحيث يجعل الناس يفعلون ما لم يكونوا ليحلموا بأن يفعلوه على الإطلاق. وبالقطع، ما كنت أنا الابنة المطيعة لوالديها، لأذهب للقائه سرا فى فندق إمبريال حيث أخبرنى خلال احتساء الشمبانيا وتناول العشاء أنه لدى عودته من باريس قريبا سيذهب ليحادث والدى لأنه عرف منذ اللحظة الأولى التى نظر فيها إلى الجمهور ووجدنى أن هذا أهم لقاء فى حياته. «أيتها المدموازيل العزيزة، لست مثل بقية الرجال؛ لدى القدرة على رؤية مستقبلى وأعرف منذ هذه الليلة أن أهم هدف فى حياتى لا بد أن يكون الفوز بمحبتك».

كنت فى الثانية والعشرين من العمر، ومللت من روان، لم أقع فى حبه، لكنه أطرانى، كنت منفعلة، عرض علىّ أن يأخذنى إلى باريس، لندن، سان بطسبرج، الريفييرا، كل الأماكن التى كانت له وطنا، وجاء بالفعل بعد ثلاثة أيام إلى روان للتحدث مع والدى ويطلب الإذن فى أن يرانى، ونعم، أفلح فى ألا يسبب احتقار أبى له جرحا، عرف بغريزته أنه إذا نجح فى أن يسعدنى سيكسب الرهان. ولأنه صاحب إرادة، ولأنه رجل يثابر دائما فيما يسعى لنيله، تزوجنا بعد سبعة أشهر.

ابتسمت إيميلين الماثلة فى المرآة أمامها ولكن الابتسامة كانت مزيفة. أعطت ظهرها إلى وجهها الماثل فى المرآة والتطقتت رواية لفيكتور هوجو، واندست فى السرير بجوار زوجها النائم. ووضعت الكتاب جانبا وأطفأت الشمعة بعد أن قرأت بضع صفحات وذهنها مشتت. قال لها أبوها إن هوجو هو أعظم الروائيين الرومانسيين، لكن أباها لم يفهم، مثل جميع الرجال، الرومانسية مثل النساء، إن الرومانسية هى عندما تقع فى حب شخص أو شىء أنت محروم منه. إن الرومانسية ليست الزواج. فى ليلة زفافهما، عندما خلع ملابسه، كان لامبير أكبر مما تخيلت، شعر صدره كان رماديا، وكان صوت تنفسه أجش وثقيلا عندما صعد فوقها. عرفت أنه يرغب فى طفل يواصل عمله، يرث أسراره، علبه السحرية واختراعاته الآلية. لكن الطفل الذى منحته إيميلين إليه كان مشيمة ميتة أخذتها القابلة لترميها فى سلّة النفايات. ثم فى العام الماضى عندما بدأت ثانية تتصالح مع الواقع ولدت طفلة وجهها الضئيل مفلطح ومسحوق مثل قالب مهشّم من الجبس. انتحبت وأزاحته بعيدا. كان لامبير فى الحجرة ورأى ارتعابها. فى الأسابيع التالية، أمضى فى صحبتها عددا غير مسبوق من الساعات، مهملا عمله فى محاولة للتخفيف من اكتئابها.

وبالرغم من أنه قيل لهما إن حدوث حمل جديد لن يعرضها للخطر وسينتج عنه ولادة طبيعية، إلا أنه لم يعد يسعى إلى مداعبتها أو يقبّلها باستثناء لحظات الاعتناء الشديد. كانت على علم بأنه لازال راغبا فيها، رأت ذلك فى عينيه وفى عادة مجيئه إلى غرفتها، متظاهرا بإجراء محادثة معها ليستطيع الجلوس ومراقبتها وهى تخلع ملابسها وترتدى أخرى. لكنه يتظاهر بالنوم أو يعطيها ظهره. فى البداية كانت ممتنة لهذا؛ فقد أوضح أنه عطوف، إنه يرغب فى أن يمهلها وقتا. لكن حين أحست بأنها لا بد أن تحاول مرة أخرى أن تحمل طفلا صحيح البدن، جاءت إلى السرير عارية وأمسكت به، أحست بعضوه متصلبا إزاء بطنها، ابتعد ليستمنى. لماذا؟ هل كان خائفا منها أم لم يعد راغبا فى الابن الذى طالما اشتاق إلى ميلاده؟ فى الليالى التى أعقبت ذلك، كانت تستيقظ وهى تشعر بيده تعبث فى مؤخرتها وصدرها، لكن حين استدارت له ابتعد عنها. وعندئذ سألته ما الخطب، هزّ رأسه قائلا: «لا شىء. لا شىء. فلتنامى».

شعرت بالارتياح سرا. إن الجنس معه كان واجبا. بعد شهر لم يعد يداعبها لكن كان ينام أو يتظاهر به، ورأسه فى مواجهة الحائط. بدأت تحلم، مثلما كان الحال قبل زواجها، بممارسة الجنس مع رجال غرباء. ولذلك حين طلب منها أن تذهب معه إلى كومبيان، كيف يتأتى لها أن ترفض؟ لقد خذلته كزوجة.

***

فى الصباح التالى بعد أن تناولت إفطارها خرجت إلى شوارع باريس لإعادة المجوهرات المؤجرة. وفى وقت لاحق من ذلك اليوم استقلا القطار المتجه إلى تور. وصلا ليلا. كان حوذى العربة التى استقبلتهما

لدى المحطة شابا ريفياً يجهلانه. خيمت الظلمة حيث حجبت القمر غيوما كثيفة. ساد الصمت طوال الطريق المألوف بأخاديده عبر غابة صغيرة حتى فى نهاية المطاف اهتزت عربتهما يمنة ويسرة فى شارع أشجار البلوط الضيق المؤدى إلى مانوار ديه شن. قفز جول، الجالس بجوار الحوذى، فى الظلام ودس مفتاحا فى الصندوق الكهربائى الواقع إلى يسار بوابة المدخل. وفى التو، أضاء مصباح كيروسين. هبّ حصان العربة على قائمتيه الأماميتين وجلا وبينما شد الحوذى اللجام، قفز جول وجلس فى مقعده. فى تلك اللحظة تدحرجت الدمية الشبيهة بحارس بوابة بالحجم الطبيعى خارجة من غرفتها وعند وصولها إلى القضبان الحديدية للبوابة رفعت المزلاج. وعلى الفور، انفتحت البوابة على مصراعيها فأصاب الحوذى ما أصاب حصانه من رعب، فضربه بالسوط مارا بالدمية، التى رفعت يدها بالتحية.

كما هى العادة حينما يكون لامبير متوقعا عودته، تبدأ بعض آليات بعينها فى الحركة. أثناء سير عربتهما على أرض الضيعة، أضاءت مصابيح الكيروسين تجويفا أحنى داخله حكيم رأسه المطلي على نحو مضنٍ وراحت يده تقلّب صفحات الإنجيل. وعند ظهور هذا المشهد، أخذ الفزع بمجامع الحوذى فجذب اللجام فتوقفت العربة تقريبا تماما. عند وصولهم إلى المدخل الرئيسى، جاء البستانى وخادمة ليساعدا جول والحوذى فى حمل الأمتعة. وبمجرد رفع آخر صندوق للأمتعة من العربة قفز الحوذى فى مقعده، هزّ اللجام وطرقع بسوطه على ظهر الحصان. وانطلقت العربة تهدر نحو البوابة.

قال لامبير «إنه لم ينتظر حتى ليتلقى نقوده. آمل أن أحقق نفس النجاح مع العرب».

- «ماذا تعنى؟»

أخذ بيدها وهما يدخلان الردهة. قال «الخوف، الخوف الممزوج بالهيبة والرهبة من المجهول، الخوف من الشىء الذى نعجز عن فهمه. هذا هو عين كل أشكال السحر. هذا الحوذى، مثل معظم أبناء الريف، جاهل ويؤمن بالخزعبلات. ومع أنه لا بد أنه رأى حواة ومشعوذين وأصحاب خفة اليد فى الملاهى. لكن فى إفريقيا، كما أخبرنى دنيو، لم ير العرب أبدا الأوهام البصرية مثل التى أستطيع تدبيرها. صدقينى، بالنسبة لهم سأكون أكثر المرابطين قداسة».

فى ظلمة الردهة غير الكاملة، دقت الساعات فى كل غرفة فى الضيعة معلنة الساعة الحادية عشرة فغطت على كلماته الأخيرة. ابتسم لامبير كأن هذا التنافر الصوتى مثل الموسيقى العذبة المألوفة فى أذنيه.

«البيت مرة أخرى، يا محبوبتى. غدا لا بد أن أصحو فى الفجر لبدء استعداداتى. أظن أنه من الأفضل أن أنام فى ورشتى. تصبحين على خير، يا عزيزتى. أحلام سعيدة».

انحنى وقبّل خدّها وهو يمسك كتفيها. كانت عيناه تحمل هذه النظرة المبتهجة المستثارة التى رأتها كثيرا من قبل. عاد إلى بيته ثانية، إلى المكان الوحيد الذى يحبه بالفعل: معمل أوهامه البصرية.

بعد ساعة، دقت عشرات الساعات معلنة انتصاف الليل، رقدت إيميلين غير نائمة فى سريرها. رأت من جديد وجه الحوذى المفزوع وهو يلهب حصانه بالسوط ويندفع بعربته نحو البوابة الآلية، وهو يخشى أن يكون قد وقع فى فخ فى منزل ساحر. بالنسبة إلى الفلاحين وحتى سكان بلدة تور القريبة لا يعد زوجها فى نظرهم، كما يظن هو، شخصاً يثير الخوف والتوقير. الخوف، نعم؛ لكنه الخوف من السحر، من الأشخاص

المتحالفين مع الشيطان. عرفت إيميلين هذا، كما لا يمكن للامبير أن يعرفه قط، عرفت لأن أمها كانت سيدة ريفية، ولدت فى برسى، التى لا تبعد عن هنا كثيرا. وفى الوقت الذى كانت تتظاهر فيه أمها بالضحك على هذه الخزعبلات، إلا أن إيميلين عرفت أنها لا تختلف عن أجدادها من الفلاحين. فى العالم الذى لا يتغير ويطلق عليه الباريسيون فرنسا التى يتعذر إدراكها، يحفل الليل بالعفاريت والساحرات ووهج المستنقعات[1]. حتى فى ضوء الشمس الباهر فى يوم صيفى، يمكنك أن تلمس ربوة مليئة بالحشائش أو تغامر بالدخول فى حقل مقدس بالنسبة إلى الجنّيات، تلك الأخريات الشريرات اللائى يستطعن إلقاء تعويذة عليك، تعويذة تجلب لك التعاسة. ولما لا يصدّق الفلاحون مثل هذه الأشياء التى يتوارثونها جيلا بعد جيل؟ بالنسبة إليهم العالم ليس قائما سوى داخل حدود بلداتهم. لا يعرف معظمهم كيف يقرأ أو يكتب؛ القليل منهم الذى ذهب إلى المسرح؛ وحتى فى المدن مثل تور وروان يعتقد الكثيرون من جمهوره هناك أن اختراعاته وخدعه البصرية هبة منحها له ذلك العالم الذى يختبىء خلف عالمنا المرئى، عالم تحكمه قوى غامضة أشد من الكنيسة، قادر على صنع معجزات يعجز القديسون عن الإتيان بنظير لها.

والآن فى الظلام فكّرت فى الأسابيع المقبلة. ماذا لو أن العرب كانوا مثل أهل برسى؟ ماذا لو أنهم رأوا أن أونرى، ليس بالرجل المقدس، إنما وسيط للشيطان؟

(١) وهج المستنقعات: ضوء يبدو أحيانا فى الليل فوق المستنقعات.

الجزء الثاني

الجزائر ١٨٥٦ - ١٨٥٧

الفصل الخامس

[illegible]

«المدينة بيـضـاء وتقـع على تل»، قـال القـائد جـيـزو، «كل المنازل المغربية[1] المطلية بالجير المائى والمبانى الحديثة هى فقط التى لها واجهة على الشـارع. ومـع اقترابنا من البـحـر فـستبدو المدينة شبيـهة بمحـجر عملاق من الرخام. إنه منظر مدهش، أؤكد لك».

سألت «متى نصل؟»

نظر القائد عبر مائدة الطعام إلى كبير ضباطه الذى أجاب:

– «تفـيد التنبـؤات فى خليج ليـون أن الطقس سـيكون هادئا، سـيدى القائد. أحسب أننا سنصل غدا صباحا، بعد الفجر بقليل».

التـفت الكولونيل مـارمـون، قـائد هيـئـة الضـبـاط البـحـريين فى مـيناء مـرسيليـا، الذى كلّف بمرافقتهـمـا خصـيصـا فى رحلتـهـمـا إلى الجزائر العاصمة، إلى لامبير.

(١) المغربية: الكلمة الواردة هى Moorish وهى كلمة يقصد بها المغاربة الفاتحين للأندلس والبربر والمسلمين عامة.

- «صدقنى إنه منظر يستحق أن يرى. هذا، إن استطعت أن تكون على سطح السفينة فى هذه الساعة المبكرة».

لكن الآن وبعد إبحار السفينة البخارية ألكسندر لمدة ست وثلاثين ساعة من مرسيليا، مرت عبر ضباب الفجر، وقفت إيميلين بمفردها على السطح العلوى للسفينة خارج الحجرة الفاخرة التى خصصت لهما خلال رحلتهما. كان لامبير نائما. لم يكن أبدا ممن يستيقظون مبكرا. فى الفجر، فى أول رحلة بحرية لها لقارة جديدة، حدقت أمامها، وانفعلت حين انقشعت دوامات الضباب فجأة بعد أن شقّها مقدم السفينة وعلى مسافة رأت الأرض خلف سد طويل أخفى الميناء، رأت تلك المدينة الواقعة على تل، تشمخ بارتفاع مائة وثلاثة وثلاثين مترا فوق سطح البحر. لم تبد لها المدينة، ومع اقتراب ألكسندر من الشاطئ وهى تطلق صفارة الإنذار تحية، لم تبد كمحجر عملاق من الرخام، إنما بدت مثل قلعة مغربية هائلة مهددة بحواجزها وصفوف منازلها المتلاصقة، ناصعة البياض فى وهج شمس إفريقية حارقة.

بعد انقضاء عشرين دقيقة، وألكسندر تبحر حول السد ودخلت الميناء، عادت إيميلين إلى غرفتهما الفاخرة. استيقظ لامبير فى وقت سابق مع صفارة الإنذار، جلس لابسا ملابس رسمية: معطف الفراء، وصدرة وبنطلون من الكتان الأبيض ووضع بعناية ربطة عنق من الحرير حول عنقه. صبّ مضيف قهوة الصباح. رفع لامبير نظره فرآها فى المرآة وقال:

- «لا بد أن ترتدي زيا أكثر رسمية، يا محبوبتى. شىء أميل إلى الألوان الفاتحة. وقبعة. سيكون هناك نوع من الاستقبال الرسمى».

التفت إلى المضيف وسأله «متى سنرسو؟»

– «سنلقى بالمرساة فى الثامنة والربع، يا سيدى. ستهبطون بعد التاسعة بقليل».

قالت إيميلين «إذن لدينا متسع من الوقت سأغيّر ملابسى الآن لكن أريد العودة الآن إلى السطح بأسرع ما يمكن. لا يمكننى أن أصدق أننا هنا».

– «كما تحبين، يا عزيزتى. لكننى لا أريد أن أرى على السطح. يجب أن يكون ظهورى فى اللحظة الأخيرة. من الآن فصاعدا، يتعين علّى أن ألعب دور الشخصية العامة».

وهكذا، مرة أخرى، وقفت وحيدة، تنظر إلى أسفل درابزين السفينة بينما يجرى إنزال لوح الهبوط إلى رصيف الميناء تقاطرت مجموعة من الزنوج (هل هم عبيد، ساءلت نفسها) فأحدثت زحاما عند لوح الهبوط لتفريغ أمتعة المسافرين. كان ينظر إلى السفينة عرب، وهو جنس ألفته فقط فى الرسومات واللوحات والآن فجأة تجسد أمامها، رجال ذوو جلد لوّحته الشمس، ولحى قصيرة وشوارب، رؤوسهم حليقة باستثناء خصلة شعر طويلة على قمتها. كانوا يرتدون عباءات من الصوف طويلة تصل إلى الكعبين وهى تغطى رؤوسهم ومربوطة فى أعناقهم بحبل من شعر الجمال. وارتدى الكثيرون فوق العباءات معاطف طويلة فضفاضة. كانوا يلبسون صنادل بدائية من جلد الثيران، لكن إيميلين لاحظت أن حفنة بدوا من طبقة أعلى انتعلوا أحذية صفراء برقبة طويلة. كما وقفت عشرون امرأة معظمهن شابات يرتدين قمصان فضفاضة من الصوف، مربوطة على خصورهن بحبل ومثبتة على الصدر بمشابك حديدية كبيرة. كان شعرهن مجدولا فى ضفائر ووضعن فى أذرعهن وسيقانهن أساور

من فضة وحديد. صدمتها وجوههن فالكثير منهن حمل وشما ومن آذانهن تدلت أقراط كبيرة وأظفارهن مخضبة بالحناء فأعطت لها لونا بنيا مشوبا بالحمرة. قرأت من قبل أن النساء العربيات محجبات لكن كما سيتكشف لها فى قادم الأيام أن هذا ينطبق أساسا على زوجات الصالحين.

بدأ جمهور المشاهدين الآن فى المناداة على الركاب العرب الذين احتشدوا فى الأدوار السفلية للسفينة ألكسندر وهم يشرفون على الحمالين الزنوج الذين حملوا صناديق أمتعتهم وعلبهم. هبط الركاب العرب إلى الشاطئ يتبعهم الحمّالون حيث استقبلوا بانحناءات وأحضان وسلسلة بدا أنها مجاملات رسمية. اقتحم المشهد مجموعة من الجنود الفرنسيين وهم يخطون خطوة عسكرية رصيف الميناء، يسبقهم ضابط شاب فى زى رسمى وفرقة موسيقى عسكرية وحامل راية يرفع العلم الفرنسى ثلاثى الألوان عاليا. حمل الجنود وليس ضابطهم بنادق طويلة وارتدوا الأزياء الشرقية المزركشة لفرقة الزواوية[1]. وقفوا الآن صفا فى دقة عسكرية أسفل السلم الرئيسى الموصل بين السفينة والشاطئ. عند هذه النقطة أوقف بحارة ألكسندر بعض الركاب الفرنسيين الذين أوشكوا على الهبوط. ظهر الكولونيل مارمون إلى جانب إيميلين. «تعالى يا مدام نحن جاهزون من أجلك». قادها سريعا إلى السلم الرئيسى حيث وقف لامبير نافد الصبر. وبإيماءة من مارمون سار لامبير بمفرده

---

(١) الزواوية: كتيبة شكّلها الاستعمار الفرنسى من المتطوعين من أهل سكان زواوة الذين ينتمون إلى البربر عام ١٨٣١. وتضخمت الكتيبة حتى صارت أربع كتائب من بينها كتيبة زواوية الحرس الإمبراطورى فى عام ١٨٥٤ والتى شاركت فى حرب القرم.

هابطا السلم. عزفت الفرقة العسكرية نشيد «المارسيليز». وعندما خطا لامبير بقدمه على الشاطئ أدى الضابط الشاب الذى ارتدى حبلا قصيرا حول رقبته، يخص ياورا، التحية العسكرية بيده ثم امتشق سيفه ورافق لامبير متفقدا صف جنود حرس الشرف الزواوية.

أعطى الكولونيل مارمون ذراعه لإيميلين وقادها فى الهبوط على السلم ثم ركبا عربة لنداو وقفت تنتظر. كان لامبير قد جلس بالفعل فى العربة. قرعت الفرقة الطبول وأدى حرس الشرف سلام در، ورافقهم الياور الذى جلس قبالتهم فى العربة المتحركة ببطء عبر حشود العرب المتفرجين. وصلوا إلى شارع عريض بما يكفى لمرور عربتين بعد أن اجتازوا بوابة الميناء قال الياور وهو يعلمهما «هذا شارع دو لا مارين وهو يؤدى إلى السوق الرئيسية. توجد ثلاثة شوارع فقط بهذا الاتساع فى جميع أنحاء الجزائر العاصمة، لذا فاستخدامنا للعربات محدود».

ثم أخبرهم حينئذ بأن هذا هو الحى الأوروبى وأن معظم المنازل هنا جديدة. رأت إيميلين أن المنازل الجديدة لها قباء مبنية على بواكى بنفس أسلوب العمارة الموجود فى شارع دو ريفولى فى باريس. تتقاطع مع شارع دو لا مارين العشرات من الحارات المظلمة يقل عرضها عن متر وثلاثين سنتيمترا بحيث يتعين على المارة أن يميلوا على جانبهم لتفادى الآتى من الاتجاه المعاكس. هذه اللمحات عن مدينة تختفى وراء المنازل الأوروبية الجديدة، وهى مجموعة من المبانى عديمة النوافذ، تلقى طوابقها العليا بظلال على الطوابق الدنيا على نحو يجعل الحارات مظلمة

وتنذر بالشر حتى فى شمس الظهيرة، كل هذا ملأ إيميلين بالتوجس. كيف يتأتى لأناس يعيشون فى هذه التياه المعتمة المنذرة أن يتأثروا بالرجل الجالس إلى جانبها والذى يسأل الياور فى إلحاح عن وسيلة نقل آمنة لمتعلقاته كساحر عبر هذه الحارات الضيق؟

«إن المسرح الموضوع تحت تصرفك، يا مسيو، يقع فى شارع بات آزون وهو كما ذكرت واحدا من الشوارع الثلاثة الرئيسية فى الجزائر العاصمة. إنه شارع ضخم وتسهل الحركة فيه. وبالنسبة إلى عروضك خارج المدينة، ستجد أن قوافل الجمال يمكنها حمل أكثر أنواع الأمتعة إرباكا».

قال لامبير فى صوت متوتر «ليست أمتعتى هى المربكة لكنها رقيقة. لا بد من نقلها بعناية كبيرة».

والآن رفع الأوروبيون والعرب الذين يسيرون على الرصيف المظلل أعينهم للنظر إلى عربتهم وهم مستمرون فى المرور بجانب البواكى الباريسية فى شارع دو لا مارين. حياهم العديد من الأوروبيين، لمس الرجال قبعاتهم وأمالت النساء رؤوسهن تحت مظلاتهن. وعلى الفور وكأنه من علية القوم وكبرائهم لوّح لامبير لجمهور المارة. نظرت إيميلين إلى الياور. بدا شبح ابتسامة يطل على وجه الشاب. عندما رأى أنها لاحظت ذلك، أشار إلى الأمام كأنما يشتتها.

- «ها نحن وصلنا يا مدام. ضيعة الحاكم. إن الماريشال راندون ليس موجودا الآن. ذهب إلى الجنوب مع بعض الجنود. توجد اضطرابات فى منطقة القبائل».

سأل لامبير «ما نوع الاضطرابات؟»

– «انتفاضة صغيرة. إن منطقة القبائل لم تستعمر بعد. لكن بحلول العام المقبل عندما تصل قواتنا من فرنسا سيحدث هذا».

حملقت إيميلين، التى كانت غير منصتة تماما أمامها مع اقتراب العربة من مبنى مغربى مبهر تحيط به حديقة مستطيلة من أشجار البرتقال. رفرف العلم ثلاثى الألوان على نحو بارز على سطح المبنى. رفع الجنود الزواوية أسلحتهم عند مرور عربتهم عبر البوابات الحديدية المزخرفة وصولا إلى ساحة فسيحة مغلقة تحوطها الأقواس المغربية. نظرت إيملين إلى أعلى. شكّلت فوقها السماء المدهشة فى زرقتها قباء تعلو القاعات ذات الأعمدة وأضفى ضوء الشمس الحاد بريقا ذهبيا على بلاط الرخام المعروق الملون، والنقوش المنمقة وجدرانا خزفية وفى قلب الساحة اختلطت نقاط المياه المندفعة من نافورة ضخمة مع الضوء المتقزح. أحست فجأة بانتعاش كأنما انتقلت إلى صفحات كتاب حكايات.

هذا المبنى المسحور لا ينتمى إلى فرنسا، لا يهم رفرفة علم فرنسا أعلاه. هذه الشمس، هذه الساحة إفريقيا؛ مغربى، ساحر وغريب. كان انتعاشها مبعثه أنها سكرانة من النشوة. لم تعد تر حارات الجزائر العاصمة مظلمة ومنذرة بالشر. فجأة رغبت فى أن تصبح إفريقيا وطنها.

تقدم خدم عرب ليرشدوهما إلى الجزء المخصص لإقامتهما. أجاب كبير الخدم وهو من العرب عن استفسارات لامبير بشأن وصول الأمتعة قائلا إنها ستصل خلال ساعة.

قال له لامبير «لا بد أن أحصل على حجرة لتخزين أشياء معينة. يتعين أن تحفظ فى مكان يغلق ويكون معى وحدى المفتاح».

- «بالطبع يا مسيو. سيكون الأمر كما تتمنى».

كانت الغرف المخصصة لهما بعيدة عن بعضها البعض وفسيحة ذات سقف عال وباردة، تزين جدرانها الرخامية أوانى فخارية ضخمة ملونة. كانت الأرضية من الرخام الأبيض أيضا عارية لا يغطيها شىء سوى بعض الحصر البسيطة المصنوعة من سعف النخيل. فى كل حجرة كان يوجد صوانان للملابس ذوا نقوش جميلة ومطليان بطلاء لامع وآنيتان للزهور مملوءتان بماء الورد. ووسط كل هذا الأثاث العربى، بدا السرير وطاولة التزين والكراسى الأوروبية قبيحة وفى غير مكانها. توجهت إيميلين من فورها إلى النوافذ وفتحت الدرف التى أفضت إلى شرفة طويلة تطل على أسقف الحجرات المجاورة وأسفل منها بطابقين كانت حديقة الضيعة تضم غابة صغيرة من أشجار البرتقال. سمعت كبير الخدم يهمس فى تزلف. «هذا هو جناح السفراء يا صاحبة السعادة. آمل أن يكون قد حاز على إعجابك. هل هناك أى شىء تتمنيه؟ ربما أستطيع أن آتى لك بفنجان من القهوة وقطع من المسكّرات الآن».

كانت القهوة، التى جيىء بها خلال دقائق من طلبها من كبير الخدم، ذات نكهة نفّاذة ومحلاة بالسكر، لها طبقة سميكة من الثفل وقدّمت فى فنجان صغير من الخزف على صينية مطلية من الصفيح. ووضع بجانب الفنجان طبق به تمر وقطع كيك صغيرة وغليون أحمر طويل من الفخار مملوء بالتبغ. وبينما هما جالسان فى الشرفة المطلة على الفناء، تناهى إلى أذنيهما على البعد موسيقى رتيبة غير مألوفة تعزف على الكمان، يتخللها قرع خفيض لطبلة.

فى الساعة الحادية عشرة صباحا، جاءهما خادم بعدما اغتسلا وغيرا ملابسهما ليخبرهما أنهما مدعوان على غداء مع السكرتير

الرئيسى للحاكم العام، مسيو دو لا جارد. قدم الغداء فى غرفة طعام درفها مغلقة ويرطب الجو بها مراوح يحملها خدم من الزنوج. كان الطعام فرنسيا، وبالإضافة إلى وجود مسيو دو لاجارد حضر ثلاثة من الدبلوماسيين الكبار وزوجاتهم. بعد تبادل بعضا من أشكال الترحيب، سرعان ما اتجهت المناقشة نحو غياب الماريشال راندون فى منطقة القبائل.

أخبر مسيو دو لاجارد الحضور قائلا «تلقيت رسالة منه هذا الصباح. كما تعرفون إن هذه الاضطرابات الأخيرة كانت محصورة فى إقليم سوق العربة. لكن يبدو أنه منذ ثلاثة أيام عقد الماريشال راندون اجتماعا مع قادة المتمردين ولحسن الحظ، أعلن شيخ باسم الجماعة كلها هدنة مؤقتة. يبدو أن هذا الشيخ أخبره المرابط بو عزيز بأن الرب لم يأمره بعد بقيادة الشعوب العربية فى انتفاضة. وبالتالى فإن الحظ حليفنا حتى الآن. إن الماريشال راندون والكولونيل دنيو فى طريق العودة إلى الجزائر العاصمة. أتوقع وصولهم بعد غد».

كانت إيميلين تستمع ثم أنصتت فقط عند سماعها أن دنيو غائبا وسيعود قريبا. كانت قد ارتدت بعناية خصيصا لهذا الغداء وعند دخولها إلى غرفة الطعام بحثت عنه فى لهفة للتأكد من حضوره. الآن التفتت مدام دوفير، السيدة الجالسة إلى يسارها، وقالت:

– «أحسب أنك وزوجك التقيتما بالكولونيل دنيو. لا بد أن ترى مسكنه فى الحى العربى بالقرب من القلعة. شيء فائق يا عزيزتى».

– «هل هو...؟» فجأة شعرت إيميلين بأنها خائفة. «هل الكولونيل متزوج؟ لم يدر بخلدى أن أسأل من قبل».

- «كلا كلا البتة. إنه أعزب تماما. ومن اليسير على المرء أن يعرف السبب».

- «آه؟ لم يا ترى؟»

- «يتعين على رئيس المكتب العربى أن يقضى نصف حياته مرتحلا فى الصحراء. إن حياته نقيض الحياة المنزلية».

التفت مسيو دو لاجارد إلى لامبير:

- «يجب أن أوضح يا مسيو أن هذه أنباء رائعة بالنسبة لنا جميعا لأننا دعونا بالفعل البارزين من الشيوخ والمرابطين لحضور الاحتفالات الموسمية هنا بعد أسبوعين من الآن. بحلول هذا الوقت آمل أن نعرض عليهم قدراتك الخاصة. وإذا كانت الاضطرابات فى منطقة القبائل قد انتشرت، كنا سنضطر إلى إلغاء الاحتفالات. آمل يا مسيو أن يوفر لك الأسبوعان الوقت الكافى لإعداد تجهيزاتك».

قال لامبير «سأبذل قصارى جهدى. أحسب أنكم أعددتم مسرحا من أجلى».

- «فعلا أعددنا ذلك. إنه فى شارع بات - أزون، وواجهته بهية على نحو خاص. أظن أنه سيرضيك».

قال أحد المسئولين «بالمناسبة، إن مسرحكم كان مسجدا فى السابق. كان يوجد الكثير - الكثير جدا - من المساجد فى الجزائر العاصمة عندما سيطرنا على المدينة. حوّلنا البعض منها لاستخدامات أخرى».

علّق مسيو دو لاجارد قائلا «لقد نسيت أنه كان يوما ما مسجدا. ربما يكون من المستحسن أن نتذكر هذا. من المؤكد أن العرب لن ينسوا.

وهكذا، مسيو لامبير، قد يصطبغ استعراضك بملمح دينى. ربما تكون لمحة من الإعجاز».

ضحك الضيوف على هذه العبارة. رفع لامبير كأسه مبتسما وهو يدعو إلى نخب. قال «للمعجزات، للمعجزات الفرنسية».

***

فى اليوم ذاته، قبيل الغروب، عندما غطت الظلال الطويلة أسطح المبانى المجاورة لحجراتهما، رأت إيميلين سيدات عربيات يسرن فى شرفات واسعة يلقين النظرات حولهن وهن يتحدثن. عندما رأينها حملقن فيها جهرا، لكن لمّا ظهر لامبير خلفها ابتعدن وأسدلن مناديل من الموسلين لتغطية وجوههن. ثم وكأن الأمر لعبة ضحكن فى بلاهة وأخذن يختلسن النظر إلى الرجل الأجنبى.

قال لامبير إلى إيميلين «إن الجو الآن أكثر لطفا والليفتاننت لوكوفر يدعونا للذهاب إلى مقهى معه ومشاهدة الاستعراض المسائى. أتودين ذلك؟»

فى الفناء الرئيسى الهائل للضيعة، حيّاها الليفتاننت لوكوفر، الياور الذى رافقهما هذا الصباح، بانحناءة ثم قادهما عبر شارع دو لا مارين إلى مقهى إيطالى، حيث جلسوا تحميهم أقواس مظللة فى طريق جانبى، يأكلون الآيس كريم ويشاهدون خليط ألوان وأشكال المارة.

جلست إيميلين مشدوهة كأنها فى مسرحية. حتى فى باريس، لم تر مثل هذا العدد الكبير جدا من الأزياء والبشرات المختلفة.

سألت لوكوفر:

– «لكن من يكون هؤلاء؟ إن الأمر يشبه الوجود فى عدة بلدان فى وقت واحد».

ابتهج الليفتاننت. قال:

– «دعينا نر. يمكنك أن تعرفى من ملابسهم إلى أى جماعة ينتمون. ستعرفين العرب من لحاهم وشواربهم. يرتدى من أدوا فريضة الحج إلى مكة العمائم الخضراء. والرجلان اللذان يلبسان صدرة موشاة بالذهب وسراويل فضفاضة من المغاربة».

سألت إيميلين:

– «ومن يكون ذوو البشرة الفاتحة؟»

– «إنهم الأشخاص الذين يسببون لنا الكثير من المتاعب. إنهم ليسوا عربا بالمعنى الصحيح إنما هم من القبائل، شعب من البدو الرحل من الجنوب».

أشار بعدئذ إلى مجموعة من الزنوج يلبسون زيا عربيا. بدوا مختلفين عن الزنوج الذين رأتهم إيميلين فى فرنسا. كانت بشرتهم ممتقعة أكثر منها سوداء. قال الليفتاننت:

– «إن الكثير منهم من العبيد جيئ بهم إلى هنا من إفريقيا الجنوبية. وهذا الرجل الجالس خلفنا تركى، وهؤلاء العرب، الذين يلبسون البرانس السوداء وجوارب سمراء ليسوا من العرب إنما هم يهود. فى الأزمان الغابرة أجبروا على ارتداء السواد، وهم مستمرون فى ارتدائها كعلامة على الاعتداد والفخر. يحتقر العرب اللون الأسود وهو اللون الذى يرمزون به إلى الكفار».

قالت إيميلين:

– «لكن نحن الفرنسيين كفار».

– «نعم، لكننا الكفار الفاتحون يا مدام. لسنا مثل اليهود. إن اليهود هم أكثر الفئات احتقارا ويساء معاملتهم فى العالم العربى. ومع هذا

فأنا عن نفسى أجد نساءهن جميلات. أنظرى. هاتان البنتان يهوديتان».

حملقت إيميلين فى الفتاتين اليهوديتين وكانتا بالفعل جميلتين ترتديان عباءتين طويلتين من الحرير وتلفيعتين حريريتين تحيط بفخذيهما وشالين من الحرير المطرز مربوط حول رأسيهما فى غير إحكام.

أشار الليفتاننت بعدئذ إلى بعض الرجال الذين مروا وهم مستغرقون فى مناقشة. «الكراغلة. إنهم يتحكمون فى الكثير من الأكشاك فى البازارات. إنهم جنس قائم بذاته، نتج عن التزاوج بين العرب والترك. لا بد أن تزورى البازارات يا مدام. توجد حلىّ صغيرة رخيصة هناك ربما تودين أن تأخذيها معك كتذكارات». واختلط بهذا الجمع الزاهى الألوان الكثير من الأوروبيين، وسرعان ما أدركت إيميلين أن عدة رجال أخذوا ينظرون إليها فى اهتمام. لاحظ الليفتاننت لوكوفر ذلك أيضا، والتفت إلى لامبير مبتسما له ابتسامة رجل لرجل. «لا بد أن أحذرك يا سيدى، من أنه فى وجود زوجة حسناء مثل زوجتك من الحكمة أن تحترس هنا. لدينا الكثير جدا من الرجال غير المتزوجين فى الجزائر العاصمة، الإيطاليين، البرتغاليين، الألمان، الروس، والبولنديين». ابتسم مغازلا إيميلين. «وبالطبع نحن الفرنسيين».

قرر لامبير تجاهل هذا التعليق. قال :

– «أخبرنى، كم يبلغ عدد المسلمين من هؤلاء العرب أو القبائليين أو أي ما تطلقونه عليهم؟».

«كلهم، باستثناء اليهود بالطبع. حتى الزنوج مسلمين. كما سترى، القبائليون والزنوج والكراغلة والعرب والترك الأغنياء والفقراء لا يوجد

فارق فالجميع يسجد معا فى الصلاة خمس مرات يوميا عندما ينادى المؤذن».

سأل لامبير :

– «فى المساجد؟ كل يوم؟»

– «كل يوم وفى أى مكان. يسجدون على الرمال فى صمت الصحراء، أو فى حارة قذرة فى قرية نائية. فى أى مكان، فى أى وقت، عندما يرفع الأذان. إن إيمانهم عميق».

سأل لامبير :

– «لكن ألم نحاول تحويلهم عن دينهم؟ من المؤكد أننا لدينا بعثات تبشيرية هنا؟».

– «تحويلهم؟ يجب أن توجه هذا السؤال إلى كبير أساقفة الجزائر العاصمة. أخشى القول بأن قساوستنا لم يحالفوا نجاحا فى هذا الجزء من إفريقيا. يعمل الآباء اليسوعيون بين أهل منطقة القبائل وأخبرونا أنهم حققوا بعض التقدم. أما العرب فهم شىء آخر. هم يعتبرون يسوع نبيا وبالتالى فهو شخصية جديرة بالاحترام والتوقير. لكن محمد هو نبى الرب العظيم وهم لا يجلّون أحداً مثله. لقد وعدهم أن هناك مخلّصا سيقودهم من الهوان إلى الفردوس. ومازالوا ينتظرون هذا المخلّص، الذى يطلقون عليه اسم المهدى، أى المختار».

– «المهدى؟ أليس هذا ما يطلقونه على المرابط الذى يفترض أننى أواجهه؟».

هزّ الليفتاننت رأسه:

– «لم يقبل بعد على أنه المهدى. سيحدث هذا فقط حين يدعو لحرب مقدسة». التفت إلى إيميلين «أتصور أنه لا بد من أن الحديث فى

السياسة كان مملا بالنسبة لك يا مدام. إلى جانب، أننا يجب أن نعود إلى مقر إقامتنا. نحن نتناول عشاءنا فى الساعة التاسعة مع نسيم المساء. سيمنحك هذا الوقت الكافى لتغّيري ملابسك».

***

تغير ملابسها، نعم، لكن وضع مساحيق التجميل على الطريقة الغربية، المصممة من أجل الريف الفرنسى فى شهر نوفمبر، لا يصلح فى هذا الطقس الإفريقى. وهكذا جاءت متأخرة إلى غرفة الطعام الكبيرة الملحقة بالقاعة المركزية لمقر إقامة الحاكِم العام. ارتدت فستانا صنعته لها مدام كوت، خياطتها فى تور، وهو فستان أدركت الآن أنه يكشف أصلها من إقليم روان، زوجة رجل من المستحيل أن يكون جزءا من هذه الطبقة الأرستقراطية الاستعمارية من الدبلوماسيين وكبار الضباط العسكريين. لأنها أحست أن هذه الضيعة المقر الرسمى للحاكم العام للجزائر، كانت مثل كومبيان، بلاط، حاكمه رفعه الإمبراطور إلى أعلى رتبة عسكرية وهى ماريشال فرنسا.

ومع هذا، فمما خفف من عدم ارتياحها، وجدت مسيو دو لا جارد وزوجته ينتظرانهما عند دخولها هى ولامبير للترحيب بهما، وكان لا جارد، أرفع دبلوماسى فى الحضور هو الذى منحها ذراعه بنفسه وقادها إلى مكان تشريفى على مائدة الطعام. قدم الزنوج الوجبة، وبمجرد جلوس الضيوف، بدأت تسمع أوتار الموسيقى تتهادى من الفناء الرئيسى المجاور. كان بمقدور إيميلين أن ترى الموسيقيين متجمعين حول النافورة. كانوا يرتدون زيا عربيا ويقودهم رجل عجوز جدا يمسك بآلته، «كمان بثلاثة أوتار»، فى اعتداد وجدية شديدة، وكان ينحنى بين الحين والأخر تجاههم كتحية.

قال لها مسيو دو لاجارد:

– «إن الموسيقى التى تعزف على شرف زوجك. تعد هذه الأوركسترا الصغيرة مشهورة فى هذه الأنحاء. هذا الرجل العجوز الذى يقودها كان الموسيقى المفضل لدى الداى الأخير الحاكم التركى أيام الإمبراطورية العثمانية. غدا فى المقاهى سيعرف أنه الليلة عزف من أجل زوجك، الساحر العظيم. مثل هذه الأشياء ليست بلا مغزى فى العالم العربى».

كانت ممتنة للموسيقى. امتزجت أوتار الكمان بصوت القرب والجيتار لتصدر صوتا أحادى النغمة وجدته يبعث على السلام والسكينة، مما يسمح لها، مثلما كان الحال فى كومبيان، الظهور بمظهر من يستمع فتعفى من أى محادثة. على الجانب الأخر، كان لامبير فى بيئة تتفق وميوله حيث أن الفرقة التى اهتمت بهذا الضيف الآتى من عالم لم يعرفوه قط من قبل، جعلته منشغلا فى الرد على أسئلة بشأن رحلاته إلى البلاط الروسى والبلاط الإنجليزى. خلافا للوقت الذى قضياه فى كومبيان كان الليلة بؤرة الاهتمام، وهكذا عند عودتهما إلى حجرتهما فى نهاية الأمسية، خرج إلى الشرفة وفتح ذراعيه على أقصاهما. وقال محدقا فى الأسقف المغربية المظلمة المحيطة به: «إنه شىء فريد ولكنى أحس بأن كل حياتى قادتنى إلى هذه الزيارة. هذا يفوق أى شىء آخر فعلته من قبل، هذا هو ما وضعت على الأرض من أجل عمله».

لم ترد وللحظة كأنما تضايق من صمتها، ذهب إلى حجرة الجلوس وقال:

– «رتبت الذهاب غدا باكر إلى المسرح. قال لى الليفتاننت إن مدام دوفير عرضت عليه أن تصحبك فى جولة إلى الأسواق المحلية. سيكون هذا مثيرا بالنسبة لك».

أخذها بين ذراعيه، وقبلها فى سطحية قبلة المساء كما هو الحال فى منزلهما. «نامى جيدا. حتى الغد، إذن».

كالمعتاد عندما يكونان بلا سريرين منفصلين، ما كانت لتخلع ثيابها وتجلس بجانبه حتى يتوفر لديه وقت لينام أو على الأقل يتظاهر بالنوم. الآن كانت تذرع الشرفة الواسعة الطويلة جيئة وذهابا، وهى تسمع أصوات الليل فى هذه المدينة الغريبة، أصوات تنادى على بعضها البعض بلغة مجهولة، قرع بعيد خفيض لطبلة. نظرت إلى أعلى لصفوف المبانى البيضاء المتصاعدة التى تشبه القبور، فى العروق المظلمة المتعرجة صعودا لأعلى التل إلى الحى العربى أسفل القلعة حيث يوجد مسكن دنيو، ذلك المسكن الذى وصفته مدام دوفير بأنه «شىء فائق...». بالطبع نادرا ما يكون هناك. «يتعين على رئيس المكتب العربى أن يقضى نصف حياته مرتحلا فى الصحراء. إنه نقيض الحياة المنزلية».

فى الصحراء، يركب جملا، ينام فى خيام. وهنا فى الجزائر العاصمة، يعيش هناك فوق فى حى أهل البلد. نظرت إيميلين مرة أخرى إلى المبانى البيضاء. لما ترانى أفكر فيه فى كل لحظة، هذا الرجل بالكاد أعرفه، هذا الرجل الذى يمكن أن تكون الإطراءات قد قدّمها إلى وهذه النظرات ذات المغزى التى سددها إلى لأنها ببساطة جزء من خطته للإتيان بزوجى إلى هنا؟ لماذا أفكر فيه الآن حتى أكثر مما كنا فى كومبيان؟ هل لأننى فى إفريقيا حيث لم أفكر قط فى أنى سأكون هنا، وهو جزء من التعويذة التى يلقيها هذا المكان؟ كيف أستطيع قولها، لا توجد كلمات، لكن منذ اللحظة التى جلست فيها على سطح السفينة هذا الصباح ورأيت هذه المدينة على تل، ما الذى قاله أونرى منذ لحظات؟ «ولكنى أحس بأن كل حياتى قادتنى إلى هذه الزيارة». يمكننى قول هذا أيضا، لكن ليس لدى مهمة هنا، بلا سبب لقول هذا أو الإحساس به. مع هذا أحس به. أحس به.

الفصل السادس

قالت مدام دوفير «أخشى أن أكون مضطرة لإصابتك بخيبة أمل. وأسفاه، لا بد أن نؤجل زياتنا للبازارات. تناهى إلى سمعنا منذ لحظات أن الماريشال سيعود بعد ظهيرة اليوم وليس غدا. وجعلنا مسيو دو لا جارد نقف على أصابعنا فى الإعداد لحفل استقبال الليلة للماريشال والضباط المرافقين له. سنستضيف جميع أفراد السلك الدبلوماسى فى العاصمة وأيضا كذلك بعض الشخصيات العربية البارزة. وبالطبع أنت وزوجك ستكونان من الحاضرين».

لكن إيميلين لم تسمع سوى أن دنيو سيكون هنا الليلة. وعلى الفور، فكّرت فى نفسها وحالها فى كومبيان وعندما يراها الآن، حيث لم تعد ترتدى الفساتين الأنيقة، بدون خدمات الوصيفة العجوز التى كانت تصفف شعرها على نحو رائع، لم تعد تجلس بدعوة خاصة إلى جانب الإمبراطور على المائدة، لكن بدلا من ذلك عادت إلى الوضع العادى،

زوجة الساحر، التى بعد أن كسبوا الساحر لصفهم ووضعوه فى موضع التنفيذ الآن، لم تعد شخصا يتعين على دنيو أن يغازلها. وفى وقت لاحق من بعد ظهيرة ذلك اليوم وهى تحاول فى غرفة التزين غير المألوفة لها فى حجراتهما تحاول المرة تلو المرة فى تصفيف شعرها بنّفس الأسلوب فى كومبيان، أحست بأن عينيها مبللة بالدمع. كيف تركت نفسى للدخول فى مثل هذه الحالة؟ لم أرد أن أكون جزءا من هذا المجتمع فى كومبيان، ولا يمكن أن أكون جزءا من هذا العالم فى إفريقيا. أنا زوجة لامبير، هذا هو ما أنا عليه، زوجة شخص أرسل إلى هنا ليخدع أولئك العرب، ما أهمية أن أكون زرية الملابس أو شعرى مصففاً بشكل سىء؟ لن يلاحظ أحد هنا.

لكن للمرة الخامسة تركت شعرها ينساب وحاولت تصفيفه مرة أخرى.

***

قال الياور للامبير «سنتجمع فى الفناء الرئيسى فى السابعة. وسيصل الماريشال راندون فى حوالى الساعة السابعة والثلث. سيحضر هذه الأمسية أولئك الذين يعدون قيادات روحية ودنيوية فى العاصمة وفى الأقاليم المحيطة بها مباشرة. لن يصل المرابطون والشيوخ من أقاليم أخرى أكثر بعدا قبل الأسبوع المقبل. وهكذا، فبالرغم من أن هذا حفل استقبال على شرف الحاكم العام لانتصاره فى منطقة القبائل فهو بمثابة تدريب على تقديمك للنخبة المسلمة. وبسبب هذا، ولأن المرابط فى العالم العربى شخصية تعلو مرتبته على أى شيخ أو حاكم دنيوى، فقد اقترح الكولونيل دنيو أنك ستكون أول ضيف يقدم للماريشال راندون.

وبالتالى ففى أعين العرب، سينظر إليك على أنك مرابطنا البارز، شخص ذو نفوذ عظيم».

والآن فى الساعة ٢٠ : ٧ تماما، وقفت إيميلين بجانب زوجها فى مواجهة المدخل المصفوف بالأعمدة والذى أمكنها عبره أن ترى الحاكم العام ومعاونيه يقتربون، وهم مجموعة من عشرة ضباط يلبسون زيهم العسكرى ويضعون أوسمتهم يتبعهم عدد من الياورين ثم خلفهم كبار الدبلوماسيين الفرنسيين يتقدمهم مسيو دو لا جارد. رأت إيميلين أن الحاكم العام، الماريشال راندون، كان رجلا قصيرا، نحيلا فى أواخر الخمسينيات من العمر يحمل روح إدارى أكثر منه ضابط يحمل أرفع الأوسمة.

أحست بانتباه أونرى بجانبها، أحست بتوتره وهو يهم بالاستعداد لاعتلاء المسرح لأداء دور يختلف عن أى دور لعبه من قبل. لكن فى هذه اللحظة رأت دنيو، يسير إلى اليسار قليلا من الماريشال، لكن وهو يحمل روح شخص لا يقل مكانة عن الحاكم العام نفسه. وفى هذه اللحظة رفع رأسه ونظر إليها مباشرة. ابتسم وانحنى انحناءة بسيطة واستمر فى النظر إليها حتى وصول حاشية الماريشال النقطة التى تقف فيها هى وأونرى. لم ينظر إليه، أو ينتبه لوجود زوجها وهى من جانبها كانت مأخوذة بتحديقه حتى أنها فى اللحظة التى قدمت إلى الحاكم العام نسيت تقريبا أن تنحنى مع ثنى الركبتين.

ومن جانبه، انحنى راندون اتجاهها ثم حيا زوجها على نحو مسرحى، وبنوع من التقديس. وتلقى لامبير، الممثل دائما، هذه التحية المزيفة بوقار مهيب، يليق بدوره كمرابط. واستمر الحاكم العام فى تحية

صف الاستقبال بعد ذلك، وتوقف للتحدث مع شيخ عجوز وثلاثة من المتدينين ذوى عمائم كبيرة الذين أشير إليهم فى وقت سابق على أنهم مرابطون يحظون بقداسة فى السهول الجزائرية. أخذت فرقة الموسيقى العسكرية فى عزف مارش انتصار بينما مشت حاشية الحاكم الهوينى فى دائرة كاملة حول الفناء ذى الأعمدة. عند هذه النقطة، تاه دنيو من مجال نظر إيميلين خلف أعمدة الماء المنبثقة من النافورة الرئيسية. وقفت نافدة الصبر بينما الياورين يأتون بمختلف الشيوخ لتبادل التحية مع زوجها، وبمجرد انتهاء عمليات التعريف، هرعت عبر الفناء متظاهرة بأنها تبحث عن شخص ما لكن فى حقيقة الأمر كانت متجهة مباشرة إلى النقطة التى وقف فيها دنيو يتحادث مع شخص يبعث على الاحترام، يرتدى صدرة مطرزة تطريزا رفيعا وطربوشا أحمر. فجأة أحست بالحرج ترددت وأوشكت على الانسحاب عندئذ أوقف دنيو محادثته وجاء إليها وأمسك يدها وقبلها قائلا: «يا مدام كم أنا سعيد لأنى أراك هنا فى إفريقيا! اسمحى لى بتقديم سليم أفندى، ممثل داي تركيا؟».

انحنى الرجل البدين ذو الطربوش الأحمر وتحدث بلغة لم تفهمها إيميلين وقال شيئا ما وضحك ضحكة قوية فى سره. ابتسم دنيو فى أدب ورد بنفس اللسان المجهول وعلى أثره انحنى الرجل الغريب لها وانصرف تاركا إياهما على انفراد.

– «ماذا قال؟» سألت إيميلين وهى تراقب بينما السيد التركى يمضى فى طريقه نحو المرطبات المقدمة بجانب النافورة الرئيسية.

قال دنيو «إن للأتراك حسا فكاهيا فجا، إن تعليقه بالرغم من أنه إطراء لك إلا أنه لا يليق أن تسمعه أذنا سيدة. لكنه على حق. تبدين جميلة هذه الليلة على نحو خاص. كيف كانت رحلتك بالبحر؟ شعرت

بجرح من أننى عجزت عن أن أحييك فى الميناء. أردت أن أكون أول وجه مألوف ترينه عند وصولك إلى إفريقيا».

– «أفتقدك». قالتها واحمرّ وجهها خجلا. «أقصد... أننى لم أدر إنك كنت غائبا تخوض حربا بعيدة».

قال «لا مزيد من الحروب، ليس على الأقل إلا إذا نحن الفرنسيين قررنا أن نحارب الحرب التالية. فى غضون ذلك، نحن نعوّل على زوجك فى حفظ السلام. على ذكر هذا ! تعالى معى وأنا أقدم احتراماتى للمرابط الكبير».

لكن وهو يقودها عبر الجمع الغريب المرتدى بالعباءات، مارين بزمرة من الشخصيات البارزة تحيط بالحاكم العام، قلّبت إيميلين عبارته فى ذهنها: «تبدين جميلة هذه الليلة على نحو خاص». أنا؟ حتى فى هذا الفستان؟ حتى وشعرى على حاله؟ أم قالها لأن هذا التركى السمين علّق تعليقا سوقيا؟

ولم قلت له إننى افتقدته، لماذا كنت على هذا القدر من عدم الكياسة؟ مرة أخرى كان هو رفيقى، كما كان الحال عندما مشينا فى القاعة الكبرى فى كومبيان ومرة أخرى أنا فخور بأننى معه. ينحنى له الناس ويعامل على أنه شخص على جانب كبير من الأهمية. إنه رئيس المكتب العربى.

والآن بعد أن وصلا إلى مجموعة من الدبلوماسيين والعرب تحيط بزوجها، لم ترغب فى أن تفقد دنيو كرفيق لها. توقفت. التفت إليها.

– «هل أنت بخير؟»

– «نعم، بالطبع. لكن أخبرنى بشىء. مدام دوفير تقول إنك تقضى نصف حياتك فى الصحراء. أهذا صحيح؟»

- «هل قالت هذا؟ كم هو غريب. لكنه صحيح من ناحية ما مبهمة، الصحراء هى المكان الذى أحس فيه بأنه موطنِى. إنها جميلة فى سكونها، وخوائها. آمل قريبا أن أريك ماذا أقصد بهذا. بعد الاحتفالات التى ستقام هنا فى الأسبوع المقبل سأسافر معك وزوجك فى الصحراء، الإقليم الذى يسمونه الجنوب. هذه هى الجزائر الحقيقية. آمل أن تعجبك».

قالت إيميلين:

- «أعرف أنها ستعجبنى. إننى هنا منذ أقل من يومين، لكنه حب من أول نظرة».

أخذ يدها وأمسك بها. قال:

- «لست مندهشا»، ثم نظر فوق كتفها.

- «آه! لقد رآنا. زوجك». أطلق يدها وتوجه نحو لامبير.

- «مسيو لامبير، مرحبا بك فى إفريقيا».

- «كولونيل! كيف سارت المعركة؟ نجاح كبير، كما سمعنا».

- «لم تكن معركة يا مسيو ما أبعدها عن ذلك. استعراض صغير للقوة، هذا كل ما فى الأمر. ربما كان أهم جزء فى حملتنا هو أننا عقدنا اجتماعا مع المرابط نأمل أن نكون قد أقنعناه بحضور عروضك الأسبوع المقبل. لكننا لسنا متأكدين. على أية حال، كما كنت أقول لزوجتك منذ لحظات إننا نخطط لأخذك فى جولة بعد الاحتفالات هنا. قد تقابله حينئذ. فى غضون ذلك، أود أن أدعوك ومدام لامبير لتناول الغداء غدا. لدى مسكن فى القصبة، فى قلب حى أهل البلد. قد تجدها مثيرة».

قال لامبير «شكرا، هذا لطف بالغ منك. لكن أخشى من أنه إذا كنت لأستعد جيدا لن يتوفر لدىّ وقت لمشاهدة معالم المدينة أو الحياة

الاجتماعية قبل بدء الاحتفالات. ومع هذا، فإننى متأكد من أن إيميلين ستتبتهج لرؤية الـــ – ما اسمها الذى ذكرت – القصبة».

– «وسيكون من دواعى ابتهاجى لأريها إياها. يا مدام؟ أيمكنك أن تكون جاهزة عند منتصف النهار؟ أحذرك من أن الشوارع ضيقة للغاية بالنسبة لمرور العربات. ومع هذا، يمكنك الانتقال على ظهر بغل. هل تعرفين ركوب الخيول؟»

– «نعم بالطبع».

***

عند الظهيرة، رفع المؤذنون أعلام الإيمان البيضاء من المآذن العالية فى جميع أنحاء المدينة لدعوة المؤمنين إلى الصلاة. هرعت إيميلين، التى قضت معظم الصباح فى إعداد نفسها لهذا الغداء، هرعت الآن من الشرفة يحدوها الأمل فى أن تخطف لمحة من صلوات المسلمين هذه. لكن وهى واقفة تبحث فى الأسقف المجاورة، جاءتها الخادمة المكلفة بحجرتها لتخبرها بأن هناك رسولا من الكولونيل دنيو ينتظر عند البوابة الرئيسية. لدى هبوطها عبر الفناء الرئيسى مارة بالحرس الزواوية، رأت زنجيا، طويلا إلى الدرجة التى تجعل منه تقريبا رجلا عملاقا يقف فى الشارع. لون بشرته رمادى ممتقع يعطيه منظر جثة. كان يلبس برنسا برتقاليا وطربوشا أحمر ويمسك بلجام بغل صغير زود بسرج. انحنى لدى رؤيتها وركع جاعلا من كفّيه ركابا رفعها به فى خفة لاعتلاء السرج. ثم أمسك باللجام وقاد البغل، ماشيا بجانبها خلال الشارع المظلم الضيق، الذى تعرّج صعودا وأسفله أقواس حجرية وشرفات بارزة مقفلة تماما فى وجه شمس الظهيرة. أفضى هذا الشارع، كأنه انحراف فى متاهة، إلى حارة

أخرى ضيقة ومظلمة ثم إلى أخرى، وأصبح الصعود مع تقدمهم أشد حدة، وأخذ البغل يتلمس طريقه فى حرص، يقوده العملاق الأسود، الذى صفعه على جنبيه بظاهر يده الضخمة، والتى كان لون راحتها أبيض مثل قفازات السيدات. فى هذه الحارات الضيقة، عندما كان المشاة العرب يأتون نحوهما، كان يضطرهم وجود البغل إلى اللواذ بمدخل منزل أو الميل يمنة ويسرة حتى يمرا. لكن بخلاف هؤلاء المارة بدت المدينة خالية من الناس. كانت واجهات المنازل موحدة فى انعدام الزخرفة بها وندرة نوافذها التى هى عبارة عن ثقوب صغيرة ذات قضبان متصالبة لم تسمح بأية رؤية للداخل. ومع هذا، فقد أصبحت أذن إيميلين مضبوطة على جلبة الأصوات وسمعت وراء الواجهات همس الأصوات النسائية وصرخات الأطفال وذات مرة صوت نهيق جحش متفطر حزنا.

فى نهاية المطاف، بعد نحو عشرين دقيقة من الصعود المتعثر، أحنى الزنجى رأسه تحت قوس منخفض وأشار إليها بأن تفعل مثله، قاد البغل عبر ردهة ضيقة ومنها إلى ميدان صغير تلفحه أشعة الشمس. فى مواجهة هذا، كان هناك مبنى لا يختلف عن الذين مروا بهم، تزينه مدخله الخشبى الثقيل سهام حديدية وحاجز من قضبان حديدية على شباك. فتح شخص هذا الباب عند اقترابهم منه ليسمح لهم بالدخول إلى قاعة داخلية تدعمها أعمدة رخامية بيضاء. ألقى العملاق الزنجى اللجام على رأس البغل، كوّر كفيه وركع. ووضعت إيميلين قدمها مرة أخرى فى هذه الركاب البشرية، وعندما ترجلت رأت عجوزا عربيا منبعث من القبر يلبس برنسا أشهب داكنا، قادما نحوها، حليق الرأس باستثناء خصلة رمادية تعلوه. انحنى مشيرا لها أن تتبعه إلى فناء ثانى أكبر وهو مبلط أيضا

بالرخام الأبيض تطوقه الأعمدة التى سمحت لضوء الشمس بالنفاذ من أعلى. وفى وسط هذه القاعة كان هناك بستان صغير من أشجار البرتقال ونافورة وموقد حديدى مشتعل عليه أوانى طهى فخارية ينبعث منها دخان وعنده زنجيتان تجلسان القرفصاء إحداهما عجوز وبدينة والأخرى طويلة شابة ممشوقة، وجهها قناع بيضاوى وسيم أدارته الآن لفترة اتجاه إيميلين. مر هذا الخادم العجوز بهاتين المرأتين ثم توجه إلى درج مزين برسوم لأوانى زاهية، يؤدى إلى عامود علوى يحيط القاعة بأكملها.

- «مرحبا، يا إيميلين. فى منزلى المغربى، هل يمكن لى أن أناديك باسمك الأول؟»

وقف دنيو على رأس الدرج لابسا عباءة عربية طويلة من أرفع أنواع الصوف الأبيض، كاحلاه عاريتان، قدماه داخل صندل جلدى أحمر، وفى حزامه المنمق والمطرز بالذهب خنجر صغير معقوف. ابتسم وأومأ إليها بالصعود. عندما وصلت إلى رأس الدرج قبّل يدها.

قالت «منزلك جميل».

- «إنى سعيد أنك أعجبت به. فى واقع الأمر، إنه مسكن جزائرى صميم. تعالى، دعينى أريك إياه».

قادها إلى حجرة مغطاة بسجاجيد فخمة، أثاثها يتمثل فقط فى آنية زهور ضخمة مليئة بماء الورد وصندوقين خشبيين محفورين ومطليين، شبيهين بالصندوقين الموجودين فى حجرات مقر الحاكم العام. لكن مع دخولهما إلى حجرة ثانية ثم ثالثة، رأت أنه خلافا للأثاث الموجود فى مقر الإقامة، كان لا يوجد هنا أسرة أو طاولات أو كراسى. وعندما قادها

إلى الحجرة الكبيرة المركزية، كانت الوسائد الحريرية تحتل جدارا بكامله بلا حدود وأمامهم صينيتان طويلتان مطليتان مليئتان بالحلوى والفاكهة ودورق بللورى وأكواب زجاجية. جلس دنيو على الوسائد واضعاً ساقا على ساق ودعاها للانضمام إليه. صب نبيذا من الدورق قائلا :

– «الكحول بالطبع غير مسموح به فى منزل مغربي. لكن نحن لسنا مسلمين، شكرا للرب». أعطاها كوبا زجاجيا. «أتذكرين كومبيان؟ نخب برودر شافت الخاص بنا؟

– هلا فعلنا ذلك؟

لم ترغب فى أن تفعل ذلك، لكنها لم تدر ماذا تقول، وهكذا اعتبر سكوتها رضا، تحرك نحوها فوق الوسائد ورفع كوبه عاليا ثم شبك ذراعه داخل ذراعها، فقرّب بينهما، وجههما على بعد بوصات بينما تلامس كوبهما أثناء النخب. قال «لصداقتنا».

من طقوس هذا النخب أنهما لا بد أن يشربا فى نفس اللحظة، وبينما هى تشرب سقطت خصلة من شعرها إلى الأمام، فلامست حاجبه. تلاقت عيناهما. أنزل كوبه.

– «هل سببت لك حرجا؟ إنى آسف».

– «كلا، كلا. كانت... «ترددت محاولة التفكير فى عبارة مهذبة.

– «عدم كياسة؟»

– «كلا، كلا إطلاقا».

– «بل كانت كذلك. أعتذر. سامحينى».

قالت مرة أخرى:

– «كلا، كلا». وقد شعرت بالحرج التام عندئذ. «كومبيان، نعم. نزهتنا. أتذكر».

هب واقفا.

- «كانت بعد ظهيرة رائعة، ألم تكن كذلك؟ لا يمكن أن أنساه». بسط يده وأوقفها. «الآن، دعينى أريك المنظر من السطح».

ساورها إحساس وهى تضع كوبها أرضا أنها مراقبة. التفتت وأبصرت فى المدخل صبيا عربيا وسيما فاتح البشرة، وجهه ثابت كصورة فوتوغرافية. وقف مستندا على عارضة الباب وجسمه النحيل الرشيق ملتحف بعباءة حريرية وردية باهتة. حدقت عيناه فى داخل الحجرة وكأنها ترى شيئا أبعد منها. تحدث معه دنيو بالعربية. انحنى الصبى وانصرف.

- «إن هذا هو سى عبد السلام، واحد من خدمى سيعزف لنا أثناء الغداء. صبى غريب لكن كما سترين إن لموسيقاه سحر».

كان السطح الذى قادها دنيو الآن إليه تحميه من شمس الظهيرة مجموعة بواك حجرية تدور حول حاجز. أشار إلى كتلة غير منتظمة من المبانى البيضاء على قمة جانب التل.

- «هذه هى القلعة. كانت مقر أمراء الجزائر العاصمة. إذا نظرت إلى الفجوات فى الجدران، سترين أين كانت مدافعهم الهائلة التى كانت يوما ما تهيمن على المدينة. كانت القلعة هى مقر الحكم بالنسبة إلى الداي، الحاكم التركي. هناك إلى اليسار، كانت توجد حجراته الخاصة حيث عاش مع زوجاته. ثم ذات صباح، منذ أربعين سنة تقريبا، نظر من أعلى القلعة إلى أسفل فوجد أسطولنا يقترب من هذه الشطآن. وكانت هذه هى نهاية الحكم التركى».

- «والآن فيم تستخدم؟»

– «تستخدم كثكنات ومخازن. كل كنوزها اختفت، الأثاث نهبته قواتنا. شحنت المدافع إلى فرنسا كتذكارات على النصر. قيل لى إنها تعرض فى متحف الإنفاليد».

سار إلى حافة حاجز السطح ووقف لينظر إلى أسفل وكأنه بمفرده. وبعد لحظة من الصمت، التفت إليها.

– «ها أنت فى الجزائر العاصمة. آمل أن أكون بإتيانى بزوجك إلى هنا قد فعلت الشىء الصحيح».

قالت «لا أفهم. تريد أن توقفهم من شن حرب ضد فرنسا، ألا ترغب فى ذلك؟ إذا استطاع زوجى أن يساعدك، إذن، بالطبع هذا شىء صحيح».

– «إن الأمر أكثر تعقيدا من هذا. تذكرى، عندما كنا فى كومبيان، كيف تحدث الإمبراطور عن مهمة فرنسا فى جعل هذه الشعوب متحضرة وتحسن من معيشتها. لكن الحقيقة هى أنه فى العام المقبل سنكمل فتحنا لهذه الأرض. وعندئذ سنفتح طرقا جديدة للتجارة للوصول إلى بقية دول إفريقيا. نحن الذين سنستفيد وليس العرب. وأسأل نفسى: ما الذى سيحدث لأسلوب معيشتهم؟»

قالت «يوجد شىء ما فى هذا المكان، شىء لا أرغب فى تغييره».

ابتسم ومال مستندا على الحاجز، لمس يدها فى خفة.

– «إذا أتيت إلى هنا اليوم مع زوجك ما كنت لأرتدى اللباس العربى. لم يكن ليفهم. لكنك مختلفة. يمكن أن تقعى فى حب إفريقيا مثلما حدث معى. لا تخطئى فهمى. إنى أحب وطنى. سأقاتل من أجل فرنسا مثلما قاتلت من أجلها فى الماضى. ومع هذا، فإن إفريقيا غيّرتنى. كما أشك فى أنها ستغيرك».

- «لكنى هنا فى زيارة قصيرة فقط. خلال شهر أو اثنين سأعود إلى منزلى فى تور».

قال «إننى أحسد العرب. لديهم كلمة مكتوبة. ستسمعينها على شفاههم مرات ومرات. وتعنى، إنه كتب من قبل. إنهم يعتقدون أن كل شىء مقدر سلفا وأن مصير كل منا يمثل إرادة الرب. ربما كان مكتوبا أن تأتى إلى الجزائر. ربما كان مكتوبا إنها ستغيّرك».

قدم لها ذراعه. «تعالى، دعينا ندخل. غداؤنا سيكون معدا».

قادها ثانية إلى الحجرة المركزية وجلس بجانبها على الوسائد. فى مكان ما داخل الشقة رن جرس، وعبر المدخل ظهر الخادم الأسود العملاق، مثقل بحمل نوع من عدة لجام الخيول من جلد محاولا المحافظة على توازن البرطمانات والقدور الموضوعة عليها. وضع العملاق هذه الأشياء على الصينيتين المطليتين أمام إيميلين ثم انحنى وانصرف.

همست إيميلين:

- «من هو؟ أنا لم أر رجلا بهذا الطول».

قال لها دنيو «إنه سنغالى. نحن نناديه باسم قدّور، لكنى اشتريته عبدا، لذا لا أعرف اسمه الحقيقى».

- «عبدا؟»

- «نعم، الكثير من الزنوج هنا يجلبون من إفريقيا الجنوبية كعبيد. إنه مخلص جدا. روح طيبة».

- «لكنه عبدك؟»

أومأ دنيو وأمسك بالقدور على الصينية. «اليوم أعد لى خدمى أكلة عربية. أحسب أنها قد تثير اهتمامك فى أن تقدم بطريقة تقليدية. هذه

ليست سوى – تسلية الحنك. – هذه الفطائر الصغيرة الدافئة هى أقراص تشبه الكريب[1] محشوة بالزبد. هذه تمور من الواحات الجنوبية. هذا لبن الماعز، بالرغم من أنى أظن أننا سنفضل شرب النبيذ. ستحضر الطاهيتان الطبق الرئيسى فى أية لحظة الآن».

أكلت واحدة من الأقراص وقضمت تمرة حلوة، لكن ذهنها كان مشغولا، مملوءاً بالأشياء التى ضمّنها وقالها فى حديثه منذ لحظات الآن تردد صداها فى رتابة مع كلمة واحدة: عبد. وبينما هى تضع التمرة التى أكلت نصفها رن جرس مرة أخرى ودخلت المرأتان اللتان رأتهما فى الفناء، تحملان أوانى فخارية ضخمة وضعاها أمام دنيو. ثم وقفتا تنتظران، وقد أحنتا رأسيهما وأيديهما مضمومتان، كأنهما فى صلاة. رفعت إيميلين رأسها، أولا للمرأة العجوز ثم للأخرى الطويلة الشابة والمشوقة، عيناها الآن مطرقة فى خنوع. هل هى الأخرى، أمته؟

بإشارة من دنيو، بدأت الطاهية الكبيرة فى غرف الطعام من القدور. «هذا هو الكسكسى، وهو نوع من البيلاف[2]، وهو الطبق الأساسى فى أى حفل عربى. واليوم نسائى صنعوه على شاكلتين، إحداهما بالضأن والأخرى حلو مطهو بالسكر والتوابل». أومأ إلى الفتاة الصغيرة التى كانت راكعة أمام إيميلين، فغرفت من النوع الثانى من الكسكسى. قامت المرأتان بهزّة أخيرة من رأسه وانصرفتا.

– «إماء؟» نظرت إيميلين إليه وهى تخشى سماع رده. لكنه ضحك وهز رأسه.

(١) الكريب: قرص من العجين المصنوع من الدقيق ويحشا مثل القطائف.
(٢) البيلاف: طبق شرقى معد من الأرز واللحم والتوابل.

– «كلا، إنهما الطاهيتان اللتان اعتز بهما وهما من بين الأفضل فى المدينة حسبما يقال لى».

– «هل تعيشان هنا؟»

– «نعم إنهما خادمتان فى المنزل».

– «الفتاة الصغيرة جميلة».

– «إنها كذلك، أليس كذلك؟ إن السيدة الكبيرة هى عمتها. إنهما مثل قدّور، متفانيتان فى خدمتى. إننى ذو حظ عظيم». ناولها طبقا. «العربى يأكل بأصابعه. ويستخدمون فقط يمناهم».

أكلت ملء فيها ولكن لاحقا عجزت عن تحديد المذاق. وفى هذه اللحظة سمعت خلفها موسيقى عالية وحادة والتفتت ورأت الصبى العربى يجلس واضعا ساقا على ساق فى آخر الحجرة، يعزف على الناى، كانت الموسيقى رتيبة وغريبة لكن ذات نغم إيقاعى. كان الصبى وهو يعزف يحدّق فى الناى كأنه يجلس وحده فى الحجرة لكن حينما وضع آلته بدأ يغنى بطبقة السوبرانو، نظر أولا إلى دنيو ثم إلى إيميلين تغيّرت نظرته من تحديق المصدوم عندما أراد أن يسدد نظره إلى سيده، وإلى نظرة التهكم والكراهية عندما غنى لها كمستمعة.

كان دنيو يأكل ويستمع ويستلقى على الوسائد ومن وقت إلى آخر يلتفت إلى إيميلين ويبتسم، كأنه يدعوها لتشاركه فى الاستمتاع بالغناء.

أنهى الصبى غناءه، وأمسك بالناى ثم انحنى لسيده فى رشاقة كفتاة فى عباءته الحريرية الباهتة وانصرف.

– «أغنية تلازم ذهن المرء، ألا تظنين ذلك؟ إنها رثاء تقليدى». صبّ دنيو نبيذا من الدورق. لم تلتقط كوبها.

- «ما الذى يفعله هذا الصبى؟ هل هو خادم بالمنزل؟»

رأت دنيو مترددا.

- «نعم، إنه يمسك دفاترى، ويحاسب التجار ويشرف على الخدم الآخرين. إننى أغيب لفترات طويلة. أحتاج إلى شخص يعتمد عليه لمتابعة الأشياء».

- «لقد نظر إلىّ وكأنه يكرهنى».

- «هل فعل ذلك حقا؟ «ضحك دنيو. «تجاهليه. لا يحب الصبية الذين هم على شاكلة النساء».

الصبية الذين هم على شاكلته. كان لأونرى مساعد من هذا النوع. كانت تعلم بوجودهم. لكن أن يحتفظ دنيو بواحد من هؤلاء فى منزله... كان هناك شىء ما... نظرت إلى دنيو الآن وهو مستلق على الوسائد يأكل طعاما عربيا بأصابعه فى رقة، نظرت إلى العباءة البيضاء الرائعة التى غطّت جسده، وإلى الخنجر المعقوف المثبت فى حزامه المنمق، وإلى قدميه العاريتين فى الصندل الأحمر، وإلى وجهه الذى لوّحته الشمس، هذا الرجل أعطى إشارات قد تؤدى إلى علاقة غرامية لكنه فى الوقت نفسه علم أن نخب برودور شافت كان خطأ وقرر ألا يسبب المزيد من الإحراج لها أثناء الغداء. عادت المرأتان إلى الحجرة بينما اندفعت هذه الأفكار لتدور فى رأسها، والآن وهما تملآن طبق الكسكسى، نظرت إلى الصغرى، رأسها مطرق، خانعة كأمة. لست جميلة. هى الجميلة. وددت لو لم آت.

انصرفت المرأتان. دخل قدّور الحجرة حاملا إناءين صغيرين بهما ماء ومنشفتين. انتهت الوجبة، وبينما هى تجفف يديها بالمنشفة رأت إيميلين دنيو يراقبها وكأنه عرف أفكارها.

قال:

– «فى العاصمة بعد الغداء تنام المدينة. عادة متحضرة جدا. لا أستطيع أن أقدم لك سريرا لائقا. وسائد نعم. لكنك ربما تفضلين أن يعيدك قدّور إلى محل إقامتك؟».

قالت «نعم، ربما سيكون هذا أفضل شىء».

الفصل السابع

كان دنيو، وليس زوجها، هو الذى أخذها ليريها المسرح فى شارع بات - آزون. حملقت فى الواجهة الأنيقة.

- «كدت أصدق أنى فى باريس».

- قال «أنت على حق. إنه نسخة من مسرح فاريتيه. ومع هذا، فكما سترين، توجد اختلافات. نتيجة للطقس الحار، جرى توسيع الدرج والممرات والمقاصير عن تلك الموجودة فى فرنسا. وعادة ما تقدم فرق الأوبرا والمسرح القادمة من مرسيليا أو نيس. ألغينا فى الأسبوع الماضى، العروض الجارية، ونحن ندفع لفرقة الأوبرا لتظل متعطلة أثناء الفترة التى يحتاجها زوجك للتدريبات والعرض. مدير الفرقة ليس سعيدا بالمرة. لكن، بالطبع، أخبرك زوجك بكل هذا؟».

- «أخشى أن أقول إننى بالكاد أراه منذ أن بدأ يتدرب. وهو نادرا ما يتحدث بشأن عمله».

– «لكن أسراره، إيهاماته لا بد أنك واحدة من الأشخاص القليلين جدا الذين يعرفونها؟».

– «أنا لا أعرفها. هو يعتقد أن مثل هذه الأشياء يجب على الساحر ألا يتحدث بشأنها».

– «ولا حتى مع زوجته؟»

– «ولا حتى مع زوجته».

عندما دخلا المسرح، رأت إيميلين أن جول يقف على خشبة المسرح يساعد أونرى، وفى الخلفية وضع قرن الخصب، والزجاجة التى لا تنفد، والعلبة الزجاجية التى يستخدمها فى تحويل عملات من فئة خمسة فرنكات.

فى الطرف الأخر من المسرح، وضع الصندوق الصغير ذو المفاصل النحاسية التى استخدمها فى عروضه فى إسبانيا وروسيا. عرفت على الفور أنه سيستخدمه فى أواخر العرض ليخيف ويبهر العرب، وقرن الخصب والزجاجة والعلبة الزجاجية هى الحركات الافتتاحية التى ستحيرهم وتبهجهم. شاهدت الآن دنيو يقفز الدرج فى يسر معتليا خشبة المسرح حيث ستجلس غالبية الحضور.

«سيجلس الزعماء العرب، بخاصة الآتون من المناطق الصحراوية، الذين لم يجلسوا قط فى مبنى كهذا، وليس من عاداتهم أن يجلسوا على كراسى مثلما نفعل. لا بد أن تَضع ذلك فى اعتبارك وأنت تقدم عرضك. ربما سيكون هناك نوع من التمَلمل وعدم الانتباه».

سأل لامبير «والحاكم العام، أين سيجلس؟»

– «سيشغل الماريشال راندون وأسرته وحاشيته هاتين المقصورتين على يمين المسرح بينما سيجلس مسئول العاصمة ومسئولون مدنيون

آخرون فى الجهة المقابلة تماما. سيمنح الشيوخ والقادة والأغوات والباش أغوات وزعامات العرب الأخرى أماكن جلوس تكون موضع تكريم. سيجلسون فى البلكون الأعلى».

– «والمرابطون؟».

«نحن نتوقع حضور أربعة منهم، سنجلسهم فى المقاعد الأمامية خلف الأوركسترا مباشرة فى مواجهة المسرح، بحيث يتسنى لهم أقرب موقع لمشاهدة عرضك. لكن يتعين علىّ أن أحذرك، نحن نشكّ فى هذه اللحظة من أن بوعزيز سيسافر إلى العاصمة. ستضطر إلى أن تؤدى عرضك فى تاريخ لاحق، من المرجح فى مكان ما فى الجنوب».

– يجب علينا ألا نستخدم كلمة «نستعرض».

– «بالطبع. أنت محق تماما».

التفت دنيو إلى إيميلين:

– «لقد جئت ومعى مدام لامبير لأريها المسرح. أتسمحان لى ربما أن أدعوكما لتناول غداء خفيف فى كافيه أليبو؟»

رأت أونرى ينظر إليها فى الأسفل، ويبتسم ابتسامة المذنب التى تعتريه عندما يكون على وشك رفض شىء ما. «هاللو، يا محبوبتى. ما رأيك فى المسرح؟»

قالت فى تردد «إنه أنيق جدا».

قال لها دنيو «بالمناسبة، ستحظين بموقع رائع للمشاهدة. ستجلسين فى مقصورة الحاكم العام». التفت إلى لامبير. «وبالنسبة إلى غدائنا، يا أونرى؟ ما رأيك؟»

قال لامبير «إنى آسف. لا بد أن أواصل العمل. ومع هذا فإيميلين قد تستمتع به».

فجأة قررت ألا تسمح لدنيو بالتلاعب بها بهذه السهولة. «أظن أننى فى هذه الحالة سأبقى هنا مع أونرى. يمكننا أن نطلب بعض الطعام ليأتينا هنا». نظرت إلى دنيو «هل هذا يناسبك، يا كولونيل؟»

– «بالطبع يا مدام. بالرغم من أننى سأفتقد صحبتكم». لمس قبعته العسكرية بأصابعه، متظاهرا بأداء التحية العسكرية. «حسنا حتى الأحد إذن».

– «الأحد؟»

– «ألم يخبرك أونرى؟ طلب الحاكم العام من كليكما مرافقته وجماعته فى الذهاب لحضور صلاة يوم الأحد فى الكاتدرائية. سيكون قداسا كامل الطقوس، احتفالا بانتصارنا الأخير فى الجنوب».

***

كان فرانسوا دو شاتيل، كبير الأساقفة، بديناً جدا وذو قامة عالية، يرتدى عباءته الإبيسكوبالية البيضاء، ينتظر تحت مظلة يحملها شمّاس على درجات الكاتدرائية الواقعة فى مدخل شارع ديوان.

ومع صوت الأبواق العسكرية التى أعلنت دخول جماعة الحاكم العام، انتبه الضباط الفرنسيون الواقفون فى صفين متقابلين خلف كبير الأساقفة وامتشقوا سيوفهم ليكّونوا بها قوسا احتفاليا. هبطت إيميلين من العربة التى كانت تقلها مع الحاشية الرسمية، ووقفت بجانب زوجها منتظرة، بينما قبّل الحاكم العام الخاتم الإبيسكوبالى واقتيد للداخل مصحوبا بافتتاحية أوبرا لأوبير[1]، تعزفها فرقة موسيقى عسكرية

(١) دانيال أوبير (١٧٨٢ – ١٨٧١) مؤلف موسيقى فرنسى حقق نجاحا هائلا بأوبرا «حمقاء بورتيسى» التى اكتسبت افتتاحيتها شهرة فائقة فى أنحاء أوروبا. أصبح أوبير مديرا للكونسرفتوار وأنعم عليه نابليون الثالث بوسام الجوقة الفرنسية من طبقة فارس ثم جعله مديرا للكورال فى عام ١٨٥٧.

وضعت فى ممر جانبى من الكنيسة. وقف مجموع المصلين، الذين ظلوا يخففون من قيظ الظهيرة بهزّ مراوحهم، ويشملون ممثلى السلك الدبلوماسى ومسئول العاصمة ومرؤسيه وكبار التجار من الفرنسيين والألمان والسوريين وضباط الجيش الفرنسى وراهبات الأديرة وقساوسة الكليات الكاثوليكية التابعة للأسقفية فى انتظار بدء القداس. فى هذا المسجد السابق، استندت قبته الصغيرة على أعمدة بلغ ارتفاعها خمسين قدما وتسرب الضوء إليه من خلال نوافذ الزجاج الملونة. كان المذبح يقع فى الجانب الشمالى، تزينه لوحة للسيدة العذراء قدمها البابا هدية إلى الكاتدرائية. ومع هذا، فوق هذه اللوحة تشابكت فى نحت بارز آيات قرآنية لم يجر محوها بعد بالرغم من أنها أعلنت باللغة العربية أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله. أما ما كان أغرب من هذا التجاور هو القداس نفسه. فبعد توجه القساوسة والشمامسة نحو المذبح استمرت الموسيقى العسكرية المرحة. وقفت صفوف من الجنود بكامل الزى العسكرى أمام هذا المعبد وبعدما بدأ القداس ودق جرس القربان للإعلان عن معجزة تحول الدم واللحم إلى نبيذ وخبز، دوى صوت عشرين طبلة تحت القبة الصغيرة. وبأمر من قائدهم، رفعوا بنادقهم الطويلة لتأدية التحية، وفى نفس الوقت جثوا على ركبهم اليمنى وأحنوا رؤوسهم ناحية الأرض. استمر دوى دق الطبول حتى إنتهاء القس من صلاته.

لاحظت إيميلين على الفور أن جموع المصلين كانوا غير منتبهين: حفنة صلّت والبعض استمع إلى الموسيقى بينما تجول الكثير من الرجال محملقين فى فضول فى البنات اللائى انحنين فى إخلاص متصنع، ورؤوسهن ووجوههن يسترها حجاب على الطريقة الإسبانية.

عندما انتهى القداس نهض كبير الأساقفة دو شاتيل من كرسيه الإبيسكوبالى الموضوع على الجانب الأيمن من المذبح وسار نحو بوابة حاجز تناول القربان المقدس. وفى التو، انتبه جموع المصلين على نحو لم يظهر أثناء الطقس الدينى. خطا حامل اللواء بالخطوة العسكرية فى الممر الأوسط وقدّمه راكعا إلى كبير الأساقفة لتلقى البركة. رش كبير الأساقفة الماء المقدس على اللواء؛ غمغم بصلاة لاتينية غير مسموعة وتقبّل اللواء ورفعه عاليا ليراه جموع المصلين، ثم سلّمه لكولونيل من الزواوية الذى خطا بالخطوة العسكرية لمذبح جانبى ونصبه فى موضع تكريم بجانب أعلام عسكرية أخرى صارت الآن باهتة. دوّت الطبول؛ وعزفت فرقة الموسيقى العسكرية النشيد الوطنى ورفع ألف شخص عقيرتهم بالإنشاد فى كورس وطنى. والآن فى مسجد المسلمين هذا الذى حول إلى مكان عبادة مسيحى، انتقلت إيميلين إلى قداس الأحد الذى أقيم على عجل فى كنيسة الإمبراطور فى كومبيان. هنا فى الجزائر العاصمة، فى موقع متقدم ناء فى إحدى المستعمرات التابعة للويس نابليون، مرة أخرى، لم يكن الطقس الدينى سوى أمر شكلى. اليوم الإخلاص الحق مقصور على العلم، رمز الانتصار الأخير، العلم المبسوط ليس فعلا نابعا من التقوى المسيحية، لكن إشارة على الانتصار على جنس مهزوم فى مكان عبادتهم. تفرست فى وجوه المسئولين الرسميين حتى عثرت على دنيو الذى وقف مع أكبر الضباط قاطبة يده اليسرى على سيفه الاستعراضى، عيناه على اللواء الجديد المرفوع، صوته ينشد مقاطع النشيد الوطنى. هل هذا هو نفس الرجل الذى كان يستلقى منذ يومين على وسائد حريرية وهو يرتدى عباءة عربية ويقول لها إن إفريقيا

غيّرته؟ نعم، هو. تذكرت ما قاله لها: «سأقاتل من أجل فرنسا مثلما قاتلت من أجلها فى الماضى».إنه لم يكن هنا لمساعدة العرب على الحفاظ على أسلوب معيشتهم. إنه هنا لتدميره. حدّقت فيه الآن، تشدها نظراته، سلوكه، سحره، وهى تعرف أنها شبه واقعة فى شباك توقع مضمر بعلاقة غرامية، وكانت فى الوقت نفسه مملوءة بإحساس مزعج من أنه بإتيانه بها إلى كومبيان والآن إلى الجزائر العاصمة تركها شريدة يحركها التيار كيف يشاء.

فى الأيام القليلة التالية، بدأت العاصمة ونواحيها يتدفق عليها حتى الامتلاء الآلاف من رجال القبائل العرب ومعهم خيولهم وجمالهم وأغنامهم وعنزاتهم وأوانى الطهى وعائلاتهم والأطفال والنساء من متتبعى المخيمات، نصبوا مجموعات مكتظة من الخيام والأكواخ على سهل الداي حسين خارج المدينة مباشرة. فى هذه المساحة الشاسعة المطلة على البحر والواقعة تحت ظلال تل مصطفى، انضمت إلى حلبة الخيول فى المدينة، حيث نظّم وترأس الحاكم العام احتفالا ودعا إليه زعماء العرب والقبائل للمشاركة فى استعراض لمهارات ركوب الخيل يعقبه سباق للخيول يستمر لمدة ثلاثة أيام.

رتبت مدام دوفير، التى نصبت من نفسها ناصحة لإيميلين فى المسائل الاجتماعية، رتبت الآن الأمر على أن ترافق إيميلين الموكب الرسمى الذاهب إلى الحلبة ليوم افتتاح الاحتفالات. جلست إيميلين فى تلك الأمسية أثناء حفل عشاء فى مقر الحاكم العام صامتة متظاهرة أنها تستمع إلى حديث جيرانها ولكنها فى واقع الأمر تائهة فى المشاهد التى رأتها منذ قليل: أربعمائة فارس عربى يحومون ويركضون حول الحلبة

وهم يصدرون صيحات غريبة وكأنهم فى ميدان معركة ويطلقون نيران بنادقهم الطويلة ويلفون سيوفهم فى استعراض برى وجرىء لمهاراتهم كمحاربين. وكل هذا لصالح راندون، ماريشال فرنسا العائد لتوه من انتصاراته فى حملة القرم الدموية، الذى جلس يحيط به هيئة أركانه يبتسم فى رضا مزيف عن هذا الاستعراض المتهور للجسارة ثم ينهض من مقعده وفى منصة الاستعراض ليحيى متوحشى الصحراء هؤلاء الذين سيخضع زعماؤهم قريبا إلى نير حكم فرنسا. ولكن الآن الكل فى جو احتفالى؛ تسيطر روح إجازة على العاصمة. فى تلك الأمسية انسلّت إيميلين من مقر الإقامة لتتجول فى الشوارع والميادين التى ازدحمت حديثا، تمر بالأكشاك الفواحة برائحة القهوة المغلية والكعك المخبوز بالسمن، تستمع إلى الرنة الشرقية لأوتار الجيتار والموسيقى الخفيضة أحادية النغمة للنايات، ودق الطبول المفلطحة الغريبة، تشق طريقها عبر حشود من الحواة والموسيقيين والشحاذين والباعة الجائلين وتخطو عبر حلقات المقامرين المقوسين ظهورهم فى دوائر مصممين على المراهنة. وبعدئذ، غربت الشمس على القلعة وانفضت الأكشاك وتوقفت الموسيقى. ورحل الباعة والموسيقيون إلى خارج المدينة ممتطين البغال والجمال والخيول ليعسكروا فى ركام الخيام الهائل أسفل الحلبة، تاركين صمتا ليليا عميقا يهيمن على المدينة ذاتها.

فى مقر الإقامة، فتح حارس من الزواوية البوابات لإدخالها. كانت الردهات الرخامية الباردة للفناء الرئيسى الكبير هادئة كمدفن عند الغسق. عندما دخلت إلى حجرتهما، رأت زوجها نائما على سرير النهار[1] موضوع فى زاوية مجوّفة داخل حائط الحجرة. كان يرتدى

(١) سرير النهار: سرير ضيق يحول فى النهار إلى أريكة.

قميصا أبيض طويلا للنوم وكما يفعل دائما قبل الاستعراض، غسل شعره ولفّه ووضع عليه شبكة. كان مستلقيا على ظهره، ذراعاه متقاطعتان على صدره كأنما يحمى نفسه من ضربة. اقتربت منه ووقفت تنظر إليه أسفلها، حيث ملأتها فجأة شفقة على هذا الرجل الذى اكتسب رزقه من الوقوف على المسرح، يبتسم للغرباء، آملا فى أن يفلح فى خداعهم. نظرت إلى يديه، بيضاء، مرنة، رشيقة، مدربة على أن تخفى وتظهر، تشتت وتبهر ؛ إلى فمه الحاذق فى رطانة الحواة بأكاذيبها؛ إلى عينيه، المغمضة الآن، عينان مدربة على اصطياد ذلك الشخص الجالس بين جمهور المشاهدين الذى يصلح أن يستخدم كنظير برىء. كان هذا الرجل الراقد مثل جثة تحت كفنه الليلى، نسفت وقاره شبكة الشعر المتواضعة التى طوّقت حاجبه، كان فى وقت واحد أشهر ساحر فى أوروبا قاطبة وزوجها، وكما قال والدها، دجّال. وسيحاول فى الغد أن يغيّر مسار التاريخ عبر سلسلة من خدع سحرية.

لكن فى تلك اللحظة، لحظة النظر إليه أسفلها، تحولت شفقتها إلى الإحساس بالعار، لأنه كان أيضا الرجل الذى أحبها بقدر ما يستطيع من حب، أحبها بالرغم من إخفاقها فى أن تمنحه الابن الذى أراده، أحبها بالرغم من أنه لا بد أنه يعرف أنها لا تحبه.

تساقط الدمع. انحنت لتقبله فى شفتيه. استيقظ:

– «ما الخطب يا محبوبتى؟ لماذا تبكين؟ «هزّت رأسها، عاجزة عن الرد.

– «هل رجعت إلى المنزل الآن؟ كيف كانت الاحتفالات؟ سمعت ضجيجا كبيرا فى الشوارع».

– قالت «نعم، كانت هناك احتفالات عظيمة الليلة».

– مدّت يدها ووضعتها على خده. «عد للنوم ثانية. الغد هو لحظتك. لا بد أن تكون مستعدا لها».

– «أنا كذلك بالفعل. ستفخرين بى».

***

وقف الحرس الفرنسيون وقفة انتباه على مدخل المسرح عند وصول أول فرق عسكرية عربية إلى شارع بات أورزون. دخل المرابطون فى النهاية قبل لحظات من ظهور الحاكم العام ومرافقيه فى المقاصير الواقعة أعلى خشبة المسرح. أثناء الفترة السابقة على رفع الستار، أخذ العرب يغيّرون من جلستهم فى انزعاج على المقاعد التى لم يعتادوها، حاول البعض ثنى رجليه أسفلهم مثلما يفعلون فى خيامهم. وفى ظل بلوغ الحرارة ثلاثين درجة مئوية، طفق الأوروبيون يستخدمون برنامج الحفل المطبوع كمراوح على نحو مشتت، بينما اختلست السيدات النظر إلى مرآتهن الصغيرة للتأكد من أن كحل أعينهن لم يذب على وجوههن.

فجأة، ظهر الكولونيل دنيو أمام أضواء خشبة المسرح وانحنى أولا لمرافقى الماريشال راندون ثم للمرابطين والشيوخ.

– «نحن نرحب بكم». قالها بالفرنسية، وتوقف بين الجمل بحيث يتمكن المترجمون الموجودون بين الجمهور من الترجمة.

– «كجزء من الاحتفالات والأفراح التى يقدمها الحاكم العام، أتى إليكم هنا من فرنسا بساحر مسيحى عظيم ليسعدكم ويذهلكم ولكن أيضا ليظهر لكم الحقيقة. الحقيقة هى أن بعض مرابطيكم زعموا بأنهم لا يخترق أجسادهم الرصاص، ولا يتسرب لهم إحساس بالألم، ويشفون

العليل، ويعالجون عقم النساء. وبسبب هذه المزاعم فإنهم يجعلونكم تعتقدون بأنهم، وهم وحدهم، يمتلكون قدرات خارقة ويمكنهم التنبؤ بالمستقبل، بمستقبل يعدكم بالنصر فى حرب مقدسة. لكنكم هذه الليلة ستشهدون قدرات أعظم مما رأيتم، قدرات قد تجعلكم تتوقفون لتتفكروا. دعونا نرحب بمرابط فرنسا العظيم... أونرى لامبير».

هبط دنيو من على خشبة المسرح. رفع الستار. رأت إيميلين من مقصورة الحاكم العام أولا مسرحاً خالياً سوى من طاولة فى المؤخرة تحتوى على الصندوق الثقيل، قرن الخصب، القبعة الطويلة، طاس كبيرة. ثم فى صمت الانتباه التام للمشاهدين، خرج لامبير من الكواليس.كان يحمل عصاه القصيرة ذات الطرفين العاجيين ويلبس سترة من الحرير الأسود الخفيف، وصدرة من الكتان الأبيض وبنطلونا رماديا مقلّما. رفع رأسه عاليا، نظر إلى فوق حيث الشرفة الأولى التى تعلو صالة المسرح مباشرة ثم انحنى قليلا، فى إشارة إلى أنه يوشك أن يبدأ. وعندئذ، ظهر جول على المسرح، يلبس صدرة مخططة باللونين الأصفر والأسود التى يلبسها الخدم الفرنسيون. اتجه جول نحو الطاولة فى المؤخرة وأخذ القبعة الطويلة وأعطاها إلى لامبير. نقر لامبير عليها ليوضح أنها فارغة، عارضا ما بداخلها للمشاهدين. ولمسها بعد ذلك بعصاه وأدخل يده فأخرج ثلاث كرات مدفعية على التوالى، والتى ألقاها على أرضية المسرح فأحدثت صوتا. حدث تصلب مفاجىء بين مشاهديه. لم يعد العرب يغيّرون من جلستهم ويتململون فى مقاعدهم لكن حدّقوا دون أن ترتد إليهم أطرافهم على المسرح.

مرة أخرى نقر لامبير القبعة وهذه المرة أخرج منها صحبة ورود. لاحظت إيميلين، التى كانت تراقب المرابطين الأربعة فى الصف الأول،

يحـركـون مسـابحـهم بأصـابعـهم ويتبـادلون نظرات جـانبـية. لم يحـدث تصفيق. أشـار لامبير، الذى سار فى اتجاه أضواء خشبة المسرح، إلى جول الذى تقدم إلى الأمام وسلّمه قرن الخصب المصنوع من الورق، البالغ طوله ثلاثة أقدام ومزود بمفصلة تمكن لامبير من فتحه لإظهار خلوه من أى شىء. فعل هذا ثم أغلقه وابتسم الآن وهو يقلّبه رأسا على عقب، فأسقط وابلا من مراوح السيدات وصحبات ورد صغيرة، وبونبون، والتى وضعها جميعا جول على صينية وقدّمها إلى سيدات بين الجمهور. وعندئذ سمع للمرة الأولى تصفيقاً فاتراً، لكن إيميلين لاحظت أنه لم يصدر عن المشاهدين العرب، إنما من الأوروبيين.

جاء جول بطاس النبيذ، وهو قدح فضى من النوع الذى يستخدم فى المقاهى الباريسية. فكّ لامبير قاع هذا الطاس ومرر عصاه داخله ليظهر أنه خال. نطق بكلمات لم يستطع جمهوره أن يسمعها ومرر يده ثلاثا على الطاس. تصاعد بخار كثيف من فتحة الوعاء على الفور. ثم جاء جول بدستة من فناجين صغيرة للقهوة التى ملأها لامبير بالقهوة المغلية. وضع جول الأكواب على صينية وهبط بين الجمهور وقدّمها للمشاهدين فى الصف الأول. أعلن المترجمون، مدفوعين بما فعله جول، أعلنوا أن الساحر الكبير يقدّم لأى من مشاهديه مشروبهم المفضل القهوة هدية. لم يتقبّلها أحد، حتى فى نهاية المطاف، نزولا على إلحاح جول، أخذ أحد المرابطين متشككا فنجانا وارتشف منه. وجرّب العديد من المشاهدين بعدئذ القهوة وأخذ لامبير يصب من الطاس الصغير الذى بدا أنه لا ينفد، وسلّمها الآن إلى جول وسط الجمهور بحيث يتمكن جول من إعادة ملء الفناجين على مرأى كامل من الشاربين. وفى النهاية، أعطى لامبير

إشارة فأعاد جول الطاس إلى وسط خشبة المسرح. رفع لامبير الطاس عاليا ليظهر أنه لايزال ممتلئا. وضعه على الطاولة فى مؤخرة خشبة المسرح ثم أخذ الصندوق الصغير المتين المغلق بمفاصل نحاسية. حمله فى خفة بيد واحدة وسار حتى منتصف خشبة المسرح. والآن تحدث للمرة الأولى ببطء، كى يتمكن المترجمون من الترجمة، موجها حديثه إلى الجمهور.

- «مما رأيتموه يمكنكم القول إننى أمتلك قدرات غير عادية. وأنتم على حق. إن قدراتى خارقة للطبيعة، وهبنى الرب إياها. سأعطيكم الآن برهانا جديدا على وجود هذه القوى عن طريق عرضى عليكم قدرتى على أن أسلب أقوى الرجال من قوته ثم أعيده سيرته الأولى حسب إرادتى. سأطلب من أى شخص يظن نفسه قويا بما يكفى أن يتقدم الآن للمرور بهذه التجربة».

نظرت إيملين من مقصورتها إلى أسفل، فرأت المرابطين الأربعة فى الصف الأول يميلون على بعضهم البعض. ثم أشار أحدهم إلى رجل يجلس فى صف أمامى. وقف الرجل فى التو واعتلى خشبة المسرح. كان متوسط الطول لكنه مفتول العضلات ومتين البنية. جاء إلى لامبير ونفسه تملؤها الثقة.

سأله لامبير «هل أنت قوى جدا؟»

ابتسم العربى ونظر إلى أسفل إلى المرابطين فى الصف الأول ثم هزّ رأسه. «أنا كذلك».

- «هل أنت واثق من أنك ستظل قويا دائما؟»

التفت العربى إلى مترجمه وتفوه بكلمة واحدة التى ترجمت إلى:

«دائما !».

رأت إيميلين لامبير يطرق ويفكر. ولأنها تعرفه فاستطاعت أن تحس بالمتعة مما يهم بأن يفعله. واجه العربى فى وقفة طويلة صامتة.

قال له أخيرا «أنت على خطأ. فى لحظة سأسلبك من قوتك وستصبح واهنا مثل طفل».

ابتسم العربى ثم نظر مرة أخرى إلى المرابطين كأنما يشاركهم نكتة.

قال لامبير «الآن، ارفع هذا الصندوق».

انحنى الرجل والتقط الصندوق فى يسر ووازنه بيد واحدة ووضعه على رأسه. التفت إلى لامبير وقال فى احتقار «أهذا كل ما تريد؟».

أشار لامبير إليه أن يضع الصندوق على الأرض. رفع الساحر يديه الخفيفتين الرشيقتين وأدارها أمام وجه الرجل. وقال له بعد ذلك «منذ هذه اللحظة فصاعدا، أنت أوهن من طفل صغير. حاول أن ترفع الصندوق».

انحنى العربى وأمسك بمقابض الصندوق وسحبها سحبة عنيفة. لكن الصندوق لم يتحرك قيد أنملة من على الأرض. مال بكل جسمه عليه فى غضب وهو يفرز عرقا ويحاول جاهدا أن يرفعه. لم يتحرك. سمعت إيميلين الجمهور أخذ يصيح فيما بدا أنها كلمات تشجيع. انثنى العربى مرة أخرى وجاهد. لهث وجذب المقابض وفى النهاية تركها مهزوما وحدّق فى لامبير فى مزيج من الخوف والغضب. لكن فى هذ اللحظة جعلته صيحات الشيوخ الجالسين خلف الأوركسترا يلتفت وينظر إلى الجمهور. جرّأته صيحاتهم، وفى استعراض عظيم للإرادة، انثنى ثانية على الصندوق وقبض على المقابض، مفسحا ما بين ساقيه. سرت فى

جسد إيميلين رعشة خوف من أجل هذا الرجل الذى كانت تعرف ما سيحدث له.

فى إشارة سرية من لامبير، مرر جول، الذى كان موجودا فى الكواليس، تيارا كهربائيا لمقابض الصندوق. ارتعش العربى الذى كانت يداه ملتصقتان بالصندوق ارتعاشة عنيفة، إنقبض صدره وهو يتفوه بصرخة ألم. سقط على ركبتيه وانبطح على الصندوق، عاجزا عن أن يفكّ قبضته.

راقب لامبير ألمه الشديد، ثم تقدّم إلى الأمام ولوّح بعصاه على الصندوق. زال التيار عن العربى، ترنح حتى يقف على قدميه وهو يحدّق فى الساحر الكافر ثم استدار بعيدا وجذب برنسه وأحكمه حوله كأنما يحاول أن يحمى نفسه من الأذى، قفز من على خشبة المسرح وجرى عبر الممر الرئيسى وخرج من المسرح.

فى مقصورتى الحاكم العام ومسئول العاصمة وبين الضباط الفرنسيين الجالسين خلف الأوركسترا، أحست إيميلين باسترخاء مفاجىء، لحظة انتصار ممزوجة بنوع معين من الدهشة، لأن لا أحد يدرى كيف حقق زوجها هذه المؤثرات. لكن من أول مقاعد المرابطين فى الصف الأمامى حتى جماهير العرب فى آخر أطراف المسرح خيم صمت قلق عميق منزعج.

صاح مرابط :

– «شيطان !».

التفتت السيدات فى المقصورة إلى المترجم. «ماذا قال؟»

– «شيطان».

امتلأ المسرح الآن بضوضاء مصدرها أصوات عربية مستثارة. رأت إيميلين زوجها ينظر إلى أسفل من على خشبة المسرح كأنما يبحث عن شخص ما بين الجمهور. ثم جاء الكولونيل دنيو إلى الممر الرئيسى، وتوقف أمام موقع الأوركسترا ليواجه الجمهور العربى المستفز.

قال:

– «البعض منكم يعرف المرابطين الذين يزعمون بأن أجسادهم لا يخترقها الرصاص. لكن هل يستطيعون إثبات ذلك؟ الليلة سترون ساحرا لا يخترق جسده الرصاص حقيقة وسيثبت ذلك بدون أى شك».

جاء لامبير الآن إلى وسط خشبة المسرح، توقف ثم قال «أنا لا يخترق جسدى الرصاص لأنى أمتلك هذه التعويذة التى تحمينى من كل أذى». كأنما بفعل سحر، ظهرت كرة زجاجية صغيرة لامعة فى يده الممدودة عن آخرها. «لوجود هذه فى حوزتى، لا يستطيع أشد الرماة فى الجزائر مهارة أن يؤذينى».

ما كاد ينهى كلامه، حتى قفز واحد من المرابطين فى الصف الأول من المقاعد ووثب فى موقع الأوركسترا ورفع جسمه على خشبة المسرح، وفى تعجله أشاط ملابسه من شموع أضواء خشبة المسرح. واجه لامبير وقال فى فرنسية طلقة، «ها أنا ذا جئت لأقتلك !».

ساد صمت. ثم قال لامبير:

– «أأنت تتمنى قتلى. أنا ساحر أعظم منك وإنى أقول لك إنت لن تقتلنى».

أومأ إلى جول الذى جاء من مؤخرة المسرح وسلّمه مسدس خيالة والذى قدّمه إلى المرابط.

- «خذ هذا وطمئن قلبك فهو لم يعبث به».

نفخ المرابط فى ماسورة المسدس عدة مرات ثم عبر النبل الواصل بين أنبوبين ليتأكد من أنه لا يوجد ما يمنع المرور بينهما، وبعد فحص دقيق آخر مستفيض للمسدس قال:

- «إن السلاح جيّد وإنى سأقتلك».

قال لامبير:

- «لأنك متشوق جدا لقتلى إذن فلتضع جرعة مزدوجة من البارود وأحكم عليها بحشو من القطن».

فعل المرابط هذا وقال:

- «انتهيت من هذا».

- «الآن هاك طلقة من رصاص حددها بعلامة بسكينك كى تستطيع أن تميزها وضعها فى المسدس ومعها حشو من القطن».

- «انتهيت من هذا».

- «الآن أنت واثق تماما من أن مسدسك محشو وأنه سيطلق الرصاص، قل لى: هل تشعر بأى ندم لقتلى، حتى وإن كنت أنا الذى صرّحت لك بهذا؟»

نظر إليه المرابط فى برود. «كلا. أنت تزعم أنك ساحر. اثبت هذا».

هزّ لامبير رأسه ثم أشار إلى جول الذى جاء وسلّمه تفاحة وخنجراً.

رشق لامبير الخنجر فى التفاحة وأمسك بها فى يده اليسرى بارتفاع صدره.

قال «الآن، لا تصوّب على التفاحة إنما مباشرة على قلبى».

وعلى الفور صوّب على صدر لامبير وشدّ الزناد. أطلق المسدس النار. لم تصب الطلقة لامبير إنما استقرت فى التفاحة جاء لامبير بالتفاحة إلى المرابط قائلا:

- «خذ هذه الطلقة. أليست هى التى حددتها بعلامة؟».

أخرج المرابط الرصاصة من التفاحة. نظر ثم هزّ رأسه موافقا فى غضب.

أخذ لامبير المسدس منه وأعطاه إلى جول. قال «لا يستطيع أحد أن يقتلنى».

لاحظت إيميلين أنه حتى المشاهدين الأوروبيين كانوا منزعجين ومتحيّرين مما رأوه. جلس العرب متصلبين مثل دمى آلية يراقبون الأمر بينما عاد المرابط إلى مقعده مهزوزا.

عند هذه النقطة، وقف الماريشال راندون، الذى كان جالسا أمام إيميلين، وصفّق وابتسم أسفله إلى لامبير. حذا حذوه جميع الأوروبيين فنهضوا وصفقوا. انحنى لامبير فى رزانة ووقار تحية لهم، وانتظر حتى انتهى التصفيق ثم ابتسم ورفع يديه عاليا فى إيماءة ترحيب، تقدم إلى أضواء خشبة المسرح وأشار إلى المترجمين.

«بالنسبة إلى برهانى التالى سأكون ممتنا إذا صعد واحد من أصدقائنا العرب لمساعدتى. إنى أؤكد له أن لن يلحق به أى أذى».

انتظر حتى ترجم المترجمون، بعدها ساد سكون مترقب. ثم جاء فجأة شاب عربى طويل غير مكترث يلبس حذاء طويلا برقبة أصفر أنيقا وصدرة مطرزة تخص قائدا، جاء قاطعا الممر الرئيسى، مبتسما لأصدقائه، كصبى قبل تحديا. مد لامبير يده إليه ليساعده على صعود خشبة المسرح.

حمل جول طاولة خشبية صغيرة إلى وسط المسرح ووضعها هناك.

قال لامبير ملّوحا بعصاه أسفل أرجل الطاولة «كما ترون هذه الطاولة ليست متعلقة بأى شىء ولا تحتوى على درج خفى أو مساحة غير مرئية». التفت إلى الشاب العربى. «إذا سمحت هلا صعدت فوقها؟ «اعتلى الشاب الطاولة ووقف ينظر إلى الجمهور.

أتى جول بعدئذ من الكواليس بمخروط كبير من القماش يبلغ طوله ستة أقدام ومفتوح من قمته. ألبسه هو ولامبير للشاب فى إحكام بحيث أخفياه تماما عن الأنظار، ثم وضعا لوحا خشبيا تحت المخروط وأمسك كل منهما بطرف من اللوح ورفعاه ومعه المخروط الموضوع على الطاولة، وحملاه ناحية أضواء خشبة المسرح، حيث قلباه فجأة. كان المخروط خاويا. لقد اختفى الشاب العربى.

تصاعدت شهقة دهشة فى القاعة. وفجأة كأنما صاح أحدهم «حريق!» قام الناس من مقاعدهم وهرع عدد منهم نحو المخرج الرئيسى. لكن الباب كان مقفلا. هبط لامبير هادئا متمهلا وسار مجتازا الممر الرئيسى الذى صار الآن مزدحما. ومع هذا، أفسح أولئك الذين تمنوا الفرار الطريق أمام الساحر كى يمر. لاحظت إيميلين من موقعها المتميز الخوف البادى على الوجوه وهم يحدقون فى زوجها. مدّ زوجها يده عند وصوله إلى الباب الرئيسى، وكأنما بفعل سحر، ظهر مفتاح حديدى بين أصابعه. فتح الباب ؛ ثم دلف إلى الردهة فى مدخل المسرح، عاد ومعه الشاب العربى ممسكا بيده. بدا العربى غائبا عن رشده كأنه سكران. شمّت إيميلين رائحة الإثير وهو مار أسفل مقصورتها. قاد لامبير الشاب

ثانية إلى خشبة المسرح. كان العرب مذهولين ولكن لايزالون فى أقصى حالات الاستفزاز، وبدأوا فى المناداة على مواطنهم، الذى كان غائبا عن رشده، تفوه ببضع إجابات ترجمها المترجمون للجمهور الأوروبى كما يلى: «قال إنه لا يدرى ما الذى حدث. إنه يحس وكأنه دخن الحشيش. إنه نسى».

وضع لامبير يديه على كتفى الشاب شاكرا إياه على مساعدته. لكن الشاب، فزع من لمسته، قفز من على خشبة المسرح واختفى بين الجمهور. أثناء البلبلة التالية وانتقال الحشد من هنا وهناك، أعطى لامبير إشارة إلى الأوركسترا. دوى دق الطبول مما أخرس المشاهدين المفزوعين. التفت لامبير إلى المترجمين. راقبته إيميلين ولاحظت استرخاءه، وإحساسه بالانتصار.

«إننى ساحر. إننى مسيحى. إننى فرنسى. الرب، الذى تطلقون عليه اسم الله، يحمينى كما سيحمى بلادى من أى عدو يجسر على أن يسدد ضربة ضد فرنسا. باسم مضيفى، الماريشال راندون، أشكركم لقدومكم هنا هذه الليلة. وتصبحون على خير».

الفصل الثامن



في اليوم التالى، رأت وهى تسير ومسيو دو لا جارد يمسك بيدها لحضور غداء على شرف زوجها، رأت دنيو يدخل الحجرة يحمل نسختين من صحيفة، سلّم واحدة إلى مسيو دو لا جارد والأخرى إلى مسئول العاصمة. كانت صحيفة «لو مونيتور ألجيريان»، لسان حال الجالية الفرنسية فى الجزائر العاصمة، والتى حين فتحها مسيو دو لا جارد وبدأ يقرأها قال لرفاق الجلسة «آه ها هى ! اسمعوا هذا ! إنها تقول هنا: دعونا نضيف أن هذا العام، كما هى الحال دائما، كانت السباقات هى المناسبة التى قدّمت من خلالها العديد من الاحتفالات، لتكريم زعماء قبائلنا العربية. لكن لم تكن المآدب التى أقامها السيد الماريشال ولا الحفل الراقص الختامى، الذى جمع نخبة مجتمعنا، هى التى أثرت فيه مثلما فعلت الجلسة الروحانية الممنوحة من أونرى لامبير الذى شهدوا مواهبه الخارقة للطبيعة للمرة الأولى. إن السيد الماريشال على وعى تام

بأن هناك مرابطين بعينهم استطاعوا فى الآونة الأخيرة أن يؤثروا فى أبناء جلدتهم من العرب عن طريق أفعال يبدو أن من شأنها التلميح إلى قدرات غير بشرية، وعن طريق هذه الوسائل اكتسبوا سلطانا على السكان المحليين، والذين يأملون الآن فى استغلالها فى السعى للتمرد على الحكم الفرنسى. وعن طريق إظهار شخص مسيحى له قدرات خارقة للطبيعة تتجاوز بمراحل أيا مما يستطيع المرابطون أن يعرضوه، فلقد أسهم كل من السيد الماريشال ومسيو لامبير إسهاما مهما فى إعادة ترسيخ مناخ التعايش السلمى الجوهرى لازدهارنا».

عند سماع هذا نهض مسئول العاصمة صافح لامبير قائلا «تهانئى ! «تحلّق آخرون وهم يكيلون المديح.

دخل الليفتاننت لوكوفر الحجرة فى هذه اللحظة، فى إشارة إلى أن الماريشال يتوقع وصوله. ذهب مسيو دو لاجارد لتحيته حاملا الصحيفة. «هل اطلعت على الصحف سيادتكم؟ «كان الماريشال يرتدى هذا الصباح زيه الرسمى واضعا وسام الصّليب الكبير لجوقة الشرف، رد على انحناءات ضباط أركانه وانحناءات السيدات الحاضرات بثنى الركبتين ثم التفت إلى لا جارد وقال «كلا لم أرها، لكن لوكوفر أخبرنى بما هو مكتوب. بداية رائعة».

أشار الماريشال راندون إلى الخدم، الذين قدموا من فورهم كؤوس الشمبانيا للجمع. قال «دعونى أقترح نخبا. إلى أونرى لامبير ساحر عظيم ومن اليوم فهو جندى فى الحرب ضد أعداء فرنسا».

شرب النخب. لاحظت إيميلين استرخاء زوجها، والذى حرّكه الفخر والعواطف لأن يقول إلى الماريشال «شكرا لسيادتكم. صدقنى، إنه لمن عظيم الشرف أن يتاح لى أن أخدم وطنى».

سرت كلمة «برافو!» همسا بين الجمع الذى توجه إلى الغداء. رأت إيميلين، وهى تجلس على يمين مسيو دو لا جارد، بطاقة مخصصة لمقعد دنيو . بعد لحظات، تسلل دنيو ليجلس بجانبها، آخذا يدها وقبلّها قائلا فى صوت خفيض:

- «كنت أحلم بك».

نظرت إليه وهى قلقة من أن يكون مسيو دو لا جارد قد سمعه. لكن مسيو دو لاجارد كان منشغلا بالمزاح مع زوجة مسئول العاصمة.

- «هل تعلمين لماذا كنت أحلم بك؟». قال دنيو فى نبرة من يبوح بسر. «يرجع ذلك لأنه خلال هذا الأسبوع سنسافر سويا. وفى الصحراء وفى الجزائر الحقة. سيكون الأمر خلابا بالنسبة لى. بالنسبة إلى كلينا، آمل فى هذا؟»

فى هذه اللحظة، لرفع الحرج عنها، مال الليفتاننت لوكوفر، الجالس قبالتها، إلى الأمام وقال لدنيو:

- «أليس صحيحا يا كولونيل دنيو أن هذا الاستعراض هو فكرتك. أنت أيضا يجب أن تهنأ. فكما ترى لقد حققت نجاحا».

ابتسم دنيو لها كأنما يعتذر عن هذه المقاطعة، ثم قال إلى لوكوفر:

- «أشكرك. إنه نجاح، نعم، لكننا بالكاد بدأنا مهمتنا».

- «كيف ذاك يا كولونيل؟».

أدركت إيملين أن بقية الضيوف سمعوا هذا الحوار وينتظرون الآن رد دنيو. وعرف دنيو هذا. نظر إلى نهاية المائدة والتقت عيناه وعينا الماريشال، وقال «كما تعرفون، سيادتكم، خلال يومين سأسافر ومسيو لامبير إلى الإقليم الذى يشاع فيه أن بوعزيز سيكون المهدى الجديد. والآن يتعين على مسيو لامبير أن يثبت أنه أعظم من بوعزيز وبهذه

الطريقة يوهن سلطانه بين زعماء العرب والقبائل. وأخشى أن أقول إنها مهمة ليست بالهينة. ومع أننى لى أعظم الثقة فى صديقى لامبير، لا يمكننا أن نعد بالنجاح».

ابتسم راندون. «لقد حقق نجاحا بالفعل، يا كولونيل. تحدثت بالأمس مع الشيخ فرحات الذى يحكم قسنطينة. قال: يتعين على مرابطينا الآن أن يصنعوا معجزات عظيمة جدا ليدهشونا، سألته، وهل يمكن أن يوفقوا؟ قال لى: إن أملى ليس كبيرا. لكن إذا كان بوعزيز هو بالفعل المهدىّ فلا بد من أن يظهر أنه أعظم من ساحركم».

ابتسم الماريشال لرفاق الجلسة. «وهكذا قلت للشيخ الله وحده هو العظيم. وهو الذى سيقرر».

صفق مسئول العاصمة تأييدا. «إجابة من نفس عقيدته، رد سيادتك. رد يدل على سرعة بديهة رائعة ! وهو الذى سيقرر. من أجل لامبير ومن أجل فرنسا !».

نظرت إيميلين فى نهاية المائدة نحو زوجها. الذى كان جالسا مرفوع الرأس يبتسم وسط بحر من الابتسامات.

***

كان الوقت بعد الفجر بقليل عندما وقفت إيميلين ولامبير ومعهما جول ينتظرون فى الفناء الرئيسى في ضيعة الحاكم العام وصول دنيو بعربة المسافرين التى ستقلهم خلال المرحلة الأولى فى رحلتهم إلى منطقة القبائل. لكن لدى قبقبة العربة لم يظهر لدنيو أثر. بدلا منه، جاء الصبى الذى رأته إيميلين فى شقة دنيو، والذى قفز من مقعده بجانب الحوذى وأعلن، فى فرنسية ذات لكنة ثقيلة، أن سيدة أخّرته – واجبات سياسية–

، وسيلحق بهم بالخيول والجمال اللازمة فى المرحلة الثانية من رحلتهم، عندما تصل العربة إلى بلدة عين الصفراء.

– «من عين الصفراء يا مسيو، لا يوجد طريق معبد. ستسافرون ممتطين الجياد. سيبذل سيدى قصارى جهده للحاق بكم هناك».

وانحنى الصبى بعد ذلك أمام لامبير وفتح باب العربة. التفت لامبير إلى إيميلين، فى إشارة إليها أن تسبقه، لكن الصبى سدّ الطريق أمامها. قال إلى لامبير:

– «كلا يا مسيو. لا بد أن تتقدم على المرأة. أنت المرابط».

مد الصبى يده لمعاونة لامبير عند صعوده للعربة. لكن إيميلين اتبعت زوجها لم يقدم الصبى يده. بدلا من هذا، حدّق فيها بنظرة الكره تلك، التى صارت مألوفة لها الآن، وسمعت وهى تغلق باب العربة خلفها صوت بصق بشفتيه.

جلس جول بجانب الحوذى بعدما وضعت الأمتعة بما فيها صناديق لامبير المسرحية على سطح العربة وجرى تأمينها. انحنى الصبى العربى مودعا لامبير. وقف الحرس الزواوية وقفة انتباه، رفعوا سلاحهم لتأدية التحية بينما تتحرك العربة المثقلة فى اتجاه شارع دو لا مارلاين. غادروا المدينة خلال دقائق، والخيول تغذ السير عبر طريق عام عريض يشق القرى ثم إلى منظر طبيعى جاف مثل الموت. حدّقت إيميلين الجالسة بجانب زوجها، الذى شغل نفسه كعادته فى الرحلات بالقراءة، فى الطريق المنبسط أمامها. كانت قد ارتدت ملابسها هذا الصباح بعناية كبيرة، استيقظت قبل الفجر لغسل وتصفيف شعرها، وانتقت فستانا ورديا فاتحا وقفازات من الساتان الأبيض كأنها ذاهبة لحفل غداء،

واستخدمت عطرها المفضل لتمسح به عنقها والتجويفين خلف آذنيها وظهر معصمها، وهو عطر ليلاك الوادى، ذلك لأنها ستجلس بالقرب من دنيو فى حيز العربة الضيق. وقد فعلت كل هذه الخطوات وهى منوّمة، رافضة التفكير فيما قد يحدث فى قادم الأيام؛ لكن عند وصول الصبى العربى ومعه أنباء بأنه سيكون هناك يومان من السفر قبل أن يلحق بهما دنيو سرعان ما ملأها الغضب من الطريقة المتعجرفة التى أخّر بها لقاءهما، ممزوجة بالقلق من احتمال من أن تحول - الواجبات السياسية - من لحاقه بها. لكن نتيجة لخيبة الأمل التى أحست بها فى غيابه، سمحت لنفسها فى نهاية المطاف بأن تتخيل أنه إذا ما اختار فى المستقبل أن يغازلها فإنها لن تمانع.

هذا الغياب، هذا الاشتياق إليه، وعدم التيقن جعل اليومين التاليين لا نهاية لهما بالنسبة إليها. كانت العربة تتوقف كل ليلة فى فنادق يديرها مستعمرون فرنسيون حيث كانوا يجلسوهما على موائد مشتركة مع تجار فرنسيين رحالة، مثيرين بذلك اشمئزاز لامبير، ويقدمان لهما طعاما أوروبيا متواضع المستوى. كان هو مثلها قلقا من هذه - الواجبات السياسية - التى قد تمنع دنيو من لقائهما. لكن فى صباح اليوم الثالث، عندما دخلت العربة فى تثاقل إلى الفناء الرئيسى للمكتب العربى فى بلدة عين الصفراء، فتح قدّور، عبد دنيو السنغالى، باب العربة منحنيا انحناءة عظيمة.

أضاءت وجه إيميلين ابتسامة فرحة بينما كوّر قدّور يده ليساعدها على الهبوط. أصبحا بعد لحظات فى حضرة الكابتن إرسان، مدير المكتب فى عين الصفراء، الذى أبلغهما أن دنيو موجود بالفعل فى بلدة يدبر أمر استئجار الجمال وسيلحق بهما فى الغداء.

بعد الظهر بقليل رفع المؤذنون أذان الصلاة، نظرت إيميلين إلى أسفل حيث توجد أماكن إقامتهم، رأت وراء ظهور العرب الساجدين فى الصلاة، ثلاثة جمال قادمة عبر البوابة الرئيسية للمبنى. كان دنيو يجلس على الجمل الذى يقودهم، واضعا ساقا على ساق فى استرخاء، يرتدى برنسا بنيا فوق بزته العسكرية، والذى أوقف القافلة الصغيرة حتى قضيت الصلاة. ثم جعل جمله يبرك وانزلق من فوقه فى رشاقة، وخطا عبر الفناء وهو ينظر إليها ويلوّح لها بسوط قصير ترحيبا.

- «أونرى إنه هنا !».

- «أين؟ «قدم لامبير إلى النافذة، نظر إلى أسفل. كانت إيميلين قد أخرجت مرآتها تسوى شعرها فى لهفة، ثم استدارت، وهرعت تهبط على الدرج نحو القاعة الرئيسية. ذهبت إلى دنيو إثر دخوله القاعة وقالت له فى ابتهاج ظاهر، «آه كنا قلقين جدا عليك ! ظللت أتساءل: ها أنت ذا».

كانت إشارة والتقطها هو. أمسك بيدها ثم انحنى كثيرا ليقبّل يدها ثم رفع رأسه ونظر فى عينيها. قال «نعم، ها أنا ذا». ابتسم وأطلق يدها قائلا فى نعومة. «عزيزتى إيميلين».

فى الساعة التالية جلست فى حالة نشوة كبيرة، نصف واعية فقط بالمحادثة الجارية على مائدة الغداء. لكنها سمعت دنيو يخبر لامبير بأنهم يجب أن يشرعوا فى الرحيل بأسرع ما يمكن ويحافظوا على وتيرتهم بأن يغذّوا السير لأن رحلتهم لا بد أن تنتهى قبل هطول الأمطار الشتوية، التى تجعل اجتياز الطرق متعذرا بل خطيراً.

سأل لامبير:

- «لكن متى يتوقع هطول الأمطار؟».

- «فى نهاية الشهر الحالى. ولذلك فإن هدفى هو إعادتك سليما معافى خلال أربعة عشر يوما».

حدّقت إيميلين فى دنيو. أربعة عشر يوما. أربعة عشر يوما... ثم ينتهى الأمر برمته. ونرسل ثانية إلى فرنسا.

قال لامبير:

- «لكننى أعددت ترتيبى على أنهم أربعة عروض. إنك ستتذكر أن هذا هو ما رتبنا له».

- «لسوء الحظ، عندما أعددنا هذه الترتيبات فى فرنسا لم أتصور أن احتفالاتنا الجزائرية ستتأخر بانتفاضة منطقة القبائل. أخشى الآن أنه لا بد لنا من المخاطرة بكل شىء فى ضربة واحدة كبرى. هذا هو السبب فى أنى تخلّفت عند مغادرتكم العاصمة. فقد بعثت رسلا لكل الشيوخ والمرابطين الذين ستقدم أمامهم جلسة روحية كبرى واحدة فى بلدة مليانة. نحن لدينا قلعة عسكرية هناك وبها فناء ضخم يمكن أن يستقبل عددا كبيرا من المشاهدين». ابتسم دنيو. «أظن فى واقع الأمر، أن هذا سيكون موقعا مثاليا، بخاصة فى وجود الطاقة الكهربائية فى المبنى».

قال لامبير «أحقا هذا؟ ممتاز».

- «أحسب أن هذا الأمر له أهمية خاصة بعد أن أصبح الصندوق الثقيل بالفعل حديث حتى من لم يره فى الجزائر العاصمة. لقد انتشرت أخبار هذا الصندوق مثل - كدت أقول - النار فى الهشيم - لكن ربما - مثل التيار الكهربائى سيكون تشبيها أكثر مناسبة؟».

ابتسم الكابتن إرسان، الذى قيل له سر الصندوق الثقيل، ابتسامة العارف. لكن إيميلين لاحظت أن لامبير لم يكن سعيدا.

قال لدنيو:

- «إن سر السحر يكمن فى غموضه. لذا فإننى أثق فى أنك لن تبوح به لأى من أصدقائك العرب».

– قال دنيو «إننى أعتذر. بالطبع أنت على حق. لا بد للإيهام أن يقدم على أنه معجزة حقيقية».

هز لامبير رأسه:

– «حسنا. والآن، متى سيقدم هذا العرض؟».

– «بعد أربعة أيام. قد تلقى الماريشال راندون بالفعل وعودا من معظم الشيوخ والمرابطين أنهم سيحضرون. لعلمك، لم يكن عسيرا الحصول على وعودهم. أنت بالفعل صرت شخصا محط خوف وفضول».

سأل كابتن إرسان «وبوعزيز؟ هل سيحضر؟».

– «لم نتلق بعد ردا منه، لكن إذا ظل بعيدا يمكن أن يفسر ذلك فى غير صالحه. نحن بالطبع سننشر شائعات بأنه يخشي قدرات أونرى الخارقة للطبيعة. على أية حال لن ننتظره. تقوم خطتى على أن نبدأ رحلة عودتنا فجر ليلة العرض، تاركين وراءنا من شاهدوه مبهورين بمهاراتك».

التفت دنيو الآن إلى إيميلين واضعا يده على ذراعها كأنما يجذب انتباهها.

– «وهكذا يا مدام ما لم أكن أشكّل عليك عبئا هائلا فسأطلب منك أن تستعدى لأن نبدأ رحلتنا مع أول ضوء غدا».

– «كيف سنسافر؟ هل على ظهر الخيل؟ أم يتعين علىّ أن أركب جملا؟».

ضحك دنيو:

– «ليس الجمل بوسيلة مريحة أيتها المدام العزيزة. لن أفرض ذلك عليك. سنأخذ ستة جياد من إسطبل كابتن إرسان. سيكون لدينا اثنين من الخدم العرب لركوب الجمال التى ستنقل الأمتعة. واثنين على ظهر

البغال ليقوما على خدمتنا. ومع هذا، لا بد أن أحذرك من أن الطريق سيكون شاقا».

***

في الصباح التالي، شرعت قافلتهم في الخروج بينما أشرقت الشمس مهددة في سماء الفجر الشاحبة. كان الدرب الذي تحدث عنه دنيو عبارة عن منظر صحراوى قفر بلا أثر لمسافرين آخرين. وأمام خلفية تربة الصحراء الحمراء، برزت ظلال محايدة: ملابس خدمهم ذات الألوان الحمراء والصفراء والبنية، جلود الجمال لونها يشبه الصدأ والبيج الفاتح ووبر الخيول الأسود والبني؛ كل هذه الألوان الطبيعية بدا أنها تكثّف من الحرارة المتصاعدة. وخلال ساعتين أصبحت الشمس عقابا. أحست بأن شعرها صار مبتلا. أخذت أنهار العرق تنساب على صدرها، وهي تنخس الحصان بمهمازها لتتقدم على دنيو، كي لا تسمح له بأن يرى وجهها الذي لوحته الشمس ولا شعرها المنكوش. قرب منتصف النهار، تغيّرت كثبان الصحراء الصاعدة والهابطة في يسر إلى سلسلة من وديان ضيقة شديدة الانحدار حيث تلوّى وتعثر جوادها في هبوط شبه رأسى مما هدد بإسقاطها من فوقه على الأرض. بعد الظهر بقليل أوقف دنيو القافلة، ونصب الخدم على عجل خيمة ذات انحدار من جانب واحد من جلد الماعز، قدّموا تحتها وجبة متواضعة من البلح ولبن غنزة وخبز. اعتزلتهم إيميلين وراء هذا المأوى، لتحاول أن تتزيّن بسرعة بصابون وحوض ماء قبل الجلوس على السجادة حيث تقدّم الوجبة. سمعت دنيو يقول لزوجها إنهم سيبيتون ليلتهم في منزل شيخ يدعى بن جنّة، وأن هناك ستقدم لهم وجبة لائقة. «غدا سنسافر في درب أقل وعورة. إن أسوأ جزء في الرحلة انتهى».

جلست في وقت لاحق بعد الظهر في خمول على حصانها المنهك، الصحراء منبسطة أمامها، لا نهاية لها مثل محيط، لا حد لها وخطرة، منفّرة لكل الدخلاء. كيف أنها منذ بضعة أيام قليلة حلمت بأنها مكان يصلح لعلاقة غرامية غير مشروعة؟

تقدّم دنيو بجواده منها ليسألها إذا ما كانت تفضل التوقف. هزّت رأسها وقالت «أرغب فقط في الوصول إلى أي كان المكان الذى سننام فيه الليلة. أن أكون في الداخل، بعيدا عن الشمس. كم تبلغ ضخامة هذه الصحراء؟ إنها تخيفني».

«الصحراء الكبرى؟ ثلاثمائة ألف ميل مربع هو الرقم الذى حسبناه. نعم، يمكنها أن تكون مخيفة. لكنها أيضا مساحة روحية. للولوج إليها، لا بد من أن تصبحي مثلها صفحة بيضاء».

نخس حصانه بمهمازه، ليتقدّم عليها. نادى عليها:

– «إيميلين. صدّقيني إنها ستغيّر حياتك».

نظرت إلى حيث يسير لامبير بحصانه جنبا إلى جنب مع خادمه جول.

– «وزوجي؟ هل ستغيّر حياته؟».

قال دنيو «أشك في ذلك. إنه ساحر عظيم. لكن هل هناك سحر في روحه؟ ما رأيك؟» لم تجب.

قبل الغروب بقليل، رأت أمامها مجموعة من المنازل المغربية، تعلو مثل قلعة أشباح في البرية المحيطة. خلال دقائق، جاء راكبان من العرب يركضان بجواديهما نحوهما، حيّا دنيو، ثم حاما بمطيتهما وشدّا لجامهما بجانب لامبير وإيميلين وأنشدا شيئًا ما ترجمه دنيو.

– «إنهما يقولان: أنتم مرحباً بكم، يا من أرسلكم الرب إلى هنا. هذا هو بن جنّة مضيفنا هذه الليلة. والشاب هو ابنه».

بعد مضى ساعة استحمّت خلالها إيميلين وانتعشت بعطر ماء الورد، وسوّت شعرها على نحو ما أرضاها بدرجة أو بأخرى، ادخلت مع الآخرين إلى قاعة استقبال ضخمة، حيث جلسوا فى مواجهة مضيفهم على أرضية مفروشة بالسجاد بينما قدّم لهما خادمان، أرجلهما حافية علامة على الاحترام، وجبة من لحم الضأن ودجاجة مشوية تؤكل حسب العادات العربية بدون أدوات أكل. وبعد ذلك، جيىء بآنية مملوءة بالماء ومعها صابون ومناشف للسماح لهم بغسل أيديهم. عند انتهاء هذه العملية، نهض الشيخ وقاد إيميلين ولامبير إلى حجرة صغيرة أنيقة التنسيق أثاثها أريكتان فقط. ابتسم وقال شيئًا ما ترجمه دنيو على أنه «هذه هى الحجرة التى نخصصها لزوارنا الأعظم شرفًا. فلتناما في سلام تحت سقف بيتى».

انصرف الشيخ. أشار دنيو إلى الخدم أن يأتوا بالأمتعة ثم أصدر لامبير تعليماته بشأن مكان وضع صناديق الأمتعة. انضم دنيو إلى إيميلين فى الشرفة التى تطل على فناء داخلى. أشار إلى مساحة مغلقة من الفناء تلتقى مع الشرفة فى زاوية مستقيمة. «هذه هى حجرتى». ابتسم قائلا «أتمنى أن تنامى جيدا».

التفت وعاد ثانية إلى الحجرة.

– قال إلى لامبير: «تصبح على خير يا أونرى. لا بد أنك مرهق».

– قال لامبير: «عظامى توجعنى. سأسعد عندما نصل إلى مليانة».

سمعت وقع خطوات دنيو على الدرج الحجرى وهو يهبط إلى الدور الأرضي. خلعت ملابسها وارتدت ثوبا ليليا ووضعت فستانها على طرف الأريكة. كان لامبير ممدداً بالفعل على الأريكة بطول الحجرة. جلست

تستمع إلى الأصوات الليلية داخل مقر بن جنّة. بدأت الخيول والأغنام، داخل فناء مسور بالمنزل لحمايتها من غارات اللصوص - تصدر ثغاء وحمحمة وكأنها اضطربت. وأصدرت الجمال شكاواها الخشنة. بعد فترة اختفت الأصوات تدريجيا. سمعت شخصا يدق على طبلة مصحوبا بموسيقى ناى رفيعة حادة. ثم خيّم الصمت. جلست نعسانة تتذكر كلمات دنيو «هذه هى حجرتى». أهى دعوة؟ إذا كانت لتخرج الآن، تنظر إلى الفناء الذى يضيئه القمر، هل سيخرج من بين الظلال، داعيا إياها أن تهبط الدرج الحجرى وتلحق به؟ سيكون مرتديا عباءته البيضاء التى ارتداها فى مسكنه فى العاصمة. سيقودها مارّين بالجسد الجالس القرفصاء لعبده العملاق، الذى يحرس باب حجرته، والذى سيغلق عليهما بالداخل. يطوّق دنيو خصرها بعد ذلك فيما يشبه الظلمة. ويعثر فاه على شفتيها، ولسانه يلعق حلمة صدرها. وبعد أن تكون مشدودة إليه يرفعها عاليا ويحملها إلى أريكة وينزلها على وسائدها، مبتسما ويدع عباءته تسقط من على جسده. ثم تصبح فى سكر العاطفة المشبوبة من نهم وطيش، شريكا طيعا فيما يفعله بها حتى فى نهاية المطاف ترتوى، فتجلس بجواره على الأريكة. يعيد إليها عباءتها مبتسما ويضعها على جسدها العارى. عندما تلبسها ينهض ويسير معها إلى الباب، فاتحا إياه ليكشف عن ظهر قدّور العظيم المحنى الذى ينحنى لها، سيقودها عائدة عبر الفناء إلى الدرج الحجرى الذى يفضى بها إلى حجرتها.

جلست وجسدها بلله العرق. نظرت عبر الحجرة إلى حيث نام زوجها، يداه متقاطعتان على صدره فى وضعه المعتاد. أشاحت بوجهها إلى الحائط.

الفصل التاسع

قصة الاصطفاء

بعد الفجر بقليل سمعت طرقاً على الباب ثم صوت زوجها وهو يحادث شخصا ما فى الردهة. لم تستطع أن تستمع لما يقال لكن سرعان ما جاء بجانبها يستفسر منها عما إذا كانت مستيقظة، ويخبرها بأنهما لا بد أن يرتديا ملابسهما ويهبطا.

– قال «دنيو يريد أن يرانى. يبدو أن منطقة القبائل تموج بالاضطراب. لقد حضر توا ضابط من المكتب العربى فى مليانة بعد أن ظل راكبا جواده طوال الليل. يقول الكابتن إرسان: إن الموقف بدأ يتصاعد خطره. سيخبروننا بالمزيد على مائدة الإفطار. هل يمكن أن تكونى مستعدة، يا محبوبتى؟».

وضعت أمامهم القهوة والبلح وأرغفة الخبز المسطحة وبرطمانا من عسل النحل كوجبة إفطار فى الفناء الرئيسى. قدّم خدم دنيو هذه الوجبة. لم يكن الشيخ وابنه موجودين. دخلت إيميلين يرافقها زوجها

الفناء فنهض دنيو وكابتن إرسان وضابط صغير ليحيّوهما. قال دنيو «صباح الخير. هلا سمحتم لى أن أقدّم لكم الليفتاننت دوفور؟ أخشى أن أقول: إنه قد جاء من مليانة يحمل أنباء مزعجة».

ابتسم الليفتاننت الشاب وانحنى. لم تنظر إليه، إنما إلى دنيو الذى ردّ على نظرتها بواحدة خالية من المعنى وذات ودّ محايد وهو يطرقع بأصبعه لقدّور ليحضر صينية عليها فناجين القهوة العربية. توجه العبد الزنجى لها أولا. عندما أخذت الفنجان التفت إلى لامبير الذى تناول ملعقة وحلّى كعادته فنجانه بكثرة. وسأل دنيو وهو يفعل هذا «مزعجة؟» كيف؟ «آمل ألا يكون العرض الذى سأقدمه قد ألغى؟»».

قال دنيو «على النقيض، يا أونرى. إن عرضك ربما يكون الوسيلة الوحيدة لتفادى ما يبدو أنه اضطرابات خطيرة. قيل لنا: إن شيوخا بعينهم سيحضرون عرضك المسائى حثوا بوعزيز على الدعوة إلى شن حرب مقدسة فى الشهر المقبل. قال لنا الليفتاننت دوفور، الذى يعرفهم معرفة جيدة – كما أنه بالفعل يعرف بوعزيز – قال: إن عرضك فى العاصمة أزعجهم على نحو عظيم، وهم الآن يخشون أن تقنع إنجازاتك فى مليانة جماهير العامة بأنك ساحر أعظم من أى منهم. إذا نجحت، فقد لا يطاع بوعزيز إن طلب من البلد أن تثور ضدنا».

قال لامبير «وماذا إذا فشلت؟ أدرى أننى حققت نجاحا كبيرا فى العاصمة. لكننى قضيت أياما أستعد للعرض والذى قدّم فى مسرح مناسب. يوجد سحر فى العروض المقدمة على خشبة المسرح، سحر سيتضاءل إلى حد كبير فىّ عندما أقدّم عرضى فى قلعة حصينة ما فى الصحراء، يحيط بى عرب يروننى كعدو لهم».

قال دنيو «عزيزى أونري لا أفهم مبعث ترددك. سينجح دوما ساحر يحمل مواهبك فى إقناع الآخرين أمثالنا أن لديه قدرات خارقة للطبيعة. حتى فى باريس تحدث أعمالك الفذة أمام جمهورها الواعى المثقف عدم ارتياح وانذهالا. ولهذا يرجع السبب فى أننا جئنا بك إلى إفريقيا. إن معظم ما يسمى بمعجزات تحدث على يد هؤلاء المرابطين لا تعدو أن تكون ألاعيب سيرك يتلاعبون بالثعابين، يأكلون زجاجا مهشما، يسيرون على جمر مشتعل إلى آخره. قد أخبرتنى بنفسك أنك تعرف جذور هذه الحيل. لكنهم، أو نحن، نجهل سر خدعك البصرية».

نظر دنيو اتجاهها سريعا وهو يختتم كلامه، كأنما يحول قياس رد فعلها. لم تعد النظرة المتواطئة المبتهجة التى تبادلها معها فى الماضى لكن تحديق من يقدر رأيها وهو يشارك فى مناقشة. وفى هذه اللحظة، تذكرت حلم يقظة ليلة أمس خلف الأبواب المغلقة. هل يمكن الانجذاب الذى أحسه كلاهما كان، بالنسبة له، جزءا من خطته لجعلها حليفته؟

استعاد لامبير ثقته بعد ملاحظات دنيو، والتفت الآن إلى دوفور:

– «أخبرنى أيها الليفتانت – هذا المرابط بوعزيز – أنت تعرفه جيدا. أي نوع من الرجال هو؟».

– «حسنا، هو بداية ربما يكون فى الستين من العمر. زوجته متوفاة ويعيش مع ابنته تاليت التى فى حد ذاتها امرأة قديسة وهي مترجمته حيث أنها فى شبابها تعلمت لغتنا. إن بوعزيز ليس رجلا محاربا؛ إنما هو، يجب أن أقول أميل إلى العالم، رجل سلام يعمل على تفادى العنف داخل مجتمع القبائل. قد رأيته يخاطر بحياته بأن وضع نفسه بين اثنين أوشك كلاهما أن يفتك بالآخر. عندما رآوه أحنيا سيفيهما ودخلا

فى السلم. ومما هو ذا صلة أيضا خلفيته. تقليديا، سيأتى المهدى من الجنوب، من الصحراء الكبرى، مثلما هى الحال بالنسبة لبوعزيز. وعندما سيعلن نفسه المهدى سيحمل اسم محمد بن عبد الله. كل من حاول أن يكونوا المهدى استخدموا نفس الاسم. لكن لم يفلح أحدهم فى تخليص البلاد منا نحن الكافرين. ولهذا السبب فإنه الآن حتى فى ظل مكانته العظيمة يشك الكثير من الشيوخ أنه سيكون المنقذ الجديد للإسلام».

قال دنيو «وكما قلت لك، كل واحد منهم سيتشكك بعد أن يشاهد عرض أونرى».

التفت إلى إيميلين وقال «والآن هذه السيدة لم تتناول إفطارها. تعالى معى يا مدام. دعينا نأكل ونمضى فى طريقنا».

عندئذ وضع يده على ذراعها، أصابعه تتزايد ويقلّ ضغطها على جلدها العارى فى لمسة أعادت إلى ذهنها نشوة حلم يقظة ليلة أمس.

تبعهما لامبير ودوفور والكابتن إرسان إلى كتلة حجرية وضع الطعام عليها. جاء جول يعرض عليها طبقا من بلح. رأت أن يده تهتز وأن جلده الفرنسى الأبيض ظهرت عليه قروح وبثور من الشمس.

سألت «كيف حالك يا جول؟ أأنت على ما لا يرام؟»

– «لست أدرى يا مدام. ربما تكون الحمى قد مسّتنى».

قال دنيو «سنعطيك أقراصا من أجل هذا. قدّور إئت لى بحقيبة الأدوية».

التفت إليها «لا بدّ أن نحسن رعايته. سنحتاجه من أجل العرض».

العرض. دائما العرض. راقبت دنيو وهو يفتح حقيبة من الجلد تعلق على الكتف، وهو مصمم على التقاط الأقراص من بين مجموعة من الأدوية. مرة أخرى نسوها. راقبت قدّور وهو يصب الماء من دورق وجول يبتلع الأقراص. رأت دنيو يذهب إلى لامبير وسمعته يقول له:

- «ماذا لو أن رجلك مرض؟ هل ستستطيع أن تواصل بدونه؟»

قال لامبير منزعجا «إنه ليس مريضا، أم تراه كذلك؟»

«ربما يكون قد أصيب بالدوسنتاريا. ستساعده هذه الأقراص. لكن قل لى، إذا اضطررت، هل تستطيع التصرف بدونه؟»

- «كلا إطلاقاً. أحتاج شخصا على خشبة المسرح، شخص يعرف ماذا أفعل ومتى أحتاج إلى مساعدة».

رأت دنيو يميل نحو زوجها ويهمس. التفت لامبير ونظر إليها. قال «كلا. دعنا نأمل فى أن تؤتى أقراصك مفعولها».

***

كان الطريق إلى مليانة صحراويا، رتيبا تحت شمس لافحة. مع مضى اليوم، ظل دنيو، الذى كان يسير بجواده على حواف القافلة، ظل يحث سائقى الجمال على أن يلهبوا ظهور دوابهم بالسياط خشية ألا تصل مجموعتهم قبل هبوط الليل. رأت إيميلين قرب المغيب، بعد يوم من الوحدة فى الصحراء الكبرى، مجموعة غريبة من الأغنام وجمال ذات سنام واحد يحرسها راكبو خيول مسلحون ببنادق طويلة. كان هناك رجال مسلحون أخرون يسيرون مترجلين يقودون الجمال ذات السنام الواحد المحمّل بعضها بخيام مطوية مصنوعة من جلد الحيوانات ملفوفة حول أعمدة الخيام، بعضها يترنح من ثقل الأجولة الضخمة، المقلّمة باللونين الأبيض والبنى، التى أخبرها إرسان بأنها تحتوى على أثاث ومؤن هؤلاء النّاس الرحّل. لكن هذه الجمال ذات السنام الواحد الحاملة لمحفّات هى التى اجتذبت إنتباهها. ولاحظت حين قدمت نحوها أن المحفّات مغلقة من الأمام بقماش أسود أزيح جانبا ليكشف عن نساء

وأطفال، يضحكون ويتحادثون فى اندهاش وهم يشيرون إليها ويلّوح لها الأطفال كأنها واحدة منهم. كانت النساء من الأعمار كافة لكن معظمهن شابات، غير محجبات. وكان الكثير من الشابات مليحات. كن يلبسن رداء أبيض قصير من الصوف، مربوط من الكتف بمشبك، وله حزام عند الخصر ومفتوح من ناحية الورك. كانت قبعاتهن المصنوعة من وبر الجمل، موضوعة بعناية بحيث تظهر جدائل طويلة من الشعر الأسود التي وضعت إطارا لخدودهن. مع كل حركة تصدر أساور لا تعد ولا تحصى بعضها من الحديد، والآخر من الفضة، صليلا وهى على أعناقهن وأذرعهن. ذكّرنها وهن محصورات فى محفّاتهن يختلسن النظر إليها بالممثلين فى عروض الدمى، مبالغ فيهم والحيوية تتدفق منهم. وبعد أن انحسرت القافلة فى غبار الصحراء، وسط جلبة من ثغاء الأغنام وصياح وضربات السياط من الرجال وعواء قطيع كلابهم المتضورة، جال بخاطرها أنها لا تعلم شيئا عن هذا البلد أو أهلة أكثر من أول يوم وطأته قدماها، وأنها خلال أيام قليلة، وفقا لخطة دنيو ستجبر على مغادرة إفريقيا، ولن ترى ثانية هؤلاء النّاس الذين يسافرون وكل ما يملكونه من حطام الدنيا معبأ فى حفنة صرر، الذين يخرّون على وجوههم يوميا أمام رب أقداره سواء أكانت رهيبة أم رحيمة، فإنهم يتقبلونها برضا إيمانى خالص.

والآن وبعد أن اختفت قافلة الرحّل من الأفق، سمعت إيميلين صيحة مباغتة خلفها. التفتت فرأت دنيو والليفتانت دوفور يديران جواديهما ويقفزان من على سرجيهما. وجرى جواد بلا راكب فى اعتدال بجانبها، وتراخى لجامه على عنقه. أجبر سائقو الجمال جمالهم على الجثوم، وعندها لاحظت إيميلين أن جول سقط ووجهه فى الرمال. رفعه دنيو

وقدّور ووضعاه على ظهر جمل، حيث أسنده أحد سائقى الجمال ليكون فى وضع جلوس. تدلّى رأسه. توجهت إلى لامبير الذى كان يتحدث إلى دنيو.

– «ماذا حدث؟ هل انتفض جواده فجأة؟»

قال دنيو «من المحتمل أن تكون دوسنتاريا. أخشى أن أقول إنه جد مريض».

قال لامبير «هذه الدوسنتاريا، ما الشكل الذى تأخذه؟»

قال دنيو «بشكل عام، إنها تتجه نحو أزمة شديدة. إذا كانت ما أظنه، فإن الأزمة ستقع خلال ثلاثة أيام. أو إذا كانت أقل حدة أثناء سبعة أيام».

التفت لامبير إليها وبحركة خفيفة من رأسه أشار إليها أن تتبعه. قال لها وهما يسيران جنبا إلى جنب:

– «ماذا الآن؟ ماذا عساى أن أفعل؟»

– «ماذا تعنى؟»

– «إن موعد العرض بعد غد. كل هؤلاء الشيوخ والمرابطين سيأتون من كافة أنحاء الجزائر. نحن لا نستطيع أن نؤجله».

قالت «إن ما يفعله جول ليس صعبا للغاية. يستطيع شخص ما أن يساعدك».

– «من؟»

– «لست أدرى. اسأل دنيو. سيأتى بشخص ما».

قال لامبير «إنه اقتراحك أنت. قال ستكونين الشخص الأنسب. إذا اختير واحد من رجاله لن يتأتى بالتأثير المطلوب. بالإضافة إلى أننى كيف أدرب جنديا غبيا فى أقل من يومين؟ يا محبوبتى قد رأيتنى أؤدى

عروضى يمكننى أن أريك ماذا تفعلين. وكما تعرفين، إذا نجحت فستنقذين الآلاف من الأرواح».

حدّقت أمامها فى الجمال، أردافها تعلو وتهبط وقوائمها الضخمة المنفرجة تسلك فى رقة طريقها عبر رمال غير مطروق. إنه دنيو هو الذى قال له أن يطلب منى. قد رأيت ذلك هناك. دنيو أقنعه بأننى الشخص الذى لا بد أن يستخدمه. إن دنيو هو الذى يستخدمه، وهو الذى يستخدمنى عن طريق المجاملات والتملق. إن دنيو هو الساحر. نحن الدمى التى يستخدمها.

رأت زوجها يضرب جواده بالسوط كى تطابق خطوته خطوة جوادها. عندما تجاهلت وجوده، قال بهدوء، «يا محبوبتى، أنت تعرفين أنى ما كنت لأطلب منك ما لم يكن الأمر مهمًا».

حدّقت أمامها وهى غاضبة. فى نهاية المطاف قالت «إن دنيو هو الذى يسيّر الأمور دائمًا وفق طريقته، ألا يفعل ذلك؟ حسنًا. قل له إننى سأفعل».

آثر لامبير أن يتجاهل غضبها مثلما عرفت أنه سيفعل ذلك. «أشكرك يا محبوبتى. أشكرك! بفضل مساعدتك أعرف أننى لن أخفق».

بدأت تظهر بعد دقائق أسطح ومآذن مدينة صغيرة فى مجال الرؤية، ومع اقترابهم رأت إيميلين أسفل جدرانها كمًّا ضخمًا من الخيام منتشرة لتشكل معسكراً مبعثراً للرّحل. وهم يشقون طريقًا وسط أرض الاستعراض المزدحمة، أصبح واضحًا أن هذه المخيمات المتفرقة لشيوخ مختلفين؛ كل منهم نصب خيامه على شكل دائرة حظيرة للأغنام والفراخ والجمال والخيول لحمايتها من اللصوص وقطعان الكلاب الضالة. ارتفعت هنا وهناك بين الأخبية المغبّرة المصنوعة من جلد الماعز خيام

دائرية فخمة، تغطيها (كنارات) ذات ألوان زاهية، خارجها جلس رجال يرتدون صدرات غنية بالتطريز ويلبسون أحذية صفراء طويلة الرقبة خاصة بالقادة، جلسوا يتحادثون ويشربون أكواب القهوة الصغيرة ويمررون غليونا مشتركا. شدّ الليفتاننت دوفور، الذى كان يسبق إيميلين بمسافة بسيطة، لجام جواده ليعود فيجيب عن سؤال لها.

– «إن الخيام الأكثر إحكاما فى صنعها تخص المرابطين. إنها دائما ما تكون الأكثر إبهارا. لكن كما ترين، يا مدام، لقد جاء الشيوخ والقادة من كافة أنحاء الجزائر ليشهدوا معجزات زوجك. إن عددهم كبير جدا إلى الدرجة التى استحال معها أن تستوعبهم مليانة».

– لامبير سأل «لكن ماذا عن العرض؟ من المؤكد أننا سنحد من حجم المشاهدين؟»

– «بالطبع. دعونا المرابطين فقط والشيوخ البارزين وأقاربهم. ورتبنا إقامة سلسلة من المآدب وحفلات الاستقبال لأولئك الذين استبعدوا من الحضور كتعويض لهم. لكن يتعين علىّ أن أخبركم، أنه خلال الأيام القليلة الماضية وفر لنا الشيوخ من أسباب اللهو والتسلية على نطاق لا يمكننا أن نجاريه. أقاموا سباقات للخيول والجمال وعروض لمهارات الصيد وأعمال تنطوى على الجسارة بل تدريبات عسكرية. يشترك العرب والقبائل فى حب مثل هذه العروض. وبالمناسبة، يقيم المكتب العربى مأدبة الليلة».

– نظر دوفور إلى إيميلين. «يؤسفنى القول بأنها للرجال فقط».

– ابتسمت إيميلين. «يسعدنى أن أسمع هذا».

***

كان الحصن الفرنسى فى مليانة يقع فى قلب البلدة، يعلو بارتفاع ثلاثة طوابق فوق مجموعة المساكن العربية المتراصة. أحيطت جدران ومبانى الحصن بمساحة كبيرة للاستعراضات العسكرية. رأت إيميلين وهى تنظر لأسفل من نافذة حجرة النوم فى الطابق الثالث مشهدا من الحركة المحمومة حيث أخذ الجنود الفرنسيون يبنون مستويات متدرجة لأماكن القعود لتحويل المربع إلى صالة مسرح. فى المركز نصب النجارون بالفعل خشبة مسرح تعلو نحو ثلاثة أمتار عن الأرض. وعلى الجانب الأيسر من المسرح، أنشئت حجرة مرتجلة لتغيير الملابس كيفما اتفق وملحق بها أجنحة تمكن لامبير من الظهور والاختفاء عن الأنظار، مثلما هو الحال فى المسرح العادى. وفى وقت سابق كان لامبير قد رافق جول عند وصولهم إلى جناح المرضى. رأته الآن يقطع المربع ويصعد على خشبة المسرح المؤقت، ويفحص ألواح الأرضية الخشبية ويختبر المسافة الخفية أسفل الألواح حيث ستوضع أجهزته الكهربائية. كان قد أخبرها بالفعل أنها فى صباح الغد لا بد أن تكون مستعدة لإجراء تدريبين على الأقل كى لا يحدث أى خلل. كانت المفاتيح الكهربائية التى ستحركها مجرد ذراعى رفع بسيطتين لكن التوقيت لا بد أن يكون دقيقا.

– «وعلى أية حال، لا داعى للقلق، يا محبوبتى. ستكونين فى غاية الدقة عندما أبدأ عرضى. بالمناسبة، أخبرنى كابتن إرسان أنهم يرتبون أمر إرسال العشاء لك فى حجرتك الليلة. هم يتوقعون أن تستمر المأدبة لساعة متأخرة. سأحاول ألا أزعجك حين أعود. أريدك أن تأخذى قسطا وافرا من النوم».

***

انبلج الفجر فأطفأ نجوم الليل وأضاء السماء بلون أحمر ليمثل أفق محيط التلال الصحراوية المحيطة بمدينة مليانة. نظرت إيميلين، التى

ارتدت ملابسها الآن، إلى أسفل، فى مربع حصن المكتب العربى حيث فتح عريف فرنسى شاب باب المستشفى وجاء بدلوي قاذورات وأفرغهما فى مجري صرف الأمطار. جول. جول، إن كانوا فى المنزل، كان سيجيئها حاملا الإفطار صاعدا الدرج، هو الآن يرقد خلف باب هذا المستشفى.

نظرت وراءها إلى داخل الحجرة حيث ينام زوجها ثم انسلّت حاملة حذاءها كى لا توقظه، خارجة من شقتهما، هابطة الدرج الحجرى، مسرعة عبر مدرجات المسرح الجديد والتى جرى تركيبها من أجل العرض القادم. وسطعت الشمس، متحررة من بداياتها المحمّرة، بضوء ذهبى سافر أثناء سيرها على بلاط الممرات المغبّرة بالرّمال. دوى صوت البروجى من فوق الأسوار لإيقاظ الجنود. وبعدئذ سمعت مثل صدى فى موسيقاه المحتضرة استدعاءات أقدم عمرا من مآذن مساجد المدينة الدعوة للصلاة.

عندما غطتها ظلال المستشفى وهى داخلة إليه، جاء العريف، الذى رأته فى وقت سابق، نحوها وقد دفعت قبعته الفاروقية للوراء على جبهته، وأخفى زيه العسكرى لباساً أبيض طويلاً، ذراعاه عاريتان ومبتلتان من الغسيل.

– «مدام؟ أو تسألين عن مسيو جوايومين، نعم؟ إنه هنا». قادها عبر ردهة مرورا بعنبر صغير رقد فيه ستة جنود مرضى نائمين ثم إلى داخل حجرة طويلة ضيقة مكتوب عليها عنبر العزل. كان يوجد سريرين فى هذه الحجرة لكن واحدا فقط كان مشغولا. فوق ظهر كل سرير كان يوجد رف عليه قدح من الصفيح ومبصقة بيضاء وأعلى كل هذه الأشياء ملحوظة مطبوعة ومثبتة بدبوس رسم.

مستشفى مليانة العسكرى

قواعد الخدمة الصحية

المرضى المدنيون الخاضعون للإجراءات التأديبية

استدار جول الذى كان يشغل السرير ليواجهها، جمدت عيناه فى البداية كأنما لا يستطيع أن يبصر. لكن فجأة، جاهد كى يجلس.

– «مدام؟ مدام؟ أين مسيو؟ لا بد أن أكلمه».

كان شعره الداكن، المبلل بالعرق يسقط على حاجبه فى شرائط سوداء، كأنما حاول رسام ما غير مرئى أن يمحو وجه جول الذى تعرفه. ذهبت إلى سريره وأمسكت بيده وحملتها فى يديها. طوال السنين التى أمضاها فى خدمتها وخدمة زوجها لم تلمس يده قط إلا مصادفة. والآن عندما سمعت العريف ينطق بالاسم «جوايومين» لم تعرف فى البداية أنه يقصد جول. ملأها الإحساس بالعار وهى تمسك بيده الرطبة والمحمومة وتحاول البحث عن كلمات لبث الراحة فى نفسه. أمسك بيد شخص يأتى لى بوجباتى، يأمر لى بعربة، يساعدنى فى إدارة المنزل ويعاون أونرى فى عمله، شخص عاش تحت سقف بيتنا لسنوات ومع هذا، أصيب بالحمى لأننا أتينا به إلى هنا، ويظل شخصا أجهله.

قالت له «عليك ألا تقلق يا جول. يقول الليفتانت دوفور إن مرضك سينتهى. خلال أيام قليلة، عندما يقدم مسيو عرضه وتكون قد تحسنت حالتك مرة أخرى سنعود إلى منزلنا».

– «لكن كيف يتأتى له ذلك؟» استرخى جول إلى الوراء كأن الكلام أنهكه. «من الذى سيتولى أمر الروافع؟ من الذى سيعرف ما الذى سيقدم له ومتى؟»

– «ستتولى أنا الأمر. عليك ألا تفكر فى هذا الشأن. استرح الآن ولتشفى».

أغمض عينيه كأنما لينام لكن يده أطبقت بقوة مباغتة على يدها.

– «مدام! يمكن أن أموت هنا. إذا فعلت، عدينى أنك ستأخذين جسدى معك إلى فرنسا. عدينى بأننى لن أدفن فى هذه الرمال؟»

– «إنك لن تموت».

– «كيف يمكنك أن تقولى هذا يا مدام؟ أنت لا تدرين. عدينى؟ أرجوك؟»

نظرت فى عينيه المتوسلتين. «نعم، نعم. أعدك».

تراخت يده، وفكّت إطباقها على يدها. أومأ لها العريف الواقف بالباب أن تتبعه. ذهبا إلى الخارج.

قالت «هذا المرض، هل هو معد؟ لماذا هو فى عنبر العزل؟»

– «يمكن أن يكون كذلك. لكنه هناك لأن هذا هو المكان الذى نضع فيه الذين قد يموتون بالليل. إذا ما استيقظ المرضى الآخرون فى الصباح ورأوا جثة...» هزّ العريف كتفيه.

– «إذن، يحتمل أن يموت؟»

– «نعم، بالطبع. لا بد أن ننتظر ونرى».

– «لكنه... هل بدأ يسرى مفعول الأقراص؟»

– «لا بد أن تتحدثى مع الطبيب يا مدام. هو ليس موجودا فى الوقت الحاضر».

خرجت إلى ضوء الشمس فى الفناء. بدأ الجنود يركّبون آخر الصفوف المدرجة للمقاعد. على خشبة المسرح، كان نجارو الجيش يدعمون الأجنحة التى تستطيع هى ولامبير أن يرتاحا فيها فى أجزاء

معينة من العرض. دعاها الرقيب المسئول عن هذا العمل أن تنضم إلى رجاله فى شرب القهوة وتناول شريحة من الخبز العربى المسطح. قال لها «سيأتى مسيو بعد قليل. كل شىء معد وفق طلبه». رأت إيميلين، وهى تشرب القهوة فى كوب من صفيح عبر المدخل الرئيسى الذى يعلوه قوس، حركة مضطربة لجمال فى الشارع بالخارج. راقبت حداة الجمال كيف يجعلونها تبرك بالدقّ بالعصى تحت ركبها مباشرة. أخذ حداة آخرون ينادون على بعضهم البعض وسط بحر من ظهور الجمال وتتمايل رؤوسها يمنة ويسرة بينما يجرى تفريغ صرر منتفخة وألواح وزمزميات وصناديق شحن تحمل حروفا عربية كوّمت فى حزم ضخمة على بلاط الممرات.

وفجأة سكت الصياح. صمت السائقون بجانب خواصر حيواناتهم البنية والرمادية مع مرور مجموعة صغيرة من فرسان عرب يجرون باعتدال، يفسحون الطريق لراكبين يتحركان الآن ببطء في الشارع. جلس على الفرس المتقدم رجل نحيف طويل ذو لحية بيضاء يرتدى عباءة من الحرير الأخضر وعلى رأسه عمامة عالية على شاكلة المرابطين. كان خلفه راكب أصغر سنا يلبس برنسا رماديا. مر هذا الراكب بالفناء حيث جلست إيميلين، التفت لينظر إليها فى الداخل. وبالرغم من البرنس والجلسة الرجالية منفرجة الساقين للراكب إلا أن الراكب كان امرأة ضئيلة وواهنة، وجهها ذابل كأنما قضت سنوات فى صيام.

نهض الرقيب المسئول، الذى كان جالسا بجوار إيميلين وجرى محدقا من المدخل ذى القوس. أخذ سائقو الجمال الذين لم يعودوا صامتين، يتنادون فى ابتهاج وحماسة مع اختفاء الراكبين وجماعة الحرس المرافقة لهم عن الأنظار. عاد الرقيب من المدخل وهو يهزّ رأسه. قال وهو لا يكلم

أحدا بعينه «كنت على حق. لقد جاء المرابط. إن الكولونيل سيسعد». نظر إلى إيميلين «وسيسعد مسيو لامبير، سيسعد جدا. أليس كذلك يا مدام؟»

- قالت «إذن، هذا! هو بوعزيز. الرجل ذو الرداء الأخضر؟»

- «نعم يا مدام. والمرأة كانت ابنته».

***

ظهر لامبير بعد دقائق فى الفناء. وأخبر بالفعل بوصول المرابط. لاحظت إيميلين أن هذه الأنباء جعلته عصبيا ومع بدء تعليمه لها مهامها كان ملحاحا ومفرطا فى اللوم، يجعلها تكرر مرة بعد أخرى مهمة بسيطة مثل مناولته قرن الخصب، تقديمها حزم الورد وهدايا أخرى، مساعدته فى نقل الطاولة إلى وسط المسرح، كنس الريش الذى بعثره على الأرضية. لم يبد أن أيا من هذه المهام عسيرة بالنسبة لها وأحست بتوتر مبهم عندما سألها أن تكررها. لكن عندما حان وقت ذراعى الرفع التى تتحكم فى الشحنة الكهربائية فى الصندوق الثقيل، أحست فجأة بفقدان الثقة.

قال لامبير «إن التوقيت هو كل شىء. ستكونين فى الأجنحة غير مرئية، منسية. لن يرى إشاراتى أحد سواك. لا بد أن تتصرفى على الفور فى كلا الاتجاهين بفتح التيار لتثبيت الصندوق فى مكانه فتسرى الشحنة وفوق كل شىء تحريك هذا المقبض فى نهاية العرض لإعطاء الشخص المتطوع صدمة كهربائية. لا بد أن تتأكدى من أن الصدمة مستمرة لمدة ثلاثين ثانية. راقبى الساعة الموضوعة فوق جهاز الشحن. لا تشاهدى ما يجرى على المسرح. تجاهليه إذا صرخ تألما. فقط راقبى الساعة. ثلاثون ثانية لا أقل ولا أكثر . سيتكفل هذا بإعطاء المشاهدين وقتا كافيا لرؤية ألمه».

– «لكنه أمر شديد القسوة. لست أدرى إن كنت سأستطيع أن أفعله».

– «هل سبق لك أن رأيت رجالا قتلوا فى حرب؟ قتلوا برصاصات، قذائف مدفعية، داست عليهم الخيول، دفنوا فى مقابر جماعية؟ أو أسروا وضربوا وجوّعوا؟ إن هذا ما أحاول منعه. نحن نتحدث عن القتلى من الفتيان الفرنسيين، المجندون المرسلين إلى هنا ليؤدوا واجبهم. ثلاثون دقيقة من الصدمة الكهربائية لن تترك آثارا لاحقة. أرجوك يا إيميلين !»

– «أتمنى أن تعثر على شخص آخر».

– «أنت تعلمين أننى لا أستطيع. ونحن وعدنا دنيو، أتذكرين؟»

– «دنيو ! دائما دنيو !».

قال «ماذا تعنين؟ دنيو لم يجعلنى آتى إلى هنا، أنا أردت أن آتى. والآن وبعد أن صرت هنا، الآن وبعد أن واتتنى فرصة إنقاذ الآلاف من الأرواح، هل سيسفر ذلك عن لا شىء لأنك رفضت أن تساعدينى؟ يا إلهى، إيميلين ! بالإضافة إلى أن هذا العرض لن يكون مثل أى عرض سابق له. للمرة الأولى فى حياتى أشعر بالخوف. ماذا لو أن شيئا ما لم يسر على ما يرام؟ كل ما أفعله على المسرح يعتمد على المهارة والتوقيت وفوق كل شىء قدرتى على أن أخلب ألباب المشاهدين. هؤلاء المشاهدون ! عرب متوحشون! إنى بحاجة إليك، ألا تفهمين، لا أريد جنديا غبيا يفسد كل شىء. ستكونين رائعة، ستكونين متناهية الدقة بحلول مساء الغد، أعدك. حسنا؟»

هزّت رأسها موافقة. كان الأمر كما هو. كان هو الرجل، هو الذى يدير الدفة. جاء إليها بعدئذ وقبّل خدها:

– «شكرا لك يا محبوبتى. سامحينى لأنى طلبت منك هذا. لكن تذكرى: أنى طلبته من أجل بلدنا».

قالت «بلدنا؟ وماذا عن هذا البلد؟»

- «هذا البلد؟» بدا حائرا.

- «لا شىء».

***

هبط دنيو فى الفناء قبل الرابعة بقليل، وأخذ يراقب لامبير وهو يجرى التدريبات على العرض مع إيميلين للمرة الثامنة. عندما فرغ لامبير، صفّق دنيو ثم قفز معتليا خشبة المسرح وقبّل يد إيميلين، مهنئًا إياها.

- «رائع ! لم يحدث فى التاريخ أن وجد نقيض لساحر بكل هذا الجمال. والآن أريد أن أطلب منك معروفا أخيرا أيتها المدام العزيزة. نعتزم إقامة حفل عشاء لبوعزيز الليلة بعد أن وصل، ويحدونا أمل كبير فى أن تلبى الدعوة وتحضرين».

- «ظننت أن مآدبكم مقصورة على الرجال؟»

- «ستحضر ابنة المرابط. إنها ترافقه تقريبا فى كل مناسبة يدعى إليها. أحسب أنه من اللائق أن تمثلينا كزوجة مرابطنا».

قال لامبير «هل سأقابل بو عزيز قبل العرض، إذن؟ إني أتساءل عما إذا كان ذلك من الحكمة؟»

قال دنيو «أخشى أن أقول إنه لا يوجد لدينا خيارات كثيرة. وقتما دعوته للعشاء معنا، قال على الفور إنه سيتشرف بأن يقتسم الخبز مع مسيو لامبير. وهكذا، أكدت له بالطبع أنك أنت الآخر ستتشرف. واكتشفنا أنها ستكون المرة الأولى التى يتناول فيها عشاءه بالأسلوب الفرنسى. ستكون تجربة جديدة لكل واحد منا».

كان من الطبيعى أن يكون الكابتن راؤول قائد ثكنات مليانة، هو المضيف لكن دنيو، كرئيس المكتب العربى، كان له السيادة بالطبع،

وهكذا وقف هذه الليلة محاطا بمرؤوسيه مرحبا بمجموعة تربو على عشرين شيخا ومرابطا وقيادات مدنية وهم يدخلون فى ظابور قاعة العشاء فى الحصن عندما وصلت إيميلين ولامبير همس دنيو لزوجها «إنه لم يحضر بعد. ابق بجانبى. ستكون أول من يقدم له».

أخذ الشيوخ والمرابطون يتبادلون الشائعات وينظرون حولهم، وهم فى انتظار بوعزيز، على نحو ذكّر إيميلين بتلك الأيام التى قضتها منذ أسابيع قليلة عندما احتشد الجمع فى قاعة الاحتفالات الكبرى انتظارا لقدوم الإمبراطور وقرينته. كان دنيو كمضيف يشع نفس اليقظة الواثقة التى تحلى بها كبير أمناء البلاط فى كومبيان، عندما دخل أخيرا المرابط وابنته القاعة وسط تمتمة خفيضة، فى جو من الترقب، ذهب إليهما دنيو ونطق ببعض عبارات ترحيب بالعربية ثم التفت إلى لامبير وقدّمه إلى بوعزيز. انحنى المرابط انحناءة بسيطة إلى لامبير، ثم قال شيئا ما، ترجمته ابنته وهى تتحدث بفرنسية فائقة:

– «والدى يرحب بك وبزوجتك ويسأل الرب أن ينزل بركته عليكما».

اتجه بوعزيز بقامته الطويلة وظهره المحنى إلى إيميلين، أثناء تحدث ابنته، وعلى وجهه ابتسامة رقيقة كأنما ينتظر منها أن تتكلم. بماذا يمكن أن تجيب؟ أحست بأن وجهها يحمّر خجلا وهى تلتفت إلى ابنة المرابط وتقول:

– «نحن تشرفنا. نحن نشكره».

ابتسم المرابط ثانية والتفت إلى مجموعة من الشيوخ الذين جاءوا لتحيته. اقترب دنيو من إيميلين، وهو راض، قائلا فى نعومة «بداية رائعة، يا عزيزتى. أشكرك».

ثم أشار دنيو، يا لفزعها، إلى مائدة العشاء. «ستجلسين هناك فى الوسط على يمينه. ستجلس ابنته على يساره. ستكون مفاجأة بالنسبة له

أن يجلس بين سيدتين. إن هذه ليست من عادات العرب. لكن هنا، كما سترى، نحن فى فرنسا».

وهكذا اقترب من ابنة المرابط وأخذ ذراعها وهو يقودها إلى وسط المائدة، ولوّح بيده فى إشارة إلى إيميلين أنها يجب أن تجلس الآن فى المقعد المخصص لها. عندما جلست هى وابنة المرابط، اقترب دنيو من المرابط وقاده مبتسما إلى مقعد بينهما. لاحظت إيميلين أن المرابط تردد، كأنما خشى وقوع خطأ ما. لكن عندما جلس فى نهاية الأمر وهو يطوى ثنايا عباءته الخضراء تحته، التفتت ابنته إلى دنيو وعلى وجهها ابتسامة.

- «أخبرت والدى أن الليلة سنتناول عشاءنا بالأسلوب الفرنسى. سيكون هذا جديدا بالنسبة له أن يجلس مع السيدات!»

بدأ دنيو بالقول «لكنه إذا كان يرغب».

- «كلا، كلا، إنه يتمنى أن يتم كل شىء مثلما تفعلون فى بلادكم. وطلب منى أن أبلغكم أنه لا هو ولا أهل بلده سيشعرون بالإساءة إذا قدمتم نبيذا لمن يرغب».

قال دنيو «إن هذا غاية فى الكرم».

رأت إيميلين أنه التفت إلى المرابط وحدّثه بالعربية. وأجاب المرابط بابتسامة رقيقة، ثم ابتسم إلى لامبير الذى كان قد أجلس أيضا فى وسط المائدة، ولكن فى الجهة المقابلة لبوعزيز.

والآن بعد أن أعفيت إيميلين من الحاجة إلى التحدث، يمكنها مراقبة مسرح هذه الأمسية. كان العشاء، الذى أعده طاهى القائد، سلسلة من الأطباق العربية التى يتهافت عليها لكنها قدمت على فرش المائدة وفى أطباق من الخزف معها أكواب من الكريستال وأدوات أكل من الفضة. أمسك المرابط بشوكة وراقب مضيفيه، محاكيا فى تخبط ما يفعلون. لم

يشرب هو والمرابطون والشيوخ الآخرون سوى الماء أو لبن الماعز. تحدّث قليلا، وكانت تعليقاته بالأساس إجابات عن أسئلة طرحها عليه بالعربية دنيو وإرسان. لكن مع تقديم الطبق الثانى من الكسكسى، التفت إلى ابنته واستخدم يديه فى الإشارة إلى لامبير.:

- «إن والدى يقدّم لك اعتذاراته ويسألك أن تسامحه. إنه لم يفهم أنك حينما قدّمت له فى وقت سابق أنك المرابط الفرنسى الكبير الذى أتى على شرفه إلى مليانة. لقد سمع بأنك قدمت عرضك فى مسجد فى الجزائر العاصمة. باركك الله».

قال لامبير «قولى لوالدك إننى أشكره على تمنياته الطيبة. لكننى قدمت معجزاتى فى تياتر بات آزون، وليس فى مسجد».

رفع المرابط يديه مبتسما كأنما فى حالة دفاع عن النفس.

قالت لهم ابنته «إن والدى يعيش هنا. لم يذهب قط إلى مسرح. لقد أبلغ بأنك قدمت معجزاتك كعمل من أعمال التعبد وفى مكان مقدّس».

قال لامبير: «إننى مندهش ممن يكون قد أخبره بهذا». والتفت إلى دنيو كأنما لمعاونته. وفى التو، شرع دنيو فى تقديم شرح بالعربية، متحدّثا فى عجل وإلحاح لبوعزيز، بدون أن يعبأ بالترجمة لصالح لامبير. لاحظت إيميلين على الفور أن هذا أغضب زوجها الذى قام ومدّ قامته عبر المائدة ولمس ذراع ابنة المرابط وقال بصوت عال:

- «أخبرى أباك أننى أستطيع أن أقدم معجزاتى فى أى مكان وأى زمان. وفى الغد كما سيرى سأقدم عملى فى الهواء الطلق».

مال المرابط إلى الأمام يستمع بينما ابنته تترجم ثم تحدّث فى نعومة كأنما يتأمل كلماته.

– «والدى يقول إنك على حق. لا يهم إن كنا نعبد الرب فى مسجد أو فى سوق أو فى تيه رمال الصحراء. إنه فعل العبادة هو الذى يربطنا بالرب. إن معجزاتك كما يقال لي رائعة المنظر. إنك مبارك لأنك بهذا الأسلوب يمكن أن تكون شاهداً على عظمة الرب. غدا سيحمد الرب عبر هذه المعجزات».

التفت المرابط إلي دنيو وتحدث بصوت خفيض. لاحظت إيميلين أنه بدا منهكا، فرأسه يهتز للأمام، كأنما يعاني ألما، وأصابع يده اليسرى تلمس فى استثارة حبّات مسبحة ملتفة حول عنقه. نظرت عبره إلى ابنته البسيطة الصبور.

– «هل والدك مريض؟»

– «كلا يا مدام. لكنه يطلب الإذن بالانصراف. يوشك أن يحل وقت الصلاة الخامسة، صلاة العشاء. لا بد أن نغادر الآن».

نهض بوعزيز وقال شيئا ما للضيوف الآخرين. أومأت الرؤوس ووقف الشيوخ والمرابطون الآخرون وانحنوا وهم يهمسون ما خمنت إيميلين أنه كلمات توديع. انحنى لإيميلين ولامبير على التوالى ثم توجه إلىَ باب قاعة الطعام، يرافقه دنيو. عندما انصرف، رأت إيميلين أن الشيوخ تجمعوا سويا فى مناقشة حامية مفاجئة. بعد دقائق قليلة، جاء دنيو، الذى بدا أنه يسترق السمع إليهم، جاء إلى لامبير وقال : «إنهم قلقون. بوعزيز لم يوح الليلة بالثقة. أتوقع أنه بعد غد، إذا سار كل شىء علي ما يرام، ستكون أنت المرابط الكبير».

***

لم ترتد فى حلمها فى تلك الليلة الفستان الرمادى الطويل الذى قرر لامبير أنها يجب أن ترتديه على المسرح، إنما وقفت عارية، كل ما يغطى

جسدها هو صدرة جول المقلمة بخطوط سوداء وذهبية، المفتوحة لتكشف عن صدرها. كان فى مواجهتها جدار من الوجوه العربية، وجوه رجال ملتحين مبهمين يراقبونها وهى تنحنى لالتقاط الريش الذى نزعه زوجها من قرن الخصب وبعثرة على الأرض. وعليها فى الحلم أن تدير ظهرها لهذه الوجوه وتنحنى لأسفل لتكشف عن عرى مؤخرتها فى مرمى نظرهم. استيقظت يتقصد منها العرق فى ليل الصحراء البارد. بدا أن زوجها نائم على أريكته بعرض الحجرة. نهضت وخرجت إلى الشرفة المطلة على مربع الثكنات حيث يقبع المسرح فى قلبها. نظرت عبر الميدان إلى عنبر المرضى حيث يوجد مصباح وحيد مشتعل أمام نافذة. أكانت تلك حجرة جول؟

فجأة سمعت صوت لامبير من خلفها.

- «ألا تستطيعين النوم يا محبوبتى؟»

التفتت. وقف مواجها لها فى ضوء القمر وشكله يثير الدهشة بشبكة الشعر التى يضعها.

قالت «لقد حلمت حلما مزعجا».

- «آه؟ وما ذاك؟»

- «كنت عارية على المسرح أمام العرب لا يسترنى سوى صدرة خادم».

- «رهبة الصعود على خشبة المسرح»، قالها وضحك كأنه قال نكتة. «إنه أمر يحدث لكل مؤدى. لكنك لن تكونى عارية، ما أبعدك عن ذلك. فى الحقيقة، كنت أرمى إلى أن أخبرك. شارل يظن أنها ستكون فكرة طيبة، إذا ظهرت على المسرح ترتدين حجابا على الطريقة العربية. إن بعض الشيوخ جد محافظين. يجرح أعينهم ظهور أى امرأة، حتى وإن كانت

أجنبية، بدون حجاب. بالإضافة إلى أن مساعدى يعد جزءا من المنظر. إن المشاهدين يراقبوننى أنا وأنا وحدى».

حدّقت فيه. شارل. شارل يظن... مرة أخرى، دنيو يستخدمنا مثل الدمى.

– «لماذا لم أخبر من قبل بهذا؟»

– «تخبرين بماذا يا عزيزتى؟»

– «بالحجاب. من المؤكد أنه كان يجبَ أن يأخذ رأيى؟»

– «لكن لم؟ ألا ترغبين فى وضع حجاب؟ تصورت أنك ستسعدين. أعرف أنك تكرهين أمر الاستعراض أمام الجمهور».

– «ليس هذا بيت القصيد. ظننت أنك أنت الساحر. هل هو عرضك أم عرضه؟»

– «عمّ تتحدثين؟ لا أفهم».

– «لا شىء. لا يهم. كيف حال جول؟ هل زرته الليلة؟»

– «كلا، لكنى تحدّثت مع طبيبه. لم تزل الحمّى بعد. دعينا ندخل، لنفعل؟ إن الجو بارد هنا فى الخارج».

أحست بيده على كتفها لكنها لم تلتفت.

– «سآتى بعد لحظة. إنى بحاجة إلى الهواء».

سمعت وقع خطواته الخافتة على الأرضية بخفّيه المصنوعين من الصوف. خارج أسوار الحصن، عوى كلب ضال مستثيرا كورس من العواء القصير. أتت فى ذهنها صورة الإمبراطور بشاربه الطويل المشمع، ولحيته المدببة الشبيهة بالساتير، يده المتراخية تحمل سيجارا نصف مشتعل. «فى الربيع سأكمل فتحنا لهذا البلد بكامله».

الفصل العاشر

[illegible]

الظهر: فى مساجد المدينة، فى أفنية الدور الخاصة. فى الأزقة المظلمة، فى الحارات الضيقة، وخارج أسوار مليانة، مرورا بالمخيم الكبير من الخام والأكواخ، غطّى الرجال رؤوسهم وخلعوا نعالهم وبسطوا سجاجيد وحصرا وخرّوا ساجدين فى الصلاة. فى مربع التكنات داخل الحصن الفرنسى، وقف العمال من القبائل، الذين نصبوا القوائم، متجاهلين لامبير وإيميلين ودنيو الذين استظلوا تحت أقواس المربع، وقفوا راكعين سويا رؤوسهم متجهة إلى مكّة، يتلون صلواتهم، كأن كل واحد منهم بمفرده مع ربه. التفتت إيميلين، التى يحركها هذا الإخلاص، إلى دنيو وتساءلت:

– «كنت أتساءل ما الذى يقولونه؟»

قال دنيو وهو سعيد باستعراض معلوماته «الصلاة؟ إنها من القرآن. إنها ﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين

أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أحسب أنك يمكن أن تسميها نسختهم من الصلاة الربانية. لا تختلف كثيرا عنها، أليس كذلك؟»

قالت إيميلين «أظنها تختلف». نظر كلا الرجلين إليها، كأن الدهشة تملكتهما من أنها يمكن أن يكون لها رأى.

قال دنيو «حقا؟ من أية ناحية؟»

- «هم لا يسألون عطايا، أو خبزا يوميا أو غفرانا عن التجاوزات أو الخلاص من الغواية والشرور. كل ما يسألون هو عون الرب فى أن يهديهم إلى الطريق الصحيح. أليس هذا هو ما يجب علينا جميعا أن نسأله؟»

قال دنيو مبتسما فى ابتهاج «أيتها المدام العزيزة! إنك تدهشينني على الدوام. والآن...» فتح حافظة أوراق وأخرج منها غطاء للرأس من القطن الأبيض وحجابا من الساتان الأبيض. «ها هو وسيلة تنكرك الإسلامية، يا سيدتى العزيزة. حاولت أن أعثر على حجاب حسن. الآن، يا أوترى، سنبدأ بإجلاس مختلف الشيوخ وفرق الجنود الجومية[1] بعد الواحدة بقليل. سيكون بوعزيز ومرافقوه هم آخر من يصلون. عندما يجلس سأبدأ تقديمى. لن تظهر إلا بعد أن أنتهى من كلامى. أود أن تسير بين صفوف الشيوخ والمرابطين متجاهلا إياهم وتصعد على خشبة المسرح وتواجه الجمهور كله. انحن ثم اشرع. أظن أن هذا سيكون مؤثرا جدا».

---

(١) جومية: مصطلح يشار به إلى الجنود الجزائريين المسلمين الذين خدموا فى الجيش الفرنسى. ويرجع أصل المصطلح إلى فعل قوم العربية. ويتكون القوم من ٢٠٠ جندى، وكل ثلاثة أو أربعة أقوام يكونون طابورا.

جعل لامبير عصاه ذات الطرف العاجى تنزلق من كمّه فى يسر ساحر عليم ولمس بها جبهته فى تحية زائفة. «طوع أوامرك، سيدى القائد».

سألت إيميلين «وأنا، ماذا سأفعل؟».

– «أخشى القول بإننى أريدك أن تتخذى مكانك فى الأجنحة قبل الواحدة بقليل. أعلم أنك ستنتظرين ساعة بمفردك خلف خشبة المسرح. إنى أعتذر. لكنها طريقة وجيدة لضمان تحقيق الحد الأقصى من التأثير لدى دخول أونرى».

قال لامبير «قبل أن نبدأ لا بد أن أحذرك يا شارل أن عرضى اليوم لن يكون مستفيضا مثل ذلك الذى قدّمت فى العاصمة. لن نؤدى الخدعة التى تنطوى على اختفاء عربى، حيث أن إيميلين لن تكون بالقوة الكافية لمساعدتى فى حمل الطاولة التى يقف عليها. كما أننى سأحذف فقرة طاس النبيذ الذى يصب منه كميات من القهوة. لقد قررت أن ينبنى عرضى اليوم على أكثر الفقرتين إقناعا، وهما الصندوق الثقيل وعدم اختراق الطلقات النارية لجسدى. إن هذه القبائل، رجال صحراء لا يتسمون بالعمق والتحضر. أجيبب أنهم ليسوا مثل جمهور العاصمة، مستعدون لأن يرفه عنهم. الخوف هو السلاح الذى يتعين علىّ أن أجريه عليهم».

***

فى الساعة الواحدة فى لظى منتصف النهار الجاف، هبطت إيميلين، مرتدية الفستان الرمادى الطويل الذى اختاره لها لامبير وتحمل غطاء الرأس والحجاب الذى أعطاها دنيو، هبطت من حجرتها ولم يلحظها العمال الذين كانوا يضعون آخر دكك فى مكانها فى آخر مربع التكنات.

ودخلت الحجرة المؤقتة فى الأجنحة على يسار خشبة المسرح. كانت توجد فى ركن ذراعا الرفع الكهربائية التى يتعين عليها أن تشدّها، قرن الخصب الذى يتعين عليها أن تسلّمه لزوجها، الريش الذى سيبعثره على الأرضية وعليها أن تلتقطه والبونبون وهدايا يتعين عليها أن تقدمها للجمهور. جلست أمام مرآة صغيرة، غطّت شعرها أولا بغطاء الرأس ثم أحكمت البرقع على وجهها بحيث لا يرى سوى عينيها وجبهتها. عندما انتهت من هذا حدّقت فى وجهها امرأة عربية عبر المرآة، كأنما بفعل التنكر البسيط هذا لم تعد إيميلين لامبير. بعد دقائق، سمعت أصواتاً آتية من الشوارع فى الخارج؛ وقع حوافر الخيول وصيحات سائسى الجمال وفرقعة طلقات نارية من بنادق عن بعد. التفتت لتنظر من فجوات رقيقة بين ألواح الخشب فى حجرة تغيير الملابس، فرأت أولى الفرق العربية تصل إلى المربع فى الحصن. بدأت فرقة موسيقى عسكرية فرنسية غير مرئية فى عزف مقطوعة عسكرية بينما أسفل موقعها المتميز، سارت الهوينى جمهرة زاهية الألوان من رجال عرب يرتدون البرانس البيضاء أو الحمراء أو الزرقاء، يحمل الكثير منهم بنادق عتيقة والبعض يحمل سيوفا وخناجر، بين الممرات حيث انتظر جنود فرنسيون وحفنة مترجمين ليدلّوهم على مقاعدهم. لم تكن هناك نساء بين الجمهور. نظرت مرة أخرى إلى الأنثى المبرقعة فى المرآة. نظرت إلى ذراعى الرفع، تلك الذراعان السوداوان اللتان يتعين عليها شدّهما لإيقاع الألم. اليوم يعتمد على أونرى. لن يسامحنى إذا أخطأت.

مر الوقت. تغيرت الموسيقى، انتقلت فرقة الموسيقى العسكرية إلى ألحان أوبريتات. فجأة خبت الموسيقى وتراجعت مع تصاعد جلبة من الدكك المزدحمة أسفل. نهضت إيميلين من مقعدها وحدّقت من ثقب

صغير من جانب الأجنحة. سار بوعزيز ببطء في الممر الأوسط متأبطا ذراع ابنته، يميل يمنة ويسرة، لرد التحيات والسلام الآتي من كل جانب، وكان دنيو يتقدمه، واضعا أوسمة ونياشين وحاملا سيفا وقد وقف أسفل خشبة المسرح منتظرا أن يدلّ المرابط على مكانه في الصف الأول. وبمجرد أن اتخذ بوعزيز مقعده، أشار دنيو إلى قائد الأوركسترا العسكرية. دوت الطبول ونفخت الأبواق أعقبها أنغام النشيد الوطني الفرنسي المارسيليز. رفع دنيو ذراعه فوق رأسه لجذب الانتباه.

– «اليوم إلى رمال الصحراء، وإلى ضياع منطقة القبائل أتي أعظم مرابط في فرنسا قاطبة. أقدّم لكم أونري لامبير».

لم تر إيميلين زوجها يسير في الممر لأن تعليماته لها أفادت توجهها الآن نحو الأجنحة. عندما وصلت إلى المكان الذي أمرها بالوقوف فيه، رأت أنه واقف بالفعل على خشبة المسرح. إنحنى للجمهور، وهي إشارة لها أن تظهر. خرجت إلى ضوء الشمس وسارت باتجاه الطاولة في مؤخرة خشبة المسرح، وأخذت القبعة الطويلة الموضوعة هناك. هبطت من على خشبة المسرح سلّمتها إلى لامبير ثم تراجعت وهي مستمرة في مواجهة الجمهور مثلما كان يفعل جول عند مساعدته لسيده. والآن يقف لامبير وظهره لها وهو لا يرتدي معطف الفراك وربطة العنق والصدرة الكتّانية كعادته لكن لبس، كأنما في نزهة في نهر السين، قميصا مفتوح العنق وبنطلونا أبيض، ومرر عصاه ذات الطرف العاجي على القبعة. وأدخل يده فيها ليخرج على التوالي ثلاث كرات مدفعية وأسقطها محدثة صوتا على أرضية خشبة المسرح. كما الحال في العاصمة، استحوذت هذه الخدعة على أذهان الجمهور. شاهدوا صامتين في انبهار حيث أدخل يده مرّة أخرى ليخرج يمامتين تركهما تطيران عاليا في الصحراء

القاحلة. كانت هذه إشارة لها أن تأتى بقرن الخصب المصنوع من الورق، وقد تقبله دون أن يتفضل ويلحظ وجودها. فتح الجانب المزود بمفصلة لإظهار خلوه من أى شيء. أغلقه ثم قلبه رأسا على عقب، فأسقط وابلا من قطع البونبون والهدايا الصغيرة التى يتعين عليها الآن أن تجثم لالتقاطها وتقدمها إلى الجمهور. لكن عندما تقدمت إيميلين إلى مقدمة خشبة المسرح وهى مرتعشة وعصبية وحائرة لتسلم الهدايا إلى المترجمين، الذين أعطوها على الفور للجالسين فى الصف الأول، لم تر سوى وجه واحد. مال المرابط إلى الأمام وشكلت عمامته تاجا يحدد جبهته العالية فى إطار وتحولت لحيته الرمادية الكثيفة إلى شرائط صفراء اللون بفعل شمس الصحراء. كانت على عينيه غشاوة ومع هذا فكانت حادة وسلطها على إيميلين فطوقها فى تحديقته. تسمرت كتمثال بينما أخذ مترجم من يديها آخر بقية الهدايا لتوزيعها على الجمهور. فى تلك اللحظة، لم تر المرابط الذى قابلته فى الليلة الماضية إنما وجه غامض غريب مثل محيا السيد المسيح الملىء بالكدمات والمصلوب المطبوع على كفن تورينو[1].

أحنى المرابط الآن رأسه، فأطلق سراحها من سحر عينيه فصرفها فى رفق. التفتت إلى لامبير الذى كان يستعرض أمام جمهوره قرن الخصب الفارغ. مرر عصاه عليه ثم سحب منه بأصابع الساحر الرشيقة ريشة واحدة فى البداية ثم الكثير من الريش الذى بعثره على أرضية المسرح. والآن فى الوقت الذى بدأت فيه فى جرف الريش ووضعه فى

(١) كفن تورينو: هو قطعة قماش من الكتان يحمل صورة رجل تعرض لصدمات بدنية على نحو يتفق وتصور عملية الصلب. وهى محفوظة الآن فى كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان فى تورينو بإيطاليا. ويعتقد البعض أن هذا هو الكفن الذي غطي وجه السيد المسيح عندما وضع فى قبره.

سلّة. هبط لامبير من على خشبة المسرح وتوجه إلى جمهور الصف الأول، ملتقطا من أذن واحد من الشيوخ بيضة ومن أذن آخر عملة معدنية فئة خمسة فرنكات. التقط خفّا خلعه واحد من الشيوخ، ورفعه عاليا، وفجأة أظهر أنه ملىء بالعملات المعدنية فئة خمسة فرنكات قذفها بين المشاهدين. بدا أن هذه الحيلة قد أبهجت الحضور فهتفوا دورروس[1]!، التى ترجمها المترجمون إلى أنه طلب بالمزيد من قطع الخمسة فرنكات. تفادى لامبير فى حرص المكان الذى يجلس فيه بوعزيز وابنته ثم سار مبتسما بطول الممر وأخذ يخرج المرة تلو المرة دورروسا من أنوف وآذان الجمهور المندهش. وفى نهاية المطاف، قادته هذه الحيلة إلى السلالم التى هبط منها. هناك أمسك بعصاه عاليا لوقف الهتافات والتصفيق. وفى النهاية عندما ساد الصمت اعتلى خشبة المسرح ثانية واستدار ليواجه الجمهور. ألقى نظرة خاطفة تجاه إيميلين مذكّرا إياها بوجوب انسحابها. كانت بطيئة فى تنفيذ إشارة لامبير الخفية حيث امتلأت ذراعاها بالريش، وكانت لاتزال مرتبكة ومتأثرة بملاقاتها المرابط. همس لها وهى تمر بجانبه فى غضب «استعدى ! «ثم سار إلى المؤخرة وأخذ صندوقا خشبيا متينا له مقابض حديدية. حمله فى خفة بيد واحدة وعاد إلى وسط المسرح.

وبدأت إيميلين تسمعه يدلى بالخطبة التى ألقاها فى العاصمة متباهيا بأنه «من خلال القوى التى وهبنى الجبار سأستعرض لكم قدرتى على سلب أقوى الرجال من قوته ثم أعيده سيرته الأولى حسب إرادتى. سأطلب من أى شخص يظن نفسه قويا لدرجة المرور بهذه التجربة أن يتقدم الآن».

(١) دورروس: الفلوس

عند سماع هذا أسقطت حزمة الريش وتوجهت وهى مهزوزة إلى ذراعى الرفع السوداوين. اعتلى خشبة المسرح زعيم شاب من منطقة القبائل، شعره فاتح اللون طويل وقد دق وشم على هيئة صليب يونانى صغير بين عينيه.

انحنى لامبير مرحبا وسأله «هل أنت قوى جدا؟»

هزّ الزعيم رأسه مبتسما.

قال له أخيرا «أنت على خطأ. فى لحظة سأسلبك من قوتك وستصبح واهنا مثل امرأة».

فى العاصمة، تذكّرت إيميلين أن زوجها قال «واهنا مثل طفل». وتلقى الجمهور العبارة فى مرح. لكن هنا عندما ترجمت الكلمة امرأة بدت مليئة بالإهانة. ساد صمت عدوانى مباغت فى الدكك المزدحمة عن آخرها والتى ملأت المربع. لكن الزعيم الآتى من منطقة القبائل لم يبد أنه مجروح. ابتسم وهزّ كتفيه وأومأ إلى لامبير كأنما يطلب منه أن يستمر.

قال لامبير «الآن، ارفع هذا الصندوق». انحنى الشاب والتقط الصندوق فى يسر ووازنه بيد واحدة أن يستمر مثلما فعل لامبير من قبل. نظر إلى الساحر ومرة أخرى هزّ كتفيه.

قال له لامبير «ضع الصندوق على الأرض، أرجوك». رفع الساحر يديه وأدارها أمام وجه الشاب. توقف ثم نظر فى استطلاع إلى الجمهور. «منذ هذه اللحظة فصاعدا، أنت أوهن من امرأة».

التفت إلى الزعيم الشاب. «الآن. حاول أن ترفع الصندوق». وبينما لامبير يتحدث كان ينظر إلى ما وراء الزعيم، يحدّق فى الأجنحة فى إشارة سبق الاتفاق عليها. شدّت إيميلين، وهى تهتز مثل رجل آلى، أولى أذرع الرفع السوداء على الفور. انحنى الشاب وأمسك بمقابض

الصندوق الحديدية وسحبها سحبة شرسة. لكن الصندوق، الذى تقيده القوة المغناطيسية للرافعة، لم يتزحزح.

انتصب عود الزعيم وهو يلهث مستديرا نصف استدارة فى اتجاه إيميلين. وعلى الرغم من أنها تعلم أنه لا يستطيع أن يراها، إلا أنها أحست بأنها تخشبت وانسحبت من تحديقه. انهمرت حبات العرق على جبهته وبللت الصليب الصغير المدقوق بين عينيه التى حدقت الآن فى الظلام الذى اختبأت به.

هبّ نصف دستة من الرجال واقفين من بين الدكك الموجودة فى المربع. أومأ الزعيم الشاب ولوّح لهم كأنما يقول : إنه فهم ما يرمون إليه. انحنى وحاول مرة أخرى، مغيرا موقع قدميه، فاتحا ما بين رجليه وأجهد نفسه المرة تلو المرة حتى أنه فى آخر الأمر ترك المقبضين مدحورا.

وقف لامبير يدق بعصاه ذات الطرفين العاجيين على ساق بنطلونه، مثل مدرب حيوانات يوشك على الإشارة إلى خدعة جديدة.

قال «والآن ألن تحاول محاولة أخيرة؟ »وبمجرد ما نقل المترجم ما قاله بالعربية نهض أربعة أو خمسة من قادة القبائل من مقاعدهم وهم يحثون الزعيم الشاب على ألا ييأس. شتتت صيحاتهم إيميلين ونظرت إلى الجمهور، وهو شىء حرّمه عليها لامبير. جلس بوعزيز فى الصف الأمامى فى هدوء مع ابنته، وعينه مثبتة لا على الزعيم إنما على لامبير نفسه. أطلّت إيميلين على زوجها، فى الوقت المناسب كى تراه وهو يرسل إليها إشارته الثانية الخفية.

انحنى الشاب مرة أخرى وأمسك بمقبضى الصندوق الحديدى. جذبت إيميلين ذراع الرفع الثانية السوداء إلى أسفل وهي ترتعش

ومغمضة العينين كأنها هي التي ستعاني من الألم. فوقها كانت الساعة التي ستقيس بها الثواني الثلاثين من الألم المبرح. التصقت يدا الزعيم الشاب بالصندوق، ارتعشت بعنف، لكن بالرغم من صدمة الكهرباء التي سرت في جسده، لم يصرخ. اغرورقت عيناها بالدموع. مدت يدها وهي تنتفض لتمسك بالذراع لوقف التيار، لكنها تذكرت تعليمات زوجها الصارمة فانتظرت حتى اللحظة الأخيرة، نظرت في ترقب إلى المسرح. كان توقيت لامبير فائقا في الدقة، تحرك للإمام في نفس الدقيقة التي سجل العقرب الثاني الثانية والثلاثين. شدت الذراع. لوح لامبير بعصاه على الصندوق بعد أن تحرر الزعيم الشاب من التيار، كان وجهه لايزال منقبضا من الألم، وقف يتمايل في غير ثبات، يحدق في الساحر.

كان لامبير قال لإيميلين إنه إذا كان الضحية لا يزال مصدوما من الكهرباء، فمن واجبها أن تخرج إلى خشبة المسرح وتساعده على أن يعود إلى مقعده؛ استدعاها لامبير الآن بإيماءة خفيفة لمعاودة الظهور. لكن عندما خرجت إلى ضوء الشمس القاسي وذهبت إلى شباب القبائل، ووضعت يدها على ذراعه، التفت كأنه صعق وهزها. خلال الصمت الذي خيم كسحابة على الجمهور، ذهب شاب القبائل إلى طرف خشبة المسرح وقفز على الرمال متجاهلا الدرج، فسقط لدى هبوطه تقريبا عند قدم بوعزيز. وقف المرابط وساعده على النهوض، ووضع يديه على وجه الزعيم الشاب وقال شيئا ما لم يسمعه أحد سوى الشاب. وأخذ الزعيم الشاب يد المرابط وقبلها. وتوجها سويا إلى دكة المرابط، حيث أفسحت ابنة المرابط مكانا لهما ليجلسا.

وفي الوقت الذي حدث فيه هذا وقف لامبير ينظر أمامه مباشرة إلى العلم ثلاثي الألوان الذي رفرف على أسوار الحصن، عادت إيميلين إلى

الأجنحة ثانية انتظارا لأمره التالى. وقفت فى الكواليس بجانب ذراعى الرفع، أزاحت الستار الذى يغطى الثقب الصغير ونظرت والعار يملؤها إلى أسفل حيث جلس بوعزيز، وجهه وقور جامد وعينيه غائمتين منسحبتين مثلما الحال فى غيبوبة التنويم المغناطيسى. بدا الزعيم الشاب فى منطقة القبائل وقد استرد نفسه وفى حالة سكينة بينما التفت خلفهما الشيوخ والمرابطون لبعضهما البعض وأخذوا يتهامسون فى ضيق ويحركون بأصابعهم مسابحهم ويحدّقون من آن لآخر فى الشخص اللغز، المفزع تماما الواقف على خشبة المسرح.

عرف لامبير، الخبير بجمهوره، اللحظة المناسبة عندما يتعين عليه أن يستأنف عرضه. وفى إشارة متفق عليها، أمسك بعصاه ذات الطرفين العاجيين كأنما يفحصها.

وعندئذ قام دنيو من مقعده وتوجه إلى الدرج أسفل خشبة المسرح والتفت ليواجه الجمهور. بدأ يتحدث بالعربية. «ما هى القوة الروحية؟ القرآن يخبرنا بإنها نعمة يمنحها الله لأوليائه من الرجال والنساء تقديرا لإخلاصهم وتفانيهم. إنها نعمة المعجزات، نعمة رفع اللعنة عن امرأة عاقر، لتخليص أسير من أيدى أعدائه وهو مصفد اليدين، لتبريد جروح فى أجساد المصابين بطلقات، وأعظم نعمة قاطبة هى نعمة جعل أجساد الرجال لا يخترقها فى ساحات القتال رصاص أعدائهم. هذه النعمة الأخيرة، كما أخبرتم ستمنح إلى المهدى، المختار من قبل الرب لقيادة جيوشكم للانتصار علينا. لكن من المرابط الذى منح هذه النعمة؟ من المرابط الذى أثبت هذا أمام أعينكم؟

- «أنا أقول لا أحد: لم يظهر بينكم مهدى. لكن هنا فى هذا اليوم، مرابطنا سيظهر لكم أنه، بهداية من الرب، منح هذه القوة».

عندما استمعت إيميلين، الواقفة في الكواليس، إلى هذا الحديث فكانت إشارة لها. التقطت محفظة من جلد الماعز تحتوي على مسدسي الخيالة اللذين استخدمهما زوجها في عرضه السابق، وجاءت من مؤخرة خشبة المسرح.

وتوجه لامبير، الذي كان واقفا في وسط خشبة المسرح، الآن نحو الجمهور. توقف وعيناه تفحصان كتلة الوجوه على نحو أثار انتباههم. وبعد ذلك تحدث في هدوء، قال: «كما بينت في العاصمة أن جسدي لا يخترقه الرصاص لأنني أمتلك تعويذة تحميني من كل سوء؛ لا يستطيع أي رام ماهر أن يصيبني أو يقتلني». نظر الآن إلى أسفل مباشرة إلى بوعزيز. «بوعزيز أطلب منك أن تعينني على أن أبرهن على صحة زعمي».

رأت إيميلين أن المرابط نظر عاليا إلى زوجها وأحست مرة أخرى بهذه الجاذبية الغريبة في تحديقه. تحدث بالعربية إلى ابنته، التي قالت: «إن والدي لا يقتل». وعندئذ وقف شيخ من منطقة القبائل، طويل القامة ومتين البنية يرتدي برنسا أسود وسار نحو الدرج المؤدي إلى خشبة المسرح. تحدث بفرنسية بطيئة ومن الحلق. «أتتمنى أن تقتل؟ سأعينك على هذا».

أشار لامبير له أن يعتلي المسرح. عندما فعل، التفت لامبير إلى إيميلين وأومأ لها أن تأتي. فتحت طائعة محفظة المسدسات كما علّمها وعرضت مسدسي الخيالة أمام الجمهور. ثم توجهت إلى لامبير الذي أخذ أحدهما من المحفظة وقدّمه إلى الشيخ. لكن، الشيخ هزّ رأسه رافضا ووضع يديه في البرنس، وسحب من نطاقه مسدستين من نفس النوع. قال «والآن يا مرابطي، اختر واحدا من مسدسيّ ونحشوهما

وسأطلق النار عليك. لا يوجد ما تخشاه. قلت فى العاصمة إنك تمتلك تعويذة تقيك شر كل الضربات. دعنا نر هذه التعويذة ونكون على سلطانها من الشاهدين».

انتظرت إيميلين حاملة المسدسين غير المرغوب فيهما وهى فى حيرة تراقب لامبير، الذى نظر مباشرة إلى الشيخ، ثم هزّ رأسه موافقا، سلمها مسدسه الشخصى. لاحظت أن دنيو، الجالس فى الصف الأول، قام من مقعده منزعجا. وحينئذ عرفت أن المسدسين جرى العبث بهما من قبل. وأنه إذا فشل زوجها فى اختبار القوة النهائى هذا المنبنى عليه نجاح الرحلة فستلغى مهمته وستنمحى كبرياؤه. رأت دنيو يتقدم كأنما سيعتلى خشبة المسرح ويوقف الخطوات الجارية؛ لكن لامبير أشار إليه أن ينتظر.

التفت إلى الشيخ وأمسك بالهواء وأخرج كأنما بفعل سحر، كرة زجاجية صغيرة متعددة الوجوه لمعت فى الشمس.

قال «ها هى التعويذة التى تحدثت عنها وبها لا يخترقنى الرصاص. لكننى قررت ألا أستخدمها اليوم عندما أقف أمام المرابط بوعزيز، الذى يعتقد الكثيرون منكم أنه المهدى، المختار من الرب. اليوم أتمنى أن أريكم أن قوتى أكبر من أى تعويذة. خذ التعويذة».

مدّ الشيخ يده ليأخذ الكرة الزجاجية التى قدمت له. لكنها اختفت فى التو من يد لامبير. ابتسم لامبير. قال «انظر فى ثنية نطاقك». دس الشيخ أصابعه فى نطاقه الحريرى البرتقالى وأخرج مندهشا الكرة الزجاجية الصغيرة.

قال لامبير «حافظ عليها جيدا. يتعين على أن أوضح أنه كى أتصرف بدون التعويذة لا بد أن انصرف الآن وأقضى ست ساعات فى

الصلاة. غدا صباحا، إذا سمحتم لى سأعود إلى هذا المكان وأثبت لكم أننى محصن ضد الرصاص، حتى بدون تعويذتى. سيثبت ذلك عندما تطلق الرصاص من مسدسك مباشرة على قلبى فى حضور هؤلاء الشيوخ والمرابطين».

التفت إلى الجمهور ووجه حديثه إلى ابنة بوعزيز. «فى فجر الغد، سأكون مستعدأ. هلا سألت والدك أن يشرفنى بالحضور؟»

لمست ذراع والدها، تحدثت ابنة بوعزيز إليه بصوت خفيض. عندئذ نهض بوعزيز ولملم أطراف عباءته الخضراء من حوله. التفت إلى ابنته التى أمسكت بذراعه. وفى وقفة كهربائية راقبه خلالها زعماء العرب والقبائل، هزّ رأسه موافقا، ثم شقّ طريقه فى وهن وبطء نحو القوس الرئيسى الذى يفضى إلى شوارع مليانة. وعلى الفور بدأ الجمهور فى جلبة من الكلام والحركة فى الانفضاض وهو يرمى بنظرة خاطفة إلى لامبير الذى وضع عصاه واختفى عن الأنظار فى الأجنحة. تبعته إيميلين التى كانت لاتزال تحمل محفظة المسدسين. لاحظت أن وجه لامبير بلله العرق أنه ثبت قبضتيه فى جنبيه وقد تكورت تماما كأنما ليمنع نفسه من الارتعاش. سمعت وقع خطوات على درج خشبة المسرح خلفها. حيّاها دنيو بهزة من رأسه ثم قال إلى لامبير «ما الذى سنفعله الآن؟ أما استطعت أن تقنعه باستخدام مسدسيك؟ لا أحد يستطيع أن يرى أنهما جرى العبث بهما. لم لم تحاول؟»

قال لامبير «لا بد للساحر أن يفى بوعده حتى لو كان هذا يعنى أن أقتل غدا».

لاحظت إيميلين أن دنيو لا يعنيه زوجها. كشف صوته عن الغضب والإحباط.

– «وإذا قتلت غدا، سيضيع كل ما خططنا من أجله. غدا، لا بد أن تستخدم مسدسيك. سأقدم بيانا. سأقول إنك أهنت وأن أى شخص حر فى أن يفحص مسدسيك ويطمئن إلى أنهما غير مزيفين».

جلس لامبير يتصبب عرقا، متوترا على المقعد الوحيد بجانب ذراعى الرفع اللتين تتحكمان فى الصندوق الثقيل. أطرق برأسه كأنما أحس بإغماءة ثم قال:

– «لا يمكن أن أحنث فى وعد قطعته. قلت إننى محصن ضد الرصاص. إذا كنت محصنا، فكيف لى أن أرفض استخدام مسدس الشيخ؟ شارل لقد قضيت حياتى أمام جمهور. إن الجمهور مثل حيوان. إذا فشلت فى الهيمنة عليه، ينقلب عليك. اليوم، عن طريق استغنائى عن تعويذتى، جعلتهم يحسون بقوتى. الآن لا بد أن أثبتها. لدىّ فرصة ضئيلة لتحقيق ذلك، فقد بدأ بصيص فكرة يلوح لى ولا بد أن أعمل على تجريبها قبل طلوع الصبح».

قال دنيو «ما هذه الفكرة؟»

لم يجب لامبير. جلس، مطرق الرأس كأنه غارق فى تفكير عميق.

التفت دنيو إلى إيميلين.

– «هل تعرفين ما هى؟»

قال لامبير «إنها لا تعرف شيئا. تعالي يا إيميلين. سنرجع إلى حجرتنا الآن. أحضرى محفظة المسدسات معك».

قال دنيو «لكن هذه الفكرة إذا لم ترد أن تقول لى ما هى، قل على الأقل كيف لى أن أساعدك؟»

افتعل لامبير ابتسامة.

– «لا بد الآن ألا يزعجنى أحد فى صلواتى. أعمل على التأكد من هذا، هلا فعلت ذلك؟ أرسل العشاء إلى حجرتنا. وتذكر أنه إذا أخفقت

لا بد أن تتولى حكومة فرنسا الإنفاق على زوجتي. إنني أئتمنك على رعايتها، يا شارل. ستحتاج إلى مساعدتك».

***

طوت البرقع العربي ووضعته في الطاولة ذات المرآة. وقف لامبير نافد الصبر عند الباب الواهي لحجرة تغيير الملابس والذى أغلقه بالقفل وهم يمرون بالأجنحة ويخرجون إلى خشبة المسرح. وقف دنيو، الذى سبقهما، ينتظرهما على أعتاب الدرج؛ والآن وهي تتبع زوجها عبر المربع متجهة نحو القوس الذي يؤدي إلى حجرتهما. أمسك دنيو بذراعها مؤخرا إياها. بدا أن لامبير لم يلحظ، فقد مشى بدون أن ينظر خلفه مختفيا فى ظلال الأعمدة.

عندئذ، وضع دنيو وجهه بالقرب من وجهها وهمس.

– «لا بد ألا تدعيه يفعل هذا. ماذا لو قتل؟ إنه كبرياء وحماقة. لا بد أن تجعليه يستخدم مسدسيه. هل تدركين أنه فى مثل هذه الساعة غدا، يمكن أن تصبحي أرملة؟ بالإضافة إلى أنها ليست سمعته فقط الموضوعة فى الميزان، إنها أكبر من ذلك. أرجوك ساعديني !»

– «أساعدك؟»

– «أقصد... «توقف وابتسم ابتسامة من يحس بالذنب.

– «أقصد، ساعديه. انظرى، ستكونين معه الآن لا بد أن تعرفى ما الذى يخطط لعمله. سآتى لحجرتكما فى وقت لاحق. ربما تستطيعين أن تتسللى إلى الخارج للحظة ونستطيع التحدث».

– «إيميلين؟ إيميلين؟»

نظرت إلى أعلى. وقف لامبير فى الشرفة المطلة على الفناء.

- «تعالى بسرعة ! أحتاج إلى محفظة المسدسات!»

- «إنى آتية».

أسرعت متجاهلة دنيو مارة من تحت القوس صاعدة الدرج الحجرى المؤدى إلى الطابق الثانى فى الحصن. كان زوجها واقفا بالفعل بجانب طاولة فى حجرة الجلوس وعندما دخلت كان مادا يده ليمسك بمحفظة المسدسات وأخذها وجلس وفتحها وأزال منها شيئا لم تستطع تمييزه.

قال «ابحثى لى عن واحدة من تلك الشموع. وثقاب. وادعى أن يكتب التوفيق لى فيما أعمل».

- «ما الذى ستفعله؟»

وضع الشىء على الطاولة ثم نظر إليها. لاحظت أن وجهه كان شاحبا ومنهكا.

- «شىء لم أفعله من قبل. شىء خطير. عندما أعد حيلة بصرية، أتدرب على كل حركة المرة تلو المرة كى أتأكد من أنها ستكون فائقة عند تنفيذها على خشبة المسرح. فى الغد لن تكون هناك بروفات. سأتعامل مع همجى يريد أن يقتلنى وبهذا».

نظر مرة أخرى إلى الشىء الموضوع على الطاولة. «إن هذا هو قالب طلقة عادية». وقف، ذهب إلى مقلمته، وأخرج بطاقة وثنى حوافها الأربعة ليصنع منها حوضا صغيرا. ثم أذاب قطعة من الشمع ووضعها فى الحوض. وصنع ما يشبه سناج الزيت المحروق عن طريق تمرير نصل سكين على الشمعة ومزج الناتج بالشمع الذائب، الذى صبّه بعد ذلك فى قالب الطلقة. «هذا هو الجزء الصعب «قالها فى شبه همس بينما هو يقلب القالب كى يسمح لنسبة الشمع التى لم تجف بعد أن تسيل مخلفة كرة مجوّفة فى القالب. لم يوفق.

– «كم يبلغ عدد الشموع لدينا؟»

ذهبت إلى غرفة النوم لتعد.

– «سبع.. كلا، ثمان».

– «حسنا. إئت بهم إلى هنا. سأحتاج إلى التجريب. لا بد أن أصنع كرة مجوفة من الشمع بلا شائبة، تبدو متطابقة تماما مع شكل الطلقة».

قالت «إذن ستكون هناك خدعة، طلقة مزيفة؟».

لم يجب. انحنى على الطاولة مثلما رأته يفعل مئات المرات فى معمله، منصرفا عنها بالكامل، منهمكا، صبورا، يجوّد فى فنه.

– «قلت إن هناك خطراً. يمكن أن تقتل».

مرة أخرى، لم يجب. جلست على الأريكة، تراقبه. يمكن أن يقتل. ومن أجل ماذا؟ لم وصلت الأمور إلى هذا؟

– «أونرى هل تسمعنى؟»

كان يشكل الآن الطلقة الشمعية الثالثة. قال كأنما يحادث نفسه :

– «لاتزال غير متطابقة. لكنها أفضل. وبالحظ والتطبيق ستكون أفضل. لا بد أن تبدو مثل طلقة من الرصاص عندما أمسك بها وأرفعها عاليا. لا بد أن أتدرب. لا بد أن يأتى الأمر على نحو طبيعى جدا، رفع بسيط للطلقة بحيث يمكن لكل من الشيخ والجمهور أن يراها. ستكون هذه هى لحظة المخاطرة. إن أهل الصحراء أولئك حادو البصر. لا بد أن تكون فائقة بلا شائبة».

– «عم تتحدث؟ أونرى، لقد كونت ثروتك. إنك شهير. قلت إنك تريد أن تستقر، تحيا حياة عادية فى المنزل فى تور». ترددت ثم قالت «أعرف أنك تريد طفلا. يمكننا أن نحاول مرة أخرى».

– «هراء. هذا الأمر ليس له أية صلة بما تقولين».

نظرت إليه مصعوقة. أعرف أنك تريد طفلا. يمكننا أن تحاول مرة أخرى. بعد كل هذه السنوات، أخيرا تمكنت من أن أقولها، أن تفلت منى. عندما أفكر فى المرات التى ظللت مستيقظة ليلا أشعر بالذنب، مدركة أن الأمر بيدى لحثه على أن نحاول ثانية. لكن الآن عندما أقولها إنه حتى لم يلحظ. ألا يعنيه أمرنا؟ ما الذى يعنيه؟ مستقبله المهنى، شهرته، اختراعاته، «ذريته».

– «حسنا، ماذا عن اختراعاتك؟ أنت تقول لكل شخص أن الدمى الآلية التى تصنعها هى أفضل ما صنع على الإطلاق فى هذا المجال. هل ستتجاهل كل هذا لتمارس أحبولة على شيخ إفريقى؟ صباح غد، يمكن أن تقتل، ومن أجل ماذا؟ لإرضاء الإمبراطور؟ لإعانته على أن يفتح جزءا آخر من إفريقيا؟ ألا ترى الأمر؟ لقد خدعك وورطك دنيو فيما أنت فيه. لكن إحقاقا للحق، حتى دنيو يقول لك استخدم مسدسيك ولا تخاطر بحياتك».

صب فى حرص الشمع المذاب فى الحوض المصنوع من الورق المقوى. كان الأمر كأنما هى ليست فى الحجرة.

– «أونرى أنت تقول إنك تحبنى. أعرف أنى لم أكن كل ما كنت ترغب فيه، لكن هل أنت تحبنى؟ قل لى الحقيقة».

كان يفرغ الشمع المذاب فى الطلقة. أومأ برأسه كأنما تذكر شيئا.

– «وجدتها. يمكننى أن أسحب دما من إبهامى. لقد أرانى ساحر إنجليزى الكيفية، منذ بضع سنين حينما كنت أقدم عرضا فى لندن. لا بد أن تكون الطلقة الثانية المملوءة بالدم أكثر صلابة من الأولى».

– «أونرى !»

نظر إليها.

- «يا محبوبتى، إن هذا ليس له علاقة إطلاقا بالأشياء التي تتحدثين عنها، الأشياء العادية، الحب، الزواج، الأطفال. لقد وجدت على الأرض لأشياء أكبر من تلك. ربما كى أكون فى إفريقيا وغدا فى الفجر لمواجهة هذا التحدى. لأننى لامبير، لأننى منحت هذه المواهب، لا يمكننى أن أرفضها. إذا فعلت سيجللنى العار بقية حياتى».

- «العار؟ اسمعنى. دنيو يقول إنك ستنقذ أرواحا إذا منعت بوعزيز من بدء حرب مقدسة. لكن فى العام المقبل عندما ستصل جيوشنا إلى الجزائر ستنشب حرب أيضا، حرب سيقتل فيها الآلاف من الجنود الفرنسيين وسيموت آلاف الآلاف من العرب وأهل القبائل. ومن أجل ماذا؟»

قال «ستكون هناك حرب ستنتصر فيها فرنسا. وربما على نحو ضئيل سينتصر فى الحرب بسبب المخاطرة التى سأخوضها صباح الغد. قد أقتل. ليكن. إنه ليس أكثر مما يفعله أى جندي فرنسي لبلده».

رفع الطلقة الشمعية المجوفة وخرق نهايتها بسن سكينه. زنر عينه عند الثقب الصغير، أومأ برأسه كأنما يوافق على اقتراح خفى. «إذا فشل فى أن يقتلنى، سأستخدم هذه. ستفزعهم. والآن، أرجوك! اخرجى، اذهبى إلى الحجرة الأخرى، لكن ابعدى عنى. لا بد أن أكون وحيدا».

ذهبت إلى الشرفة، مزيحة جانبا الستار المصنوع من الخرز الخاصة بحجرتهما، وسمعت خشخشته وهى تغلق خلفها الباب. سلط ضوء ما بعد الظهيرة عبر فناء الحصن، متقاطعا عليه، تاركا المسرح فى الظل.

وقفت تتمايل قليلا كأنما ذهنها توقف عن أن يأمر جسدها. ثم نزلت هائمة الدرج الحجرى، عبرت المربع وخرجت إلى شوارع مليانة الضيقة، لتغوص فى الحشد، تقف عند مداخل البيوت كى تفسح الطريق أمام قوافل الجمال والبغال لتمر ؛ ثم وسط نظرات مختلسة من المارة العرب وأهل القبائل، تلهو بين أكشاك السوق الفقير، لا تبصر تائهة فى حلم يقظة مؤلم، لا تدرى أين هى ذاهبة أو لماذا يعود ذهنها مرارا وتكرارا إلى تلك الكلمات:

- لقد وجدت على الأرض لأشياء أكبر من تلك. تلك الأشياء العادية الحب، الزواج، الأطفال. ومرة أخرى تسمع صوته المنزعج وهو يقولها، صوت شخص ما يشرح حقيقة واضحة لفتاة غبية.

- وأنا التى كنت أظل مستيقظة ليلة بعد ليلة فى تور، أشعر بالذنب لأننى لم أرغب فى حدوث سقط للحمل من جديد، أو حتى لأننى لم أرد طفلا صحيح البدن، طفله - الليلة عرفت الحقيقة. بالنسبة له، الزواج وإنجاب طفل شىء «عادى»، لا يقارن بالظفر بمكان فى التاريخ بوصفه الساحر الذى جلب المجد للإمبراطور ولفرنسا.

ومع هذا، لماذا أصدر عليه حكما؟ تزوجته وأنا أعرف أننى لا أحبه؛ حلمت بأننى أجعل منه ديوثا مع دنيو، الذى هو ليس إلا توأمه ضمن هذا الطموح فى الارتفاع عن «الأشياء العادية». على أية حال، ما الذى أعرفه عن تلك «الأشياء العادية»؟ إنى لم أحصل عليها قط.

سارت قدما، تاهت بين ممرات السوق، متجاهلة الابتسامات المتحينة لأصحاب الأكشاك، أيديهم الممدودة عن آخرها تدعوها لفحص بضائعهم. تحرك أمامها طابور من الجمال المحملة فى تموجات غريبة.

صيحات سائقيهم، ضربات السياط على وبر الجمل، رائحة القهوة والتوابل، الصبية الصغار يجرون بجانبها يحملون مجموعات من التمور لبيعها، الصوت المتقطع لفرقعة أعيرة بنادق من على بعد. كل هذه الأصوات والمناظر والروائح ملأتها فجأة بلا تفسير بالفزع. هرعت تقطع مربعا، دلفت إلى الشوارع الضيقة للبلدة الداخلية، تيه من الأفنية المخفية، الأبواب المغلقة، والواجهات العمياء. في محيط كهذا، المخالف لأي مدينة، لأي منظر عرفته في وطنها، كأنما إيميلين التي كانت، انتشلت من جسدها تاركة إياه فارغا. مالت على مدخل ذي قوس، تائهة.

مالت الشمس أسفل الأفق. هبط الليل كعمى. بدأت الأضواء تتذبذب الواحد بعد الآخر على النوافذ الضيقة للمساكن المحيطة. وأخذت تنظر يائسة هذه الناحية وتلك حتى رأت في نهاية المطاف برج الحصن الفرنسي يرتفع عاليا فوق أسقف مباني المدينة. اتجهت نحوه، تجري كأنما لمنارة. وبينما هي تجري كانت تبكي.

الفصل الحادي عشر

نصوص وثائق الملحق

ذهب الجندى الزواوى الواقف فى نوبة الحراسة على مدخل الحصن إلى مقر الحرس وقال لرئيسه برتبة رقيب :

- «السيدة عادت».

- «هل توجهت إلى حجرتها؟»

- «كلا يا سيدى. لقد توجهت إلى المستشفى».

فى التو وضع الرقيب حزامه وجرى خارجا وصعد مهرولا الدرج المؤدى إلى حجرة الكولونيل دنيو. وجد الكولونيل نائما على أريكة مرتديا عباءة بيضاء، بجانبه على الأرض رقد ديوان شعر مفتوح. أنبأت رائحة الحشيش الرقيب بأنه هناك من كان يدخنها فى الحجرة. لكن الكولونيل قام من فوره، عند سماعه الأنباء من الرقيب، ألقى بعباءته ووضع زيه العسكرى، هرع إلى الفناء. كان هناك أضواء فى المستشفى. كان الباب مفتوحا. أدى الجندى المناوب على باب المستشفى التحية وأدخله فى

عنبر العزل ذى الظلال الليلية. رأى الكولونيل أنه يوجد سريران فى هذه الحجرة لكن واحدا فقط كان مشغولا. على السرير المشغول، رأى خادم لامبير، وجهه يبلله العرق وعينيه موحشتين ومفزوعتين على نحو ذكّر الكولونيل بجواد مرتعب. كانت تجلس على مقعد مخيمات بلا ظهر بجانب سريره مدام لامبير. كانت تبكى وتمسك بيد الرجل المريض وتحاول محادثته. وقف العريف الشاب، المسئول عن عنبر المرضى، على رأس السرير يمسح وجه المريض المبلل بمنشفة. ووقف وقفة انتباه عندما رأى الكولونيل وأدى التحية.

عند ملاحظتها أن العريف يؤدى التحية، أدركت إيميلين أن هناك شخصا ما قد دخل الحجرة. التفتت. توجه إليها دنيو من فوره ووضع يده على كتفها.

– «لقد عدت. كنت قلقا عليك».

لكنها أشاحت بوجهها عنه، مالت فوق الرجل المريض، قائلة:

– «جول؟ جول؟ هل يمكن أن تسمعنى؟»

نظر دنيو إلى العريف.

– «أين الطبيب؟»

– «كان هنا فى وقت سابق، يا سيدى. غادر المكان لأن زوجة الليفتاننت بوسو جاءها المخاض. إلى جانب... «هز العريف رأسه.

مرة أخرى، لمس دنيو كتف إيميلين.

– «أخشى أن أقول إنه لا يستطيع سماعك».

لكنها تجاهلته، وقبضت على يد الرجل المريض قائلة مرة أخرى:

– «جول؟ جول؟ هل يمكن أن تسمعنى؟».

ظهر جندي مناوب لدى الباب وقال للعريف :

– «إن القس حضر إلى هنا».

قال العريف وهو يمسح حاجبي الرجل المريض مرة أخرى، في هدوء «يا مدام؟... يا مدام؟ إن القس حضر إلى هنا. كان السيد جوايومين قد طلبه في وقت سابق اليوم. سيتلو عليه سر القربان المقدس».

نظرت إيميلين إلى أعلى، وهي مرتبكة. وقف قس ملتح من الجيزويت (أي الطائفة اليسوعية) يرتدي رداء وصندلا خلفها، يحمل صندوقا صغيرا به القربان المقدس والزيوت المقدسة. أومأ برأسه إليها وإلى الكولونيل ثم وضع صندوقه، ولف حول عنقه شال الكهان،

– «قد يرغب في أن يعترف. هلا تركتمونا، أرجوكم».

أومأت لكنها مالت على الرجل المريض قائلة:

– «جول؟ جول؟ سأعود. هل يمكن أن تسمعني؟ سأعود».

انتظر دنيو ثم سار معها في الردهة.

– «هل يمكن لي أن آتيك بشيء ما؟ شراب، شيء تأكلينه؟ إنك لم تتناولي عشاءك».

هزت رأسها. «كلا. لا شيء لكن هل يمكنك أن تأتي بالطبيب؟»

– «إن زوجة أحد ضباطنا جاءها المخاض. ويخشى من احتمال أن يحدث إجهاض. لذا فإن الطبيب معها. لكن سأتحدث معه حالا. في غضون ذلك، أخبريني عن زوجك؟»

نظرت إليه كأنها لم تفهم.

– «أعنى، كيف تمضى استعدادته؟ طرقت بابه منذ فترة لكنه لم يرد. وعندما أرسلت صينية العشاء بعثها ثانية بغير أن تمس».

قالت «إنه يحاول أن يصنع طلقات. إنه يقول لو أخفق فيما يسعى قد يقتل».

قال دنيو «طلقات مزيفة؟ لا بد أن تقلقى بشأنه مثلما نشعر جميعا إزاءه. لكنه، وكما تعرفين، واسع الحيلة. ومع هذا، أتمنى أن نتمكن من إقناعه باستخدام مسدسيه. إذا وقع أى خطا فى الغد ستكون كارثة».

قالت «كارثة؟ بالنسبة لك؟»

– «آسف. لم أقصد... أعنى بالنسبة له بالطبع».

– «اغرب عن وجهى ! دعنى وشأنى!».

قال دنيو فى رقة، متجاهلا غضبها، «إنى آسف بحق. لقد أسأت فهمى. إن حياة زوجك غالية. دعينا نر ما يقترحه وإذا ظللنا نحسب أنه خطير للغاية فلن نسمح له بالمضى فيه».

لكنها نظرت لما وراءه كأنه غير موجود، ثم مشت نحو عنبر العزل. كان العريف ينتظر فى الخارج أمام باب مغلق.

– «هل انتهى القس؟»

– «كلا، يا مدام. لكنه يتلو عليه سر القربان المقدس الآن. لن يستغرق وقتا طويلا».

لاحظ دنيو، الذى كان يراقبها، أنها أحنت رأسها. كان جسدها يرتعش كأنها تبكى.

استدار وخرج من المبنى.

بعد مرور عدة دقائق، جاء قس الجيزويت من عنبر العزل وهو يحمل صندوق القربان المقدس فى اعتناء بكلتا يديه كأنما يوشك على أن يصعد إلى المذبح. عندما رأى إيميلين تنتظر، توقف وقال:

- «مدام لامبير؟»

- «نعم يا أبت».

- «إنه يسأل عنك».

أومأت برأسها وذهبت إلى الداخل، فى إثر العريف الذى حمل مصباحاً زيتيا وضعه على الرف الموجود فوق المريض. انبعث ضوء أصفر قاس أنار وجه المريض المبلل بالعرق، أصبح الآن واعيا، ملتوياً حول نفسه تحت الملاءة، محدقا فيها، مادا، كفه لأعلى مثل شحاذ. للحظة لم تتعرف على جول الذى عرفته فى هذا الشخص بوجهه الذابل ولون جلده المائل إلى الزرقة المقبض، وصوته الواهن لدرجة تسمعه بصعوبة.

- «يا مدام... يا مدام؟ هل تذكرين وعدك؟»

- «نعم، بالطبع».

أجلست نفسها على مقعد مخيمات بلا ظهر، وأخذت يده بين يديها. كانت الحجرة تضج برائحة الغائط. كان تنفسه سريعا، كأنه لا يستطيع أن يدخل الهواء في رئتيه. والآن سأل فى صوت يكاد يكون غير مسموع:

- «أين مسيو؟ لم يأت ليراني. هل هو مريض هو الآخر؟»

أغمضت عينيها من إحساسها بالعار.

- «كلا، كلا. سآتى به إليك قريبا جدا».

- «إنه لن يأتى. لقد نسينى، هذا كل ما فى الأمر. إنى أعرفه أكثر مما تعرفيه. إنه يعمل. إنه لن يأتى. ربما تستطيعين...». أخذ يبكى فلم يستطع أن ينهى الجملة.

- «ما الأمر يا جول؟ قل لى».

- «ربما ستتحدثين معه. إنه من أجل زوجتى وولدى. عندما أموت، ماذا سيكون من أمرهم؟ لقد عملت مع مسيو لمدة عشرين عاما. عشرون عاما، يا مدام. من البداية، فى باريس، قبل أن يصبح شهيرا، ثم فى مسرحه فى شارع مونج. وعندما أراد أن يعيش فى تور، كما تعرفين جيدا، جئت بزوجتى وولدى من باريس ليعيشا فى الإسطبل عبر الفناء من منزلكما. كنت مخلصا له، كنت دائما مخلصا له. كنت موجودا قبل أن تظهرى فى حياته بوقت طويل. كنت أساعده كل يوم. وعلى خشبة المسرح، فى كل رحلاته روسيا وإسبانيا جميع هذه الدول. والآن، لأننى جئت تبعا له إلى هذا المكان الجهنمى، إنها النهاية بالنسبة لى. سأموت هنا اليوم. سأموت وحيدا. ما الذى سيحدث لأسرتى، يا مدام؟ إنهم لن يحصلوا علي فلس. أرجوك يا مدام. أنت عطوف. أنت لست مثل مسيو».

- «أنت لن تموت يا جول. لا يجب أن تقلق. مسيو لامبير عطوف، وهو رب عمل طيب. أعدك. يجب ألا تقلق. قريبا ستكون فى المنزل. حاول أن ترتاح الآن. سأبقى معك طوال الليل. أعدك».

اقترب منها العريف وأشار إليها أن تأتى معه إلى نهاية الحجرة. هناك، حيث كان يراقب الرجل المريض يتلوى فى سريره، همس:

- «لقد شهدت هذا مرات كثيرة، يا مدام. وآسفاه! إنه على شفا الوفاة الآن».

قالت «أرجوك، هل يمكن أن ترسل أحدا لزوجي في حجرته؟ أخبره بإن جول يحتضر. أخبروه بأنه لا بد أن يأتي على الفور».

– «آسف، يا مدام. ذهبت بنفسي في وقت لاحق، لأنني ظننت أن مسيو لامبير يجب أن يعرف. لكنني لم أتمكن من التحدث معه كان نائما وترك تعليمات بألا يوقظه أحد. سألت الكولونيل دنيو ماذا يجب على أن أفعل. قال لي بإنه يتعين عدم إزعاج مسيو لامبير بأية حال من الأحوال. ربما إذا ذهبت المدام بنفسها؟»

عاودت النظر إلى السرير. كان جول يحدق فيها، تنفسه سريع على نحو مفزع، فمه مفتوح كأنما يحاول أن يتقيأ.

– «كلا. لا يهم. سأبقى معه. سيكون هذا أفضل شيء. كان أبي طبيبا واعتدت أن أساعده في عيادته».

قال العريف «سأكون في العنبر الرئيسي مع مرضاي الآخرين. نادني إذا احتجتني».

***

بعد الساعة الثانية بقليل، كان الرجل المريض الذي يتلوى ويلف جسده في طي النسيان، بدا كأنه رفع إلى عالم هو ليس فيه بواع بوجودها، فجأة سكن جسده. مالت عليه وهي خائفة لكنه فتح عينيه، رآها وجر نفسه في السرير الضيق، سأل:

– «أي الأيام هذا؟»

– «الاثنين. هل تحس بأنك أفضل يا جول؟»

– «يا مدام؟... يا مدام؟ هل أخبرتك عن زوجتي وولدي؟»

– «نعم يا جول، قد فعلت. الآن استلق على ظهرك. حاول أن تستريح».

استلقى على ظهره في السرير. هل يجب عليها أن تنادى على العريف؟ نهضت من مقعدها. همس جول وعيناه مغمضتان «لا تنصرفي، يا مدام. لا تنصرفي !»

مالت على السرير ورفعته إليها، واضعة رأسه على صدرها كأنه طفل. انبعثت موجة من رائحة البراز ولاحظت أنه وسخ الملاءة الموجودة تحته ثانية. كانت تحس بنفسه الكريه على عنقها وهو مستكين برأسه المتصبب عرقا أسفل ذقنها. لكنها ضمته بقوة، ضمته حتى تقلص جسده بعد دقائق في نوبة تشنج متصلبة وشهق شهقة مخلصا جسده منها وتقيأ. وأتت بحوض وحاولت أن تمسح وجهه استرخى جسده وفغر فاه. وأصبحت متأكدة، بفضل يقين مقبض، من أنها في حضرة الموت.

بعد انقضاء وقت، قامت وأطفأت المصباح وغطت بملاءة وجه الرجل الميت. على الرف المنصوب أعلى سريره رأت مرة ثانية الملحوظة المطبوعة وغير المتسقة.

مستشفى مليانة العسكري

قواعد الخدمة الصحية

المرضى المدنيون الخاضعين للإجراءات التأديبية

خرجت إلى الردهة. رآها العريف وجاء من العنبر الرئيسى.

– «مدام؟ كيف حاله؟ هل أستطيع المساعدة؟ » هزت رأسها.

– «إنى آسف للغاية، يا مدام. كان خادمكم. أعلم أنك ستفتقدينه. إن هذه الوفيات شيء بشع. شهدت الكثيرين يمضون على هذا النحو. في بعض الأحيان، أظن أن هذا البلد ملعون».

- قالت «كلا بل نحن الملعونين».

***

أصدر ستار الخرز الذى يغطى المدخل إلى حجراتهما خشخشة مثل المطر وهى تدخل الحجرات المظلمة. وداست وهى تتحسس طريقها كالعمياء نحو طاولة التزين على ورقة مثبتة بالقرب من خفّيها. التقطتها وتوجهت إلى المصباح وأوقدته وخففت ذبالته كى لا توقظه. وقرأت ما كتبه بخط يده الغريب الذى يشبه خطوط العصور الوسطى:

محبوبتى، لقد تركت تعليمات بألا يوقظنى أحد بأى حال من الأحوال قبل السابعة صباحا. وشربت سائلا منوما لأنه كان ضروريا أن آخذ للراحة. وإلا فقد يوهن انشغالى بما سيحدث لى فى صباح الغد من عزيمتى ويشتتنى عن التركيز فى مهمتى المقبلة. لست أدرى أين أنت وأثق فى أنك ستعودين سالمة. لكن حينما تعودين أرجوك أن تدعينى نائما. إنى آمل ولكنى لست واثقا من أن سأوفق غدا فى هذا الاختبار النهائى.

نامى جيدا

ذهبت إلى باب حجرة الجلوس ونظرت فى الداخل، لكنها عجزت عن أن تراه فى الظلام. ذهبت إلى السرير حيث نامت وحيدها، وأطفأت المصباح وخلعت ملابسها تماما، استلقت وغطت جسدها العارى ببطانية من الصوف. فكّرت فى الجثة. أين ستدفن؟ ليس فى فرنسا، مثلما تمنى جول البائس، لكن هنا فى مليانة، فى مقبرة فرنسية بعيدة عن الوطن. جاء إلى ذهنها وجه تذكرته على نحو غير مكتمل، وجه زوجة جول، امرأة من بريتون، كانت لا تتحدث الفرنسية، إنما اللغة الكليتية التى تخص إقليمها، امرأة لم تستطع التحادث معها، امرأة بالرغم من كونها تعمل

غسّالة لديهم إلا أن إيميلين تكاد تعرفها. وكان ابن جول، ولدا صغيرا قذرا يركب حمارا أحيانا فى الممرات حول المزرعة، ويضربه بعود خشبى رفيع، ويصيح فى بهجة غامضة. كانت الأم والطفل يعيشان حياتهما هذه الليلة، دون أن يدريا أنه منذ ساعة تغيّرت حياتهما إلى الأبد.

***

فى الساعة السابعة، كأن منبها أطلق صافرته، استيقظ لامبير وجاء إليها فى حجرتها. ذهب إلى طاولة التزين ودقق فى المرآة وأزال شبكة شعره وسوّى شعره بعناية.

قالت «مات جول».

لم يلتفت. طوى شبكة شعره على هيئة مربع. لم تستطع أن ترى وجهه.

– «لقد مات بالليل. طلب إليّ أن نتولى أمر زوجته وابنه».

– «زوجته وابنه؟ نعم... لا بد أن نفعل ما نستطيع. مسكين يا جول».

– «سأل عنك».

أخيرا، الآن، التفت ونظر إليها.

– «ما الذى قلته؟»

– «قلت إنه سأل عنك».

– «كلا. أعنى، ما الذى قلتيه له؟ هل أخبرته بأنى بين يديّ كارثة؟ سيتفهم».

– «يتفهم؟ كان يحتضر».

– «نعم. بالطبع أنت على حق. مسكين جول. آمل ألا يكون هذا نذيراً».

جلست على الأريكة وراقبته فى الحجرة الأخرى وهو يرتدى نفس الملابس التى ارتداها خلال عرض أمس.

قال «بالمناسبة، لن أكون بحاجة إليك على خشبة المسرح هذا الصباح. سنستخدم مسدسى الشيخ. سيسلمهما لى. ربما يكون من الأفضل أن تبقى هنا. إذا حدث مكروه، لا أريد أن تريه».

– «هل تحدثت مع دنيو؟»

– «ليس بعد. لماذا؟»

«قال لى ليلة أمس إنه إذا ما اقترحت عليه شيئا يبدو خطيرا جدا، لن يسمح لك بالمضى فيه. إنه يعتقد أنك يجب أن تستخدم مسدسيك وألا تخاطر بإحداث كارثة».

وقف يحدق خارج النافذة، وهو يطرقع أصابعه مثلما كانت عادة تراه قبل أن يؤدى خدعة بورق اللعب.

– «أنا لا أعمل وفق أوامر دنيو. لا بد ألا يحاول أن يثنينى».

قالت «وإذا لم توفق؟ ستكون قد تسببت فى ترمل سيدتين فى أربع وعشرين ساعة».

استدار من أمام النافذة وحدق فيها.

– «أرملتان؟ عم تتحدثين؟»

قالت «أنت بالفعل جعلت واحدة منهما أرملة، مدام جول جوايومين».

قال ولكن نبرة صوته بها انزعاج «يا محبوبتى أرملة، لن تصبحى أرملة، لا تقولين هراء. انصتى إنهم وصلوا».

مر بجانبها مزيحا جانبا ستار الخرز وخرج إلى الشرفة. تبعته إلى الخارج. فى المربع فى الأسفل، كان جمهور الأمس من الشيوخ والمرابطين والقادة قد حضر ومعه ستة أمثاله من رجال ونساء وأطفال منطقة القبائل يتدافعون ليشقوا طريقهم عبر البوابات ليشهدوا موت الساحر الكافر. والآن رأت دنيو وكابتن إرسان يصعدان الدرج الحجرى، حياها دنيو ساخرا وهو يقترب منها.

سأل كابتن إرسان:

– «هل تحب أن تتناول إفطارك؟ لايزال هناك وقت. بوعزيز لم يحضر بعد».

نظر إليها لامبير. هزت رأسها. قال دنيو، الذى كان يحدق فى الكتلة المتجمهرة فى المربع:

– «إنى آسف بشأن هذا. نحن حاولنا أن نبعد الدهماء لكن بلا جدوى. لقد انتشرت قصة ما حدث أمس وما يمكن أن يحدث صباح اليوم لما هو أبعد من مليانة. ستكون مناسبة تاريخية. والآن يا أونرى أخبرنى، ما الذى تقترح أن تفعله؟»

قال لامبير «سترى».

– «لكن لا بد أن أعرف من البداية. إذا فشلت ستكون مأساة. لكنها ستكون أيضا نهاية كل شيء نحن عملنا من أجله حتى الآن. لذا، فإن لدىّ الحق فى أن أعرف. ما المخاطرة التى تنوى الشروع فيها؟»

قال لامبير «لا أستطيع أن أخبرك بهذا. لكن صدقنى، أنا على دراية بما أفعل. فى غضون ذلك، لى مطلبان».

قال كابتن ارسان «أرجوك ! كيف لنا أن نساعدك؟»

«أؤمروا بشمبانيا على الغداء. لا بد أن نحتفل عندما ينتهى هذا الأمر. واجعلوا طبيبكم موجودا، قد تدعو إليه الحاجة».

- دنيو قال «إن الطبيب وحملة الثقالة متنظرون تحت».

- «حسنا. والآن، أيها السادة إذا سمحتم اتركونى، أود أن أنفرد بزوجتى».

- قال الكابتن ارسان، الذى نظر يستطلع المربع :«آه ! لا بد أن هذا هو بوعزيز».

نزل ثلاثة فرسان من على جيادهم أمام مدخل الحصن وشقوا طريقهم بين الجموع المحتشدة فى المربع. ومع تقدمهم، بدأ الحشد فى التراجع ليصنعوا لهم ممرا، وانحنى الكثيرون منهم ولمسوا فى تقديس العباءة الحريرية الخضراء للمرابط، الذى كان يستند بشدة على الدوام إلى ذراع ابنته. كان الشيخ بن عمارة يسبقهم شاهرا أعلى رأسه مسدسيه اللذين استعرضهما أمس. وعند رؤية سلاحيه، صاح الحشد صيحة ترحيب خشنة.

سأل لامبيز «ماذا يقولون؟»

نظر ارسان إلى دنيو كأنما يستأذنه فى الترجمة.

قال دنيو «إنهم يقولون له اقتل الساحر الرومى. يتمتع الشيخ بن عمارة بشعبية كبيرة فى منطقة القبائل. ويعد المهيج الرئيسى للدهماء فى الأنحاء المجاورة».

ونظر الشيخ الذى كان لا يزال شاهرا مسدسيه، عاليا إلى الشرفة. وصوب ماسورة مسدس فى اتجاه لامبير، صاح بالفرنسية «أيها الرومى، حانت نهايتك». والتفت وانحنى إجلالا فى اتجاه بوعزيز.

– «انظر، سيد الساعة حضر. إن مملكة العدل توشك أن تقوم. إن الوقت حان !»

لكن بينما كان الشيخ يتحدث، هزّ بوعزيز رأسه، كأنما أرهقه هذا التباهى. أخذ يرد فى هدوء على تحيات الحشد الذى تحلّق حوله، وشق طريقه إلى الدكّة التى جلس عليها بالأمس. وعلى الفور، أفسح مكانا له ولابنته.

نظر دنيو إلى لامبير. «سننتظرك تحت».

قال لامبير «أشكرك».

أخذ لامبير ذراع إيميلين. «أيها السادة. أمهلونا خمس دقائق».

أزاح الستار جانبا، قادها إلى الحجرة الداخلية.

– «يا محبوبتى، إنى آسف لأنى وضعتك فى هذا الأمر كله. لكن لا بد أن أقول لك إنه قد يتعذر علىّ أن أستبدل الطلقة المزيفة. لم أفعل ذلك فى حياتى مطلقا. قد أتعثر أو أعجز عن أن أثبتها فى الماسورة. أو إنه يمكن ببساطة أن يطلق علىّ النار بدم بارد قبل أن أستعد. أقول لك هذا ليس لأننى أريد أن أفزعك، لكن إذا سارت الأمور على ما لا يرام... ماذا أقول؟ إنها لن تسير على ما لا يرام. اعطنى قبلة. لا بد أن أذهب».

– «أونرى. سأطلب منك للمرة الأخيرة. استخدم مسدسيك».

– «يا محبوبتى، لا يمكن أن أتراجع الآن. سيلحق بى العار».

– «إذا كان لك ابن، إذا كان لك طفل حيا هذا الصباح، هل كنت ستفعل ما أنت مقدم عليه؟»

تجاهل كلماتها، اقترب منها وقبلّها فى خدّها.

– «تمن لى حظا سعيدا. إنهم ينتظرون».

أصدر ستار الخرز خشخشة وهو خارج. بعد دقيقة سمعت الحشد يطلق آهة عظيمة عند رؤيته فى الشرفة. أحست بنفسها ترتعش. إنه ليس مستعدا على الوجه اللائق؛ إنه ذاهب لحتفه. أين دنيو؟ لا بد أن يوقفه.

هرعت عبر الحجرات، أزاحت الستار جانبا، خرجت إلى الشرفة التى تضيئها الشمس. أسفلها، أحاط دنيو وارسان بزوجها، الذى مشى فى بطء نحو خشبة المسرح، يتحرك فى تبلد عبر الكتلة المتجمهرة من أهل القبائل والعرب، الذين رأوه فسكتوا وتراجعوا إلى الوراء.

والآن، أومأ لامبير إلى بوعزيز واعتلى خشبة المسرح الخالية ووقف يفحص آلاف الوجوه تحته.

قال «إنى مستعد».

كرر مترجم كلماته. سمعتها إيميلين الواقفة فى شرفة عالية، على أنها قرع ناقوس الموت. رأت الحشد يفسح الطريق للشيخ بن عمارة ذى اللحية والشارب، ويلبس برنسا أبيض وحذاء أصفر برقبة طويلة وصدرة مطرزة بالذهب، تقدم مبتسما ومرة أخرى رفع مسدسى الخيالة المملوكين له. استنكف أن يستخدم الدرج، وفى قفزة واحدة استقر على خشبة المسرح واستدار ليواجه لامبير وصاح عاليا فى فرنسية ذات لكنة ثقيلة:

– «الآن أيها الساحر.. هل ترغب فى أن تفحص مسدسى؟

«أومأ لامبير وأخذ السلاحين فى يديه. نظر إلى المرابطين الجالسين أسفل، وقال:

- «أحتاج إلى متطوع لفحص هذه الفتحات ورؤية ما إذا كانت سالكة».

نهض واحد من المرابطين في التو وصعد إلى خشبة المسرح. فحص في وقار – مثل مؤد في مسرحية – الفتحات ورفع المسدسين في ضوء الشمس.

قال لامبير «سالكة».

قال المرابط «سالكة».

قال لامبير «استمر».

أخرج الشيخ من جيبه حشوة من البارود وأحكم عليها بحشو من القطن، في مسدس ثم في الآخر.

سأل لامبير «هل معك طلقاتك؟ «قدم له الشيخ مبتسما جرابا من الجلد مليئاً بالطلقات. اختار لامبير واحدة، رفعها عاليا أمام الحشد وحشاها في مسدس. أخذ المسدس الثاني ومرة أخرى اختار طلقة وحشاه بها. رفع المسدسين عاليا ثم وضعهما على الطاولة بجانب الشيخ. عندما انتهى من هذا نظر إلى أعلى كأنما يبحث في السماء. لاحظت إيميلين التي كانت تراقب الأمر من الشرفة، أن عينيه تبحث عنها. رفعت يدها ولوحت. رآها ورد بيده اليمنى التحية. هل نجح؟ أم فشل، وكان هذا وداعه؟ لم يقل وجهه المتبلد شيئا، لكن في هذه اللحظة ملأها الفزع. لقد أخفق، وهذا كان وداعه.

مثل متبارز حدد موقعه وسار خمسين خطوة بالضبط بعرض خشبة المسرح ثم توقف واستدار. وخيم الصمت حتى سمع الكافة الصيحات الخافتة في مداولات الصباح التجارية في الشوارع الخارجية. في هذه الأثناء، نظر مباشرة إلى الشيخ.

- «أنا مستعد».

أخذ الشيخ بن عمارة المسدس الأول من على الطاولة وأمسك به في ثبات، وصوبه مباشرة إلى صدر لامبير. وانقلب وجهه ذو اللحية الوقور إلى تكشيرة شرسة.

- «إن مملكة العدل توشك أن تقوم. أيها الرومى، حانت نهايتك».

أطلق النار. فرقع المسدس محدثا دويا عظيما. لم يسقط لامبير. وقف مائلا قليلا، ثم أشار إلى فمه. كان يمسك بالطلقة بين أسنانه.

سمعت إيميلين، التى أحست بالدوار من الارتياح، تنفسا جماعيا هائلا للصعداء.

أخرج لامبير الطلقة من فمه، ورفعها للحشد ثم مشى بسرعة إلى الشيخ وسلمه إياها ليفحصها.

نظر إليها بن عمارة وهو مستثار، وألقى بها على الطاولة، ثم مد يده ليأخذ مسدسه الثانى. سبقه لامبير إليه، وأخذه على عجل ورفعه عاليا.

قال «أنت لست قادرا على أن تصيبنى. لا أحد يستطيع. لكن الآن سترى أن تصويبى أخطر من تصويبك. انظر إلى هذا الحائط».

التفت إلى الحائط المطلى بالجير المائى. صوب مسدسه وضغط على الزناد. فى ضجة الفرقعة، ظهرت فجأة بقعة حمراء على سطح الجير المائى، ملطخة الحائط. انساب سائل أحمر من حافة البقعة. وقف بن عمارة، رأسه محني كأنما هو الذى أصيب وليس الحائط. رفع عينيه ليواجه الساحر، والانبهار والخوف يملأ وجهه.

تقدمت إيميلين إلى الأمام فى الشرفة وأمسكت الحاجز الحجرى للشرفة بشدة. فى هذه اللحظة، خيم صمت عظيم فى المربع، حتى إنها

استطاعت سماع الصوت الواهن لاحتكاك حذائها على الأرض. تجمدت الجموع الغفيرة بلا حراك كأنما فى لوحة، وجوههم محدقة فى رعب فى البقعة الحمراء على الحائط.

فى هذه اللحظة من الخوف الفزع. نهض بوعزيز من على مقعده فى الصف الأمامى. صعد إلى خشبة المسرح فى حرص وخطو الرجل العجوز، ذهب إلى الحائط وغمس إصبعه فى السائل الأحمر ورفعه لفمه وتذوقه.

سأل لامبير «دم؟»

أومأ بوعزيز. والتفت ليواجه العيون المحدقة المفزوعة لآلاف الشهود. عندما تحدث كان صوته رزينا وقورا وهادئا. بدا أن الحشد تنهد وأعينهم تنتقل منه إلى لامبير. حين انتهى حديثه، صاح الكثيرون فى الحشد:

– «محمد بن عبد الله !»

– «محمد بن عبد الله !»

رفع بوعزيز يديه كأنما ليوقف الصياح. ثم أومأ لابنته التى صعدت إلى خشبة المسرح وتحدثت بالفرنسية إلى لامبير وأجهد الأجانب المتجمعون مثل إيميلين، الواقفة فى الشرفة العالية، أنفسهم فى الاستماع.

– «والدى يقول إنه فى زماننا لم نر ولن نرى ساحرا مثلك. أرسلتك إلينا السماء مثل الرعد والبرق لتحذيرنا من القوة التى منحها الرب لأولئك الكفرة الذين فتحوا بلادنا فى الماضى. والدى يعلم أن الكثير من العرب والقبائل يعتقدون أنه، بوعزيز، هو سيد الساعة، المختار من الرب.

بسبب هذا الاعتقاد طلب منه أن يعلن أن الوقت حان الآن. إذا كان الوقت قد حان الآن، فلا بد للجهاد أن يبدأ. إذا كان الوقت قد حان الآن وأن النبوءات تتحقق، فلا بد أن يكون والدى هو المهدى بحق، ظهر أخيرا، وقد أنعم عليه ببركة أكبر من أى بركة يحوزها أى كافر.

«لكنه يقول إنه بالأمس واليوم نحن رأيناك بأم أعيننا، أنت الكافر، تصنع معجزات لم يعرفها بشر. نحن رأيناك، بدون عون من تعويذة، محمى من الرب مما يشكل بالنسبة للأخرين من الرجال موتا محققا.

«والدى يقول: كما نعرف جميعاً أن الرب وحده هو العظيم. وما من شىء إلا وهو مرسله. ما من شىء بما فيها المعجزات التى أديتها اليوم. من أجل هذا، والدى يتمنى أن ينسحب لوقت وجيز إلى مكان به خلوة، مكان للتأمل. سيظل بمفرده فى حالة صلاة وتأمل، سائلا الرب إذا كان الوقت قد حان الآن حقا، أو إذا كان الرب بإرساله ساحرا كافرا يحوز مثل هذه القوى الروحية فإنه يقول لنا إنكم الأقوى.

«وأخيرا، والدى يطلب من الشيوخ والقادة والأغوات المتجمعين هنا، خلال فترة خلوته، أن يظلوا فى مليانة ويصلّوا من أجل الحصول على إجابة عن هذا السؤال: هل سيزول حكم الفجرة الآن وسيبدأ حكم المؤمنين؟ هل حان الوقت لأن يتخذ والدى لقب المهدى الحقيقى، محمد بن عبد الله، المختار، الذى سيطرد الكفرة من أرضنا؟»

عندما فرغت ابنة بوعزيز من كلامها، أخذت بذراع والدها وساعدته على الهبوط من المسرح. مشيا سويا نحو البوابة حيث انتظر جواداهما. أخذ بن عمارة مسدسيه وتبعهما. سمعت إيميلين مرة بعد مرة نداء «محمد بن عبد الله» من الحشد، الذى بالرغم من تقديسه للمرابط ظل

يخطف النظرات، حتى وهو ينشد، إلى الجسد الصامت النحيف الواقف على خشبة المسرح.

لم يتحرك لامبير، بغريزة الممثل التى لا تخطىء طوال فترة الترجمة وانتظر إلى أن يغادر بوعزيز المربع قبل أن يهبط المسرح ويسير بخطوة بطيئة وقورة، يتحرك وسط زحام الحشد، يحدّق أمامه كأنه غير مرئى. مثلما حدث فى الجزائر، تراجع الشيوخ والمرابطون والقادة إلى الوراء كأنما لا يرغبون فى أن يكونوا على بعد ذراع من الساحر، ومرة أخرى سمعت إيميلين الهمسات التى نطقوا بها فى مسرح باب أزون: «شيطان! شيطان !» لكن الكلمة الآن كانت تنطق فى فزع. كان زوجها، الرجل العادى، بالنسبة لأولئك الناس أكثر من قديس. كان شيطانا، إبليس مجسدا.

بعدئذ، تقدم دنيو وكابتن ارسان لمصافحة لامبير وتهنئته وأسرعت إيميلين تهبط الدرج المؤدي إلي المربع، وهرعت نحوه، متذكرة أنه منذ لحظات مضت خاطر بالموت ليظفر بهذا النصر. عندما جرت عبر المربع، تراجعت جموع أهل القبائل ليجعلوها تمر، محدقين فى انذهال وهى تعانق الساحر وتبكي وتلامس خدّه.

قال «لقد انتهى الأمر، يا محبوبتي. تأبطى ذراعى. لا بد أن نشرع فى الخروج».

وهكذا سارت، وهى متحيرة ومفزوعة من العيون المعادية لأهل القبائل، مع زوجها ودنيو وإرسان من خلال المدخل المفضى إلى القاعة الرئيسية للحصن. عند دخولهم، أغلق جندى زواوى الأبواب الخشبية الثقيلة وأحكم إغلاقها. عندئذ وعندئذ فقط ابتسم لامبير وصفّق بيديه انتصارا.

- «حسنا، أيها السادة. أوفقنا أم لم نوفق؟»

قال دنيو «وفقت أنت ! تهانينا، أيها الرفيق العزيز ! لكن كيف فعلتها؟ مذهل ! لا بد أن تقول لنا».

- «لا، لا». قالها لامبير وهو يضحك في سيره من الابتهاج. «إن المعجزة لا تفسر. مثلما قال المرابط: ما من شيء إلا والرب مرسله».

والآن تحلّق الضباط والزوجات القلائل اللائى صحبوهن إلى هذا الموقع النائى، حول لامبير يقدمون التهانى. ظهر جنود الجيش يحملون صوانى الشمبانيا. وقفت إيميلين، التى نسيت وسط الاندفاع للتهنئة، خارج الدائرة بقليل، تراقب ولامبير يبتسم لمعجبيه. هذا الرجل الذى كان يمشى منذ دقائق مثل إبليس بين الأفارقة الأبرياء، هو ما كان يصفه والدى دائما به، دجّال. فكّرت فى بوعزيز وخطابه الرزين الوقور، قراره بالصلاة من أجل الهداية من الرب. وفى هذه اللحظة، فى فناء حصن فرنسى وهى محاطة بصحراء لا حد لها تذكرت مكتب الإمبراطور فى كومبيان، الإمبراطور بشاربه المشمع وابتسامته الفاجرة، وهو ينفث دخان سيجاره الطويل «لدىّ خطط كبرى بالنسبة إلى الجزائر. إنى أراها كنقطة التقاء بين الشرق والغرب والمفتاح للتوسع الاقتصادى لإمبراطوريتنا. فى العام التالى، فى الربيع سأبعث بجيوشنا إلى إفريقيا، وأخضع إقليم القبائل، وأكمل فتحنا لهذا البلد بكامله». لكن هذا الفتح الذى يرغب فيه الإمبراطور لن «يحضر «هؤلاء البشر، كما وعد، إنما سيأتى بدلا من ذلك بالمزيد من الحصون والمزيد من الجنود والمزيد من الطرق والمزيد من المستعمرين الفرنسيين للتربح من تجارة

ومحاصيل الجزائر. والمزيد من المهديين والمزيد من الجهاد والمزيد من القمع.

***

قرع الجرس النحاسى للغداء، انفصل لامبير عن معجبيه وجاءها ليأخذ ذراعها ويقودها إلى قاعة الطعام فى الحصن، حيث يوشك احتفال بهيج أن يبدأ. أجلسهما كبير الخدم وكان زوجها على يمينها والكولونيل دنيو على يسارها. مثلما كان الحال فى كومبيان حيث شغل الإمبراطور والإمبراطورة المقعدين الأوسطين على المائدة الطويلة، هكذا منحت هى ولامبير نفس المكان التشريفى هذا الصباح فى مليانة القاصية. بعد أن قدم الطبق الأول، التفت إليهما دنيو وقال:

- «أنتما تدركان أن الأمور تغيرت. لقد حرمنا من خروج المنتصرين».

قال لامبير «كنت على وشك أن أسألك بخصوص هذا الأمر».

- «إنه ليس المرابط الأكبر من فراغ. ما عساه أن يفعل سوى هذا؟ لا بد له من كسب الوقت، لحفظ ماء الوجه، للتخطيط فى تحرك ما يأمل به أن يجرد معجزاتك، التى جرت هذا الصباح، من قيمتها. لا أظن أنه سيفلح، لكن لا بد ألا نعينه بالاختفاء من ميدان المعركة».

قال لامبير «لكن فترة التأمل قد تستغرق أسابيع. وأنت قلت لى إنه يتعين علينا أن نعود إلى العاصمة قبل هطول الأمطار؟ قبل نهاية الشهر؟»

- إنى آسف يا أونرى. إنى آسف يا إيميلين. لن نستطيع أن نرحل الآن. لكنى آمل ألا يطول هذا التأمل أكثر من بضعة أيام. إنه لا يستطيع

أن يطيلها. هؤلاء الشيوخ والمرابطين أشخاص مهمون فى مجتمعاتهم. وهم لا يرغبون فى أن يظلوا منتظرين حول مليانة».

- «لكن ماذا لو هطلت الأمطار؟ ماذا لو أننا فاتتنا الباخرة؟»

- «سنتعامل مع هذه المشكلة عندما نتعرض لها. فى غضون ذلك من المهم أن تظهر فى شوارع المدينة. وأن تظل أنت وقدراتك حىّ فى أذهانهم. نحن سنرتب حفل استقبال آخر للشيوخ والذى تكون أنت بالطبع حاضرا فيه. إنك عقاب الأقدار لبوعزيز. إنى متأكد من أنه بالفعل توجد شكوك بين الشيوخ بشأن كونه المهدى المنتظر. سيتعين عليه أن يأتى بعمل عظيم لتبديد هذه الشكوك. وماذا عساه أن يفعل؟ إن معجزاته ليست معجزات بحق إنما هى علاج بالإيمان وتلك الأسطورة غير المثبتة من أنه المختار من النبى. ولا تستطيع مثل هذه الأشياء أن تجارى ما رآه الشيوخ هنا خلال اليومين الماضيين. يحدونى أمل كبير. كبير !»

قالت إيميلين «يحدوك أمل؟ ما الذى تأمله؟ إن يجرّده عرض أونرى من الثقة وأن ينفض أتباعه من حوله؟ أم أنه يتبرأ من فكرة الحرب المقدسة؟»

قال دنيو «حقيقة إنى لا أرغب فى أن يخسر أتباعه. آمل أن يتهرب باتخاذ قرار مخادع مثل الجهاد الداخلى. لقد استخدمت هذه الحيلة فى الماضى من قبل الذين سيصبحون المهدى لكسب الوقت لحشد التأييد».

قال لامبير «جهاد داخلى؟ ما الذى تعنيه الكلمة؟»

- «بدلا من الدعوة لحرب مقدسة، سيقول لهم إنهم بحاجة إلى الرجوع إلى ذواتهم نحو الصلاة والعمل لتقوية إيمانهم. وسيتناسب هذا

وخططنا تماما. نحن نعلم أن الجيزال ماكمون شرع بالفعل فى تجميع القوات التى سيحتاج لإنزالها هنا فى الربيع. وحالما تهبط قواتنا فى العاصمة ستكون هذه هى نهاية هذا الأمر».

عندما قال دنيو هذا خبط بسكينه على حافة كأسه، مستدعيا انتباه الحضور. ثم قام واقترح نخبا للرجل الفرنسى الوطنى الذى خاطر بحياته هذا الصباح واستعرض عبقريته لصالح مهمة فرنسا فى أن تتحضر هذه الأراضى وجعلها حلقة مهمة في سلسلة إمبراطوريتنا. أقدم لكم مسيو أونرى لامبير».

دفعت الكراسى إلى الوراء إثر وقوف الحضور من أجل النخب. رأت إيميلين أن زوجها يبتسم ويحنى رأسه فى تواضع مصطنع. بالطبع، هو سعيد بالبقاء هنا لبضعة أيام قليلة. ويعرف إنه ما من معجزة يقدر أن يصنعها بوعزيز ستعادل ما فعله اليوم. ستقام حفلات استقبال ومآدب عشاء على شرفه. لكن حين ينتهى هذا، ما الذى سيحدث؟ لن يرضى بالعروض مدفوعة الأجر في المسارح. اليوم هو ذروة حياته.

التفت إليها دنيو بعد تقديم أول طبق، ووضع أصابعه برقة على ذراعها فى محاولة لإعادة هذا من التواطؤ الخفى الذى يستبعد زوجها.

- «وأنت، يا عزيزتى إيميلين ما هو إحساسك إزاء البقاء لمدة أطول؟ أعترف بأننى ترعبنى فكرة مجىء اليوم الذى سأقف فيه على الميناء فى الجزائر العاصمة وألوح مودعا للباخرة ألكسندر وهى تبحر اتجاه مرسيليا». ابتسم ومال برأسه يمنة ويسرة فى تدلل تقريبا، منتظرا إجابتها.

- «متى سيدفنون جول ؟»
- «جول؟
- آه.
- رجل أونرى. هل هو...؟
- بالطبع.
- متى حدث هذا؟»
- «صباح اليوم مبكرا».
- «إذن من الممكن أن يكونوا قد دفنوه بالفعل. إنهم يفضّلون فى حالات الكوليرا أن يجعلوا الأجساد تختفى بعيدا عن الأنظار. لقد قتلت الكوليرا من جنودنا فى الجزائر أكثر مما قتلت كل المعارك مجتمعة خلال السنوات الأربعين الماضية».
- «الكوليرا؟ لم يخبرنى أحد بأنها الكوليرا».
هزّ دنيو كتفيه. «لم نشأ أن نزعجكما».
- «لكن أكنت تعرف أنه سيموت؟»
- «ليس على وجه اليقين؛ من المستحيل التأكد. ما لم يمت المصابون بها بعد الأيام الثلاثة الأولى تمضى الكوليرا فى مسارها الطبيعى وبحلول اليوم السابع يبدأون فى التحسّن. لا أحد يعرف. بالإضافة إلى أننى أردت أن أعفيك».
- «تعفينى؟»
- «أعفيك أنت وزوجك. إذا علم أن مساعده على وشك الموت يحتمل أن يتعذر أداؤه للعرض. قد أبدو قاسيا بلا قلب، لكن صدّقينى، ما كانت هناك جدوى فى أن أخبر أيا منكما».

وضعت فوطتها على المائدة والتفتت إلى زوجها:

– «إنه يقول لى إن جول يمكن أن يكون قد دفن بالفعل. إنى ذاهبة لأستطلع الأمر. إذا كانت هناك جنازة بالطبع لا بد أن نحضرها».

قال لامبير «انتظرى، دعى شارل يستطلع الأمر. نحن ضيفا الشرف اليوم. أرجوك؟»

لكنها وقفت وغادرت الحجرة. فى الخارج فى الفناء الداخلى للحصن، كانت الأبواب الخشبية الثقيلة المؤدية إلى المربع الرئيسى مغلّقة. ووقف الحارسان الزواويان وقفة انتباه مع اقترابها. أدى رقيب لها التحية.

– «هل ترغب المدام فى أن تذهب إلى الخارج؟»

– «نعم».

قال الرقيب «يوجد حشد فى الخارج فى المربع. حاولنا أن نصرفهم بعد العرض لكنهم رفضوا مغادرة المكان. يقولون إنهم ينتظرون زوجك. أأنت متأكدة يا مدام من أنك تريدين الخروج؟»

– «نعم لا بد أن أذهب إلى المستشفى».

– «سأذهب معك. قد تحتاجين إلى مرافق».

فتحت الأبواب الثقيلة. وعندما خطت بقدمها إلى الخارج، مصحوبة بالمرافق، استقبلتها وجوه مغطاة بالصوف، حشد كبير من الرجال والنساء يرتدون ثياب فلاحى منطقة القبائل البالية والمهلهلة. فى البداية ابتعدوا عنها، مصابين بخيبة أمل من أن القادم امرأة وليس الساحر، لكن بعدئذ، وهى تشق طريقها أدركوا أنها زوجة الساحر وعلى الفور أحاطوا بها، أخذوا يصيحون طارحين عليها أسئلة لم تفهمها. سألت الرقيب:

- «ماذا يريدون؟ أتدرى؟»
التفت الرقيب ليستمع إلى صيحاتهم.
- «البعض يسأل إذا كان الساحر الرومى يستطيع علاج المرضى. والبعض الأخر يقول إنه الشيطان. لا تلق بالا يا مدام. إن القبائل تكرهنا؛ إنهم دائما ما يكرهون الغرباء. لكن هؤلاء ليسوا بخطرين. تعالى».
وصلا إلى باب المستشفى.
- «هل أنتظرك يا مدام؟»
- «أشكرك. كلا».
عندما دخلت المستشفى واجهها على الفور منظر سبعة جنود مرضى يرتدون ثياب نوم طويلة مصطفون عند مكتب فى الردهة، حيث كان طبيب يرتدى معطفا أبيض على بزته يعطيهم حقنا. ترك الطبيب مرضاه فى التو عند تعرفه عليها من مأدبة غداء الأمس، وجاء نحوها مبتسما:
- «مساء الخير، يا مدام. سمعت أن صباح اليوم تحقق نجاح هائل. لكم تمنيت أن أكون هناك خلال الاحتفالات، لكن كما ترين، لدىّ عمل أؤديه. هل لى أن أسأل ما الذى دفعك إلى المجىء إلى هنا؟»
- «مساعد زوجى، أنت تذكر أنه كان مصابا بالكوليرا. وتوفى اليوم فى وقت مبكر. أردت أن أعرف ماذا عن جنازته».
عندما تفوهت بكلمة «كوليرا» سدد لها الطبيب نظرة تحذير ثم أخذها من ذراعها وقادها إلى نهاية الردهة بعيدا عن المرضى المنتظرين.
- «يا رقيب؟»
جاء جندى ممرض أسمر البشرة، كان يساعد فى إعطاء الحقن، مسرعا نحوهما.

– «سيدى؟»

ترك الطبيب إيميلين للحظة وذهب ليهمس فى أذن الجندى المرض.

التفت الجندى المرض إلى إيميلين :

– «إن الجثمان لم يعد هنا، يا مدام. جاء الأب بنيديكت من أجله منذ نحو ساعة. سيدفن مسيو جوايومين فى مقبرة الجيزويت، على بعد بضعة شوارع من هنا».

– «لكن متى؟ ولما لم يخبرنا أحد بذلك؟»

– «وقع الكولونيل تصريحا بالدفن فى الصباح الباكر. لم يصدر تعليمات بأن نخطركما. جاء القسيس من أجل الجثة منذ نحو ساعة».

قال الطبيب «إنى آسف بشأن هذا. بالطبع كان يجب أن تخطرا. لكن ربما لم يشأ الكولونيل دنيو أن يزعج زوجك قبل حدث صباح اليوم؟»

– «أين تقع المقبرة؟ أقلت إنها تقع على بعد بضعة شوارع؟»

– «نعم يا مدام. إنها ملحقة بكنيسة الجيزويت».

سأل الطبيب «أتريدين الذهاب إلى هناك؟ يمكننى أن أرسل شخصا ليرشدك إلى مكانها».

***

لم يختلف المبنى الذى ضم بعثة الجيزويت التبشيرية والمقبرة عن المبانى المجاورة إلا فى حقيقة وجود صليب حجرى منصوب على سقفه ويافطة مزينة مثبتة على مدخله الأمامى.

البعثة التبشيرية في مليانة

طائفة يسوع

دفع الجندى الزواوى، الذى رافق إيميلين، فاتحا البوابة كاشفا عن فناء كبير وفى وسطه تمثال للسيد المسيح مصلوبا. قال الجندى «إن

الكنيسة في المبنى الموجود هناك. وتقع المقبرة خلفها. ومن المرجح أن يكون الأب بنيديكت هناك الآن. جئنا بالجثمان إلى هنا منذ نحو ساعة لكنهم لا بد أن يحفروا قبراً. من هذا الطريق يا مدام».

قادها عبر الكنيسة الصغيرة، خارجين منها إلى مساحة محاطة بجدار عال خال من أي شيء. تقاطعت ممرات صغيرة داخل حقل صغير من شواهد قبور حجرية خشنة. في أقصى طرف في هذا المكان كانت توجد عربة يجرها حصان وسائقها جندى زواوى ناعس فى مقعده. كان هناك اثنين من حفارى القبور من منطقة القبائل يكدّان فى حفر خندق موحل. كان يراقبهما قس الجيزويت، الذى رأته ليلة أمس. فى البداية لم تلحظ أنه القس لأنه كان يلبس برنسا على غفارته ووضع على رأسه طربوشا. كان يرتل من كتاب القداس وعندما رآها أغلقه وأتى إليها. قال:

– «أنا الأب بنيديكت. اعذرينى. لم أقدّم نفسى إليك الأمسية الماضية. هل ستبقين؟ إنها لن تستغرق وقتا طويلا. إن القبر جاهز».

وهو يتحدث لاحظت أن رجلي القبائل خرجا من الخندق وألقيا بجاروفهما جانبا. ذهبا إلى العربة ورفعا بابها الخلفى ليدعا جثمان جول ينزلق، وكان مخيطا فى جوال خشن. صعدا فوق كومة التراب المحفور حديثا، ودفعا الجثمان إلى أسفل داخل الخندق في القبر. وعندئذ، أومأ الأب بنيديكت إليها وسارا سويا نحو الحفرة المفتوحة. التقطا حفارا القبر جاروفهما. انضم سائق عربة الجنازة إلى الجندى الذى لحق بإيميلين، ورفع كلاهما قبعته، ليقفا فى احترام وراء القس، الذى فتح كتاب الصلوات، وفى صوت به دندنة، بدأ يقرأ باللاتينية، التى لم تفهمها

إيفيلين. وسمعت من على مسافة بعيدة صيحة أذان المؤذن يدعو المؤمنين إلى صلاة العصر من منارة مسجد. وفى التو، انحنيا حفارا القبر من القبائل، كأنما بمفردهما فى المكان، ركعا على حافة القبر ورأساهما يلامسان الأرض ساجدين فى صلاة.

استدارت إيميلين قليلا فرأت الجنديين الفرنسيين، قبعتهما فى أيديهما، ينتظران فى صبر انتهاء اللاتينية حتى تنتهى ليعودا إلى ثكناتهما. لم يكونا يصليان. نظرت مرة أخرى إلى رجلى القبائل الساجدين على يمينها. صلاة يرددها الملايين من هؤلاء الناس، راكعين، رؤوسهم محنية، صلاة خمس مرات فى كل يوم من حياتهم، صلاة ليست للتوسل إنما التسليم.

ما من شىء إلا والرب مرسله.

فى الوقت الذى نقف نحن في ضجر بجانب هذا القبر نستمع إلى كلمات لا نفهمها، نحن الذين لم نعرف إيمانا يضارع إيمانهم قوة، نحن الذين لا نستطيع أن نتقبل الموت، الذين نخشى الجحيم ونصدّق بالجنة فقط نصف تصديق. ما الرب بالنسبة لنا؟ ما معنى كلمات هذا القس وهو يجثو على ركبتيه ويلقى بملء يده من التراب على الجثمان فى القبر؟

وقفا حفّارا القبر، وقد انتهت صلاتهما، ورفعا جاروفهما، شرعا فى ملء الحفرة. وبينما هما يفعلان ذلك وضع الجنديان قبعتهما وأومآ إلى قس الجيزويت وتوجها نحو العربة. التفت الجندى الذى جاء بإيميلين إلى هنا، كأنما متذكرًا.

- «يا مدام؟ أترغبين فى أن ترجعى معنا؟»

هزّت رأسها موافقة.

الفصل الثاني عشر

بعضُ مؤلَّفاتِ المؤلِّف

قال دنيو «سترافقنا حراسة. ستتكون من سرية من العرب المسلحين على ظهور الجياد. يقول لى الشيخ إن الجزء الأول من الحراسة سيصل بعد شروق الشمس بقليل. هل يمكنكما أن تكونا مستعدين بحلول الساعة الثامنة؟».

نظر إليها لامبير.

– «كما ترغبين، يا محبوبتى. هل سيكون هذا مناسبا، أم تفضلين البقاء هنا؟»

قالت «سأكون مستعدة».

عند عودتها فى وقت سابق، من المقبرة، سأل عن جول. قالت إنها لا ترغب فى التحدث فى هذا الشأن وهكذا، ذهبا إلى العشاء فى حالة من العداء الصامت. والآن بعد انضمام دنيو وإرسان لمناقشة خطط الغد، كان لامبير حريصا على إخفاء الخلاف.

قال دنيو «أظن أنكما ستستمتعان. إن بوعليم هو الأغا البارز فى هذه المنطقة، وحقيقة إنه دعانا إلى حفل خاص له دلالة خاصة».

سأل لامبير «من أية ناحية؟»

- «إن جواسيسنا أخبرونا بأنه فى اجتماع للشيوخ والمرابطين عقد فى الآونة الأخيرة فى العاصمة، حاول أن يشكك فى مزاعم بوعزيز. قيل لنا إنه حذرهم من أنه بالرغم من أن الوجود الفرنسى فى الجزائر كارثة، إلا أن تصديق وتأييد نبى مزيف، حتى ولو يسعى لمحو الكفرة، لهو كارثى بنفس الدرجة. وهكذا فإن انتصارك بالأمس أمكنه من استغلاله لصالحه. وهو بدعوتك إلى حفل غدا، يعطى إشارة إلى بقية الشيوخ بأنه غير مصدق بأن بوعزيز هو المهدى».

***

فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى رأت إيميلين ولامبير فى الفناء أسفلهما، أربعة فرسان يدورون: دنيو، ارسان، واثنين برتبة ليفتاننت من فرقة زواوية. وأمسك سائسان بجوادين أخرين لحين وصولهما. بمجرد أن ركباهما تحرك الركب خارجا إلى شوارع مليانة. انضم إليهم عندئذ عشرة فرسان عرب يرتدون برانيس حمراء ومسلحين بالبنادق كحرس مرافقين.

قال ارسان: «رجال بوعليم. وهذه ليست سوى البداية».

عندما وصلوا إلى بوابات البلدة، انضم إلى الموكب عشرون مسلحا عربيا يرتدون برانيس حمراء. بعد ثلاثين ياردة أخرى، أحاطت بهم مجموعة حراسة ثالثة، وبمجرد وصولهم إلى السهل المفتوح، سار معهم

عشرون فارسا آخرون. وعلى الفور، انطلقت مجموعة الحراسة بكاملها، حيث بلغ عددهم الآن سبعين فارسا، تركض مخلّفة إياهم وراءها. وعلى بعد نحو ستمائة ياردة، شدّوا لجام جيادهم لتقف بغتة، قسّموا أنفسهم وشكّلوا أربع سرايا. حامت سرية العرب الأولى وانطلقت بسرعة فائقة إزاء دنيو وصحبته، رافعين بنادقهم عاليا ويصيحون صيحات حرب. واقتربوا وهم يسرعون أكثر فأكثر، حتى بدا أنهم سيصطدمون بالأوروبيين. وفى اللحظة الأخيرة، فجأة، أطلقوا نار بنادقهم فوق رؤوسهم فى وقت واحد، ألجموا جيادهم لتقف وقفة مباغتة، ووقفت الحيوانات على قوائمها الخلفية وهى تحوم وتستدير عائدة إلى الخلف. وفى اللحظة التى استعادوا فيها الجسم الرئيسى من العرب المتشحين بالحمرة، اندفعت سرية أخرى نحو الأوروبيين، لتكرر المناورة الخطرة بنفس السرعة المتهورة. جاءت سرية بعد أخرى، حتى أطلقت الحراسة بكامل رجالها السبعين نار بنادقهم. ثم صمتوا فجأة وحاذوا بعضهم البعض كأنهم فى أرض استعراض واصطفوا فى صفوف منسقة خلف ضيوفهم.

قال دنيو، الذى كبح جماح جواده ليكون بجانب إيميلين، وعلى وجهه ابتسامة رضا «هذا، أيتها العزيزة إيميلين، ما يطلق عليه العرب فانتازيا مفاجأة، ترحيب خاص، مبهر، كلا؟ وأنت كنت رائعة لقد راقبتك. أنت حتى لم يرمش لك طرف».

تلألأ أمامهم على السهل، مثل سراب أثناء الظهيرة، معسكر كبير من الخيم المتجمعة حول هيكل مركزى ضخم ذى قبة عالية و(كنار) مبهج.

ووضعت الجمال والخيول والأغنام والماعز داخل حقل صغير مسوّر يحميه مسلحون. أخبرهما دنيو، الذى أصبح الآن يقود جواده بين إيميلين ولامبير، بأن الأغا ينتظر ليستقبلهما بنفسه. «حتى وهو مسافر، مثلما الحال الآن، يتحرك وسط حاشية ضخمة من المحاربين والزوجات والخدم. وكما تريان، إن هذا ليس بمعسكر عادي».

من علي بعد عدة المئات من الياردات، جاء فارس من ركام الخيام، يسير فرسه بخطوة بطيئة نحو الأوروبيين والحراسة المرافقة. رفعت سرية الحراسة بنادقها مع اقتراب الفارس وأطلقت النار فى الهواء كتحية. لاحظت إيميلين الآن أن الفارس يضع العمامة الكبيرة ويرتدى الصدرة المطرزة التى تخص الشيوخ. كان رجلا في أواسط العمر، فاتح البشرة، ملتحياً، ذا عين باردة، قادرة على التقييم. ألجم حصانه عند وصوله إلى مجموعتهم وأومأ إلى دنيو أولا؛ ثم انحني في احترام إلي لامبير وقال شيئا بالعربية ترجمه دنيو : «مرحبا بكم يا من أرسلكم الرب».

اتبعوا فرس الأغا الذى كان يسرع، ودخلوا مدينة الخيام. ألجم فرسان الحراسة المرافقة خيولهم بينما شقّ دنيو وصحبه طريقهم عبر البلبلة والجلبة فى المعسكر. هرول الرجال والنساء والأطفال وتجمعوا فى دائرة عند مدخل خيمة الأغا الرسمية بينما سمح للزوار بالدخول.

دعوا داخل الخيمة إلى أن يجلسوا على سجادة ضخمة. قدّمت القهوة، وظلت إيميلين فى مؤخرة المجموعة، يتجاهلها الأغا وأبناؤه إلى حد كبير وهم يعرضون غليون التبغ علي الذكور من الضيوف. بعد

نصف ساعة من التدخين وشرب القهوة صفق الأغا. أزاح الخدم ثنايا الخيمة، ورأت إيميلين موكبا يقوده شخصان يحملان فيما يبدو بيارق مطوية. لكن حينما دخلا الخيمة أدركت أن العمودين الطويلين اللذين يرفعانهما عاليا يحتويان على شياه مشوية بكاملها. أعقب حاملى الشياه خمسة عشر رجلا يحمل كل منهم طبقا يعد جزءا من الاحتفال. وضعت أمامهم طيور مشوية وأنواع مختلفة من الكسكسى وكعك وتمر وأطباق أخرى لم تستطع أن تحددها، بينما كان كبير الطهاة يخرج الشياه من الأسياخ ويرتبها فى كومة في صحن كبير وضعه مساعدوه أمام الأغا وضيوفه.

وسط كل هذه الاحتفالات فكرت إيميلين فى المنظر الذى شهدته، فرسان الفنتازيا، بنادقهم مرفوعة عاليا، اعتدادهم بمهارتهم فى ركوب الخيل، وقفتهم كمحاربين مظفرين. خطر على ذهنها ذكرى الطرق العريضة العظيمة فى باريس، تلك الشوارع العمومية بالغة الضخامة، حيث سار الآلاف من الجنود أمام الإمبراطور احتفالا بانتصاراته فى حرب القرم. فى ذلك اليوم، رأت قوة جيش فرنسا: العربات التى تجر المدافع، المدافع، الفرق، الجنود المشاة، الخيالة، الأعلام والألوية مرفوعة عاليا لتخليد ذكرى الحروب التى قاتلوا فيها وانتصروا على قوى كبرى أخرى. فى الربيع، ستسحق هذه القوة العسكرية هؤلاء الفرسان العرب مثل جنود اللعب الذين يكتسحون من على رقعة شطرنج. فى الربيع، سيصبح هذا الأغا، الذى يخطب الآن ود دنيو وزوجى، ضحية ألاعيب ساحر. وماذا لو أن زوجى لم يأت إلى هنا، ماذا لو أن إيمان هؤلاء

الناس لم يتزعزع بعد «معجزات» أونرى؟ ماذا لو أن بوعزيز تجاهلها، ودعا إلى جرب مقدسة، ومن خلالها، طردنا من هنا، من أرضهم؟

مال دنيو نحوها وهو يعرض عليها شريحة من لحم الضأن من الكومة التى أمامه. قال:

- «إنها شهية. لا بد أن تجربيها. قلت لك إنها ستكون وليمة».

قالت «إنى آسفة، ليس لدى شهية».

- «أنت لست مريضة؟»

- «كلا».

- «أأنت متأكدة؟ لقد سافرنا مع خادم زوجك. أحسب أننا أكلنا من نفس الطعام وشربنا من نفس المياه. إنى لا أريد أن أفزعك، لكننا جميعا معرضون للخطر».

- «لست مريضة». مالت للأمام وغمست أصابعها فى كومة اللحم وقطّعت نسيرة، مثلما رأت الأخرين يفعلون وبدأت تأكل. «أرأيت؟ لست بحاجة لأن تفزع».

- «حسنا. إنه لحم شهى، ألا تظنين ذلك؟ «قالها وابتسم، التفت عنها ليحادث بالعربية قائداً شاباً يجلس على يساره.

كان هذا كما أدركت طريقة ماكرة لصرفها. الآن بعد أن أفلح فى مهمته فى الإتيان بزوجها إلى إفريقيا وجعله يقدّم خدعه الاستعراضية، لم يعد هذا الدبلوماسى الملتوى الوسيم بحاجة إلى مغازلة زوجة الساحر. خلال بضعة أسابيع، عندما نبحر عائدين على ألكسندر، سيبقى هنا، يخطط ويدبر، يستمع إلى جواسيسه. بعد مضى عام من الآن قد لا يتذكر اسمى الأول.

مع استمرار مأدبة الغداء، جرى مرة أخرى تجاهلها إلى حد كبير. لم يكن من عادات العرب جعل النساء تجلس فى مثل هذه الولائم. تذكرت فى وحدتها، وهى مستبعدة من الحديث، تحذير دنيو. الكوليرا. كانت بالطبع شيئا فكرت فيه، شيئا مفزعا، لكن أثناء الإحساس بالذنب والحزن الشديد عند احتضار جول استبعدته من تفكيرها. الآن واتتها ذكرى جسده الناحل، المصاب بالجفاف، وجهه الذابل، الخدين المائلين إلى الزرقة، تنفسه السريع، صوته الذى لا يسمع، رائحة الغائط النتنة، ضجيج الغثيان الممزق مع سائل القىء يبقع الملاءات. هذه المناظر والأصوات واتتها تحت هذه الخيمة ذات القبة الفخيمة المملوءة بالأصوات والضحكات، والخدم المنحنين يعرضون المتخم من الطعام. كان جول، كأنما لم يعد مدفونا تحت كومة من التراب فى مقبرة الجيزويت، جاء عبر ثنايا الخيمة المفتوحة ليسير بين الشيوخ والفرنسيين المحتفلين، كان طيف قد تلمس يده الميتة فى أية لحظة إيميلين، لامبير، دنيو، أو إرسان أثناء هذه الوليمة. نحن جميعا معرضون للخطر.

قال لامبير وهو يميل عليها «هل سمعت هذا؟»

جفلت مندهشة، كأنما كانت نائمة.

– «كلا. ماذا؟»

التفت لامبير إلى إرسان.

– «هلا أخبرت زوجتى بما قلته لى توا؟ مثير جدا».

قال ارسان، الذى كان جالسا على يمينها، فى نبرة متكتمة «يقول الكولونيل إن الأغا أخبره قبل غدائنا أن الشيوخ الحاضرين عقدوا

اجتماعا خاصا مساء أمس فى مليانة واتفقوا على إنه بالرغم من أن عرض زوجك، إذا قرر بوعزيز إعلان نفسه المهدى، فإنهم جميعا، وفى واقع الأمر كل الجزائر، ستنتفض معه. لكن الأغا، الذى يعتبر واحدا ضمن حفنة قليلة جدا من الشيوخ الذين يتشككون فى أن بوعزيز هو المهدي، أخبر الكولونيل إنه من الآن فصاعدا، مع كل يوم يتردد فيه فى الإعلان عن نفسه سيخسر جزءا مهما من تأييده. من أجل هذا، لا بد أن نمارس الضغط عليه. سندعو الشيوخ فى الغد لاحتفال حيث سيكون زوجك ضيف الشرف» – التفت إلى لامبير «الذى سيذهلهم بـ... ما الذى ستفعله؟»

– «خفة اليد، أجعل الأشياء تظهر وتختفي، لكنها بالطبع ستؤدى بروح الصداقة».

ضحك أرسان.

– «صداقة؟ إن أية حيلة تؤديها من الآن فصاعدا ستسهم مباشرة فى تثبيت سمعتك كمتآلف مع الشيطان. وهذا هو ما نبغيه. لكنى لا بد أن أقول حينما شاهدتك بالأمس على خشبة المسرح، فكّرت فى أنك إذا إرتديت برنسا وكنت ملتحيا مثل عربى، أنت، وليس بوعزيز، ستكون المهدى الخاص بهم».

فجأة قالت إيميلين بدون تفكير «هراء ! هذا العجوز رجل مقدس. تدرك ذلك فى اللحظة التى تكن فى حضرته. إن أونرى من المستحيل أن يوحى بهذا النوع من التوقير».

– «مقدس؟» بدا كابتن ارسان مستمتعا. «أيتها المدام العزيزة، إن هؤلاء المرابطين دجّالون، كل واحد منهم، يعلن نفسه قديسا ضمن دين،

اعتبره صراحة هراء طفولي. حقيقة، يجب ألا تضفي عليهم شيئا من الرومانسية. ما كنت لتفعلي هذا إذا خبرتهم مثلي».

لكن في هذه اللحظة، قام الأغا من مجلسه وصفق بيديه تحدث لضيوفه. كانت خطبة ترحيب، كما قال دنيو في وقت لاحق، ولكن أيضا كانت إيذانا بحتمية انتهاء مأدبة الغداء. كان موعد صلاة العصر قد حان.

وبعد مضي نصف ساعة، وبعد جولة توديع، قادتهم مجموعة حراسة مكونة من عشر فرسان يرتدون البرانس الحمراء، ينتمون إلى جومية الأغا، قادتهم عبر الحشد المحدق فيهم من سكان الخيام إلى الخارج أي إلى الطريق إلى مليانة، مرورا بالتلال البعيدة ذات اللون البنفسجي الغامق الضارب إلى البني، تلك التي حفرتها الآلاف من الشقوق. وسرعان، ما بدأوا بالمرور بزراعات بنخيل البلح وحدائق تقاطعت جدرانها المصنوعة من الطين اللبن. كانت أمامهم عند منحدر الجبل قرية منازلها ذات جدران عالية، وسقوفها تعلوها تصاميم من الطوب اللبن، شرفاتها الواسعة المسطحة تطل على أفنية وحدائق مليئة بالفاكهة. ألجم دنيو جواده، وهم يمرون بهذه المساكن، وأشار إلى بناء ذي قبة زرقاء يبعد قليلا عن القرية. امتدت خلف هذا البناء سلاسل الجبال سلسلة فوق أخرى، مهددة في قفرها، ذائبة في النهاية في السماء بلونها الأزرق الباهت.

– «إن هذه هي زاويته».

قال لامبير «ماذا قلت؟ عمن تتحدث؟»

– «بوعزين. هذا هو المكان الذى يعيش فيه ويعلّم تلاميذه. تعد الزوايا نوعا من معاهد دينية لإعداد المرابطين، وهى فى رأيى أخطر من أى جيش يستطيع العرب تعبئته فى الميدان».

– «يا ترى ماذا سيقرر؟ إنى أتساءل». قالها إرسان مبتسما «هل يفكّر فى تغيير اسمه؟»

– «إلى محمد بن عبد الله ! «أنشدها دنيو هازئا، مطلقها كصيحة نحو البناء ذى القبة الزرقاء البعيد.

ضحك إرسان وهو يردد الصيحة كرجع الصدى.

– «محمد بن عبد الله!».

حملق أفراد حراسة الأغا فى بعضهم البعض وهم يستمعون لهذا فى تخمين عشوائى.

***

قالت للامبير على العشاء:

– «لن يكونوا بحاجة إلىّ فى غداء الغد. وقد فاض بى الكيل من هذه المناسبات. أظن، إذا لم يكن لديك ما يمنع، أنى أود بدلا من هذا أن أركب الخيل للتنزه».

– «هل سيكون هذا آمنا؟ «التفت إلى دنيو. «ما رأيك؟»

– «آمن تماما «قالها إرسان مبتسما لها. «من ذا الذى يجرؤ على أن يضع يديه على زوجة الشيطان؟»

***

تذكرها الرقيب المسئول عن إسطبل الخيول من الأمس وعلى الفور وضع السرج على الفرسة الغبراء التى ركبتها فى الرحلة إلى مأدبة

بوعليم. استيقظت بعد شروق الشمس بقليل، ارتدت ملابسها ولامبين نائم، وهى فى حالة من التوتر تخشى أن توقظه ويستفسر منها، غادرت المكان على عجل دون أن تترك له رسالة مختصرة. وفى الوقت الذى خرجت فيه راكبة الفرسة من الإسطبل، سمعت أذان المؤذن من مئذنة من مسجد قريب، وبعد لحظات مرت بمجموعة رجال، رؤوسهم محنية يسجدون على التراب فى شارع ضيق. نخزت الفرسة بمهمازها لتسرع قليلا دخولا وخروجا من تيه أكشاك السوق المؤدى إلى بوابة مليانة الرئيسية. بمجرد عبورها البوابة، أجبرت الفرسة الغبراء على أن تجرى فى اعتدال. كان الطريق خاليا، لكن بعد دقائق، سمعت وراءها صليل أجراس والتفتت لترى ثلاثة من الطوارق[1]، وجوههم نصف ملثمة بنفس طريقة قبائلهم، تقدموا نحوها، وهم يضربون جمالهم العملاقة المسرعة بالسياط، دنوا منها ثم تجاوزوها. وكانت الأجراس الحديدية المعلقة فى اللجام المثبت فى الحيوانات الضخمة تصلصل مع كل خطوة، وقد جلس راكبوها على سروج الطوارق المزينة بشرابات صوفية، وتمايلت أعناق الجمال واختفت بخطواتها الواسعة المتماوجة فى سحابة من الغبار.

صارت وحيدة مرة أخرى فى صمت هذا السهل الفسيح، والشمس حارقة فوقها مثل فرن ولهيبها يبدو أنه أشاط ثيابها. ثم رأت بعد ذلك

---

(١) الطوارق: أشهر شعوب الصحراء الغربية فى إفريقيا، وقد ظلوا يتحكمون فى طرق القوافل التجارية المارة عبر هذه الصحراء لقرون طويلة. وهم يتحدثون لغة بربرية ولكن تنحدر أصول أبجديتها من الفنيقية القديمة.

أمامها سلسلة من الجبال والحواف الصخرية المخدوشة تصعد اتجاه السماء، مساحة قفر إلى الدرجة التى جعلتها تسير لبضع دقائق غير متيقنة، متصورة أنها سلكت مسارا مختلفا عن طريق اليوم السابق وأنها فقدت الاتجاه الصحيح للقرية والزاوية. لكن سرعان ما أبصرت جدار المقابر الواقعة على جانب الطريق ودنت منه لترى ما وراء الجدار أحجاراً غريبة الشكل تشير إلى المئات من القبور المجهولة. وفوق المقابر انقسم المسار الضيق إلى مسارين على بعد بضع مئات الياردات من القرية. سلكت الفرع الأيسر وصلت إلى بوابة الزاوية ذات القبة الزرقاء. دخلت الفناء، رأت مجموعة من الشبان يجلسون فى حلقة، يتلون فى ترنيم رتيب ما بدا أنه صلاة.

انزلقت إيميلين من على ظهر الفرسة ووقفت وهى متوترة قلقة حتى ظهر من مدخل مظلم رجل عجوز حافى القدمين يرتدى عباءة رثة وأشار إليها أن تتبعه. قادها عبر فناء داخلى إلى حجرة صغيرة مظللة، حيث رأت ابنة المرابط جالسة على جوال من الصوف المطوى على الأرض، وقد نهضت على الفور وأمسكت بيديها وقالت فى فرنسية تقليدية محددة :

- «مرحبا، يا مدام. أنا تاليت. دربنى والدى على مساعدته فى عمله. أترغبين فى رؤيته؟»

- «إذا سمح لى؟»

سحبت إيميلين وهى لاتزال تمسك بيديها لتجالسها على الجوال المطوى. أثر فى إيميلين، مثلما حدث من قبل، منظر جسدها الواهن مثل طفلة تحت البرنس والحجاب، وجهها منهك وصوتها خشن ومع هذا رقيق ومرحب.

- «إن أبى اليوم يتأمل. إذا تفضلت وأخبرتنى بما ترغبين فى قوله له». للحظة طويلة لم تنطق إيميلين. كانت كجندى خطا إلى منطقة محايدة ويقف على حافة خطوط العدو، يداه مرفوعتان استسلاما، أحسيت بانتهاء مفاجيء التوتر والغضب والعار الذي قادها إلى المجيء إلى هنا. بدا أن ابنة المرابط، مثل أبيها، تمتلك بركة، تلك النعمة الغامضة التى قال دنيو: إنها قداسة، تعبير عن اللطف الإلاهى، نعمة جعلت من يكونون فى حضرتها يشعرون بالسلام. إن هؤلاء الناس ليسوا أعدائى. إذا ما تحدثت الآن، فلن أكون خائنة لبلدى أو أونرى، لكن لقول الحقيقة، لتصحيح خطأ.

- قالت «إنه بشأن زوجى. إنه لا يمتلك قدرات خارقة للطبيعة. كل ما عرضه لكم هنا وفى العاصمة خدعة متاجرة، حيلة ساحر. يمكننى أن أشرح هذه الأمور لأبيك. ويمكننى أن أخبره لم هذه الحيل صنعت وما الغرض الحقيقى لزيارتنا».

مالت ابنة المرابط نحو إيميلين وأمسكت بيديها:

- «كان شيئاً طيباً منك أن أتيت سأخبره بما قلته لى. إذا سمحت، انتظرى هنا».

نهضت ابنة المرابط وذهبت إلى الحجرة الأخرى. بعد لحظات دخل خادم يحمل صينية عليها قهوة وكوب من الماء. ابتسم لها، وقال لها شيئا بالعربية، ثم انصرف. فى الخارج سمعت الترتيل الذى لا ينتهى من الشبان فى الفناء. وخلف هذه الأصوات كان هناك عالم من الصمت، كأن حمدهم لله صعد إلى السماء فى خضوع تام للإرادة الإلاهية. لم

تحس قط في كاتدرائية أو دير أو رواق في فرنسا مثلما أحسّت باتقاد الإيمان حاضراً في كل مكان: في بلدات، في قرى، في مزارع وصحراوات هذه الأرض. إنها قوة ملهمة ومفزعة في آن واحد، إيمان لا شبيه له في العقيدة المسيحية في القداس وأسرار الكنيسة، لهيب الجحيم واللعنة، الخطيئة والخلاص، التكفير عن الذنوب والغفران:

- ما من شيء إلا والرب مرسله.

الآن، وهي تنتظر لترى ما إذا كان المرابط سيأتي، الإحساس بالسلام الذي أحسّت به لوجودها هنا حلّ محله اليأس. فبالنسبة إلى هذه اللحظة أحست بأنها لا تنتمي إلى عالم تور، باريس وكومبيان. ومع هذا لا بد أن تعود إليه. لم يكن هناك خيار آخر. لأن عالم الحماسة التامة والإذعان الأعمى هذا شيء لا تقدر ولا ترغب أن تلج فيه.

بعد مضي وقت سمعت أصواتاً في حجرة داخلية. جاء ثلاثة رجال يضعون عمامات كبيرة تخص المرابطين من هذا الاتجاه، دخلوا الغرفة حيث كانت تجلس، حملقوا فيها في صمت، ثم انصرفوا إلى الفناء، حيث انخرطوا في حديث مهموس عاجل. وبعدئذ سمعت خطو قدم تسحب على الأرض. جاء بوعزين، مستندا كعادته دائما على ذراع ابنته، إلى الحجرة محييا إياها وهو مبتسم ببعض كلمات عربية لم تترجمها ابنته. جلس المرابط بعدئذ على البساط المطوي. تحدث المرابط ثانية، عيناه على إيميلين، منتظرا ريثما تنتهي ابنته من ترجمتها:

- «إن أبي يشكرك على زيارتك. قد أخبرته بما قلت، وهو يسألك الآن أن تخبريه لم أتيت إلى هنا».

قالت إيميلين «لأننى غير مرتاحة إلى ما حدث. إذا ظللت صامتة بشأن حقيقة هذه الأحداث، سأكون مذنبة بقية حياتى».

أومأ المرابط ونطق برد مهموس. «إن أبى يشكرك على هذه الإجابة. والآن أرجوك أخبريه بما ترغبين فى قوله».

فى الرحلة إلى هنا من مليانة دربت نفسها على ما قد تقوله، لكن الآن نسيت الكلمات المخططة، فبدأت بكشف سر الصندوق الثقيل واستبدال الطلقات المزيفة.

- «إن زوجى استعراضى محترف. واشتهر فى جميع أنحاء أوروبا بخدعه البصرية ومخترعاته. لكن منجزاته نتاج مهارات علمية وتدريب لاينتهى. فى أوروبا، لا ينظر إلى السحرة على أنهم يمتلكون قوى خارقة للطبيعة إنما على أنهم مخادعون مهرة. ويعد زوجى أعظم هؤلاء، ولذلك أرسله الإمبراطور إلى هنا».

- سأل المرابط «ولماذا أرسل؟»

ترددت. ثم جهرت به، فذكرت باقتناع دنيو بأن «المعجزات» الأكبر التى يعرضها زوجها ستشكك فى مكانة بوعزيز وفى أى إدعاء بإنه المهدى وبالتالى كسب الوقت حتى يحين الربيع، عندما ستبحر جيوش لويس نابليون من فرنسا لإكمال فتح الجزائر.

وهى تتحدث كان لا بد أن تتوقف حتى تترجم تاليت. خلال تلك الوقفات أحسّت بنفسها ترتعش، حلقها جاف، وقلبها يدق على جدار جسدها. لكن حينما يحين وقت الاستمرار تخفت نقاط الضعف وتتحدث فى حرارة لم تشهدها طوال حياتها من قبل. عندما انتهت، أحسّت ثانية

بأنها ضعيفة ومحمومة، مستنزفة من المشاعر، كأنما اعترافها لم يكن طواعية لكن أكرهتها على إخراجه إرادة أخرى.

مال المرابط على ابنته وتكلّم لبعض الوقت فيما يشبه الهمس. أومأت تاليت، ثم قالت:

– «أبى يسأل هل زوجك يعرف أنك هنا».

– «كلا. لا أحد يعرف».

– «أبى يقول إنه فى هذه الحالة ما قلته له اليوم سيظل حبيس هذه الحجرة. لن يضطر إلى أن يخون ثقتك لأى شخص. لكن ما أخبرته به سيعينه على اكتشاف إرادة الرب فى هذا الأمر».

عندما انتهت تاليت من التحدث، نهض المرابط وجاء نحو إيميلين وأخذ يديها ووضعها فى يديه، وابتسم وهز رأسه إلى الأمام مودعا. استدار وانصرف من الحجرة.

قالت تاليت عندئذ «هل أنت جائعة؟ هل ترغبين فى أن تأكلى؟ أتودين أن تستريحى لبضع ساعات قبل العودة إلى مليانة؟»

– هزّت رأسها. «كلا. لا بد أن أعود».

نهضت تاليت من الجوال المطوى ومدّت يديها، جذبت إيميلين إليها، عانقتها لفترة وجيزة. أحسّت إيميلين بأن تحت البرنس جسد هش مثل جسد عصفور، ناعم لكنه عظمى، جسد يضنيه الآن سعال خشن وبشع. أمسكت تاليت بيدها وقادتها عبر الحجرات المؤدية إلى الفناء. فى الخارج، انتهت حلقة الطلاب المصلين من ترتيلهم وعلى الفور بدأوا من جديد. كان رباط اللجام مرتخياً على عنق الفرس، وقفت فى ظل مدخل،

وذيلها تهش به الذباب. مرة أخرى جذبتها تاليت فى معانقة ووقفت ضئيلة مثل طفلة تلوّح مودعة بينما انطلقت إيميلين.

***

تحت الشمس اللدود، فى الطريق الصحراوى الخالى المغبّر، كانت إيميلين متحيرة، وبالرغم من عناق تاليت، أحسّت بأنها وحيدة ومرفوضة، وقادت المطية فى تمهل، مما سمح للفرس أن تبطىء لتصل إلى مجرد السير. وبعد انقضاء ساعتين، عندما وصلت أخيرا إلى مليانة، أخبرها الجندى الزواوى الواقف موقع الحراسة بأن مأدبة الغداء بالنسبة للشيوخ أوشكت على الانتهاء. «إن مسيو لامبير من المتوقع أن يرجع بعد وقت قليل».

صعدت إلى حجرتها، أمرت بأن يجهّز لها حوض للاستحمام، وجلست لتنقع جسدها فى مائه البارد. ما الذى كان المرابط يعنيه حينما قال: إنه لن يعرّف أحداً بما قالته له؟ كانت قد قررت، هذا الصباح فى طريقها إلي الزاوية، أنها إذا كانت ستقول الحقيقة لبوعزيز فإنها لن تخفى على أونرى ما فعلت. لأنها عرفت أنه فى الوقت الذى نبع فيه سلوكها من الإحساس بالعار والغضب، لم يكن ما فعلته لرفع الظلم فحسب، لكنه كان أيضا نوعاً من تصفية حسابات مع أونرى لغلظة قلبه فى مسألة وفاة جول، ومع دنيو لغطرسته فى معاملتها كدمية: لكن الآن بدا ممكنا أن تصرفها هذا الصباح، وهو أكثر المواقف شجاعة وضدامية فى آن واحد أقدمت عليه فى حياتها، بدا أنه قد لا يجلب الغضب والعقاب اللذين هيأت نفسها لتقبلهما. الآن، إذا أخفت الحقيقة عن أونرى، أيا كان قرار المرابط فلن يقع عليها لوم قط.

لكن هل المرابط يؤتمن؟ حقيقى أنه فى حضوره أحسّت بإحساس مبهم بالقداسة، لكن ما الذى تعرفه حقا عن أولئك الناس ومعتقداتهم؟ إن عقيدتهم ليست أكثر روحانية من المسيحية، لكنها أقوى، مفزعة فى حدتها، مع يقين لم تعد المسيحية تملكه.

***

سألها وهو يدخل الحجرة :

– «كيف كانت نزهتك؟ هل تفسّحت فى الصحراء؟»

– «كيف كانت المأدبة؟»

– «غريبة، غريبة جدا».

خلع سترته الكتانية وجلس على الأريكة الوحيدة فى الحجرة، مادّاً ذراعيه ومحدقا فى السقف.

قال «أتعرفين أننى علمت شيئا اليوم. فى أوروبا عندما أعرض حيلة بصرية ينبهر الجمهور بما فعلت. لكنهم لا يظنون أنها شر، لأنهم بطريقة ما يحسّون أن حيلة ما مورست عليهم. وبالتالى فإنهم لا يكرهوننى أو يخشوننى مثلما فعل هؤلاء العرب على مأدبة الغداء. كان إحساساً جد غير لطيف، إحساساً مفزعاً تقريبا. صدّقينى، سأكون سعيدا عندما ينقضى الأمر برمته».

راقبته وهو ينهض، يخلع قميصه ويغسل وجهه وعنقه فى حوض وظهره إليها. كان باستطاعتها أن ترى المساحة الصلعاء التى كان يسوى شعره عليها بعناية فيغطيها قبل كل عرض. بدا، وهو مائل بكتفيه المقوّستين قليلا وصدره الضيق، بدا ذا هيئة متواضعة، هيئة خادم وليس

سيدا. إن الشهرة التى سعى إليها، الحلم الذى حمله بشأن أهميته، بدا الآن وهما مثيرا للشفقة، لأنه إذا كان ما فعلته اليوم سيلهم بوعزيز بالشروع فى الجهاد، فسيحرمه هذا من انتصاره الأعظم، انتصاره الذى كان سيجعل من إنجازاته أساطير وهو جزء من تاريخ.

الآن وبعد أن فرغ من الغسيل، وضع روبا وخرج إلى الشرفة. جلست مريضة بالهمّ، ذهنها يتخبط بين مجموعة من التفسيرات، عجز أى منها أن يبدد الغضب والحنق الذى توقعت حدوثه. ولأنها لا تستطيع أن تستعمل كذبة الصمت، كان لا بد من أن تخبره بالحقيقة. ببطء مثل شخص عليل، نهضت وذهبت إلى الشرفة.

فى تلك اللحظة، صعد جندى متعجلا الدرج الحجرى المؤدى إلى الفناء أسفل وسلّم لامبير ورقة مطوية، وهو يؤدى له التحية العسكرية.

- «سيدى، هل أنتظر لتلقى رد؟»

رأت لامبير يفضّ الرسالة ويقرأها.

- «شكرا لك. لا رد».

أدى الجندى التحية مرة أخرى، هبط الدرج راجعا، حذاؤه ذو الرقبة الطويلة يحدث صوتا عاليا على الحجر. وقف لامبير يحملق فى الرسالة كأنما يقرأها مرة تلو مرة. ثم رآها تقف بالقرب منه، أمسك بالورقة وقال:

- «إنها من شارل دنيو. دعا بوعزيز إلى اجتماع للشيوخ فى فناء الجامع الكبير صباح غد. طلب أن نكون موجودين شارل وأنا، وأنا لا أدرى لم طلب أن تكونى حاضرة».

- نظر مرة أخرى في الورقة.

- «شارل يحسب أننا في الغد سنحصل على رد بطريقة أو بأخرى. لكنه أمر غريب. لماذا يطلب مرابط وجودك؟»

وقفت صامتة، تنظر إليه.

قالت «إن الجو دافئ للغاية لأن نبقى في الخارج. تعال. أريد أن أخبرك بشيء».

عندما دخلا الغرفة الداخلية ذهب إلى البوفيه وصب لنفسه كوبا من الماء.

- «حسنا؟ ما الأمر؟ «بدا منشغلا، يستمع بنصف تركيز. لكن حينما بدأت تتكلم، وقف متسمرا معطيها ظهره، يداه لا تزال تمسك بكوب الماء والدورق.

- «هذا الصباح ذهبت لرؤية المرابط في ملجئه في التلال. تحدثت معه ومع ابنته. أخبرته بالسبب وراء إرسالك إلى هنا. أخبرته بحقيقة الصندوق الثقيل والطلقات المزيفة. أخبرته بهجوم الربيع المقبل. استمع إلي ثم قال إنه لن يخون ثقتي، وإنه لن يعلم أي شخص بما أخبرته به. لكن حتى إذا كان هذا صحيحا، لا أستطيع أن أخفي عنك ما فعلت. لن أقول حتى إنني آسفة. أعرف أنه من المرجح أن يكون هذا نهاية زواجنا. لكن ليس لدي خيارا. لا أعتقد أننا يجب أن نكون فاتحين لأولئك الناس أو أننا يجب أن نحاول أن نجعل منهم فرنسيين، أو ننتفع ببلادهم من أجل مكاسبنا. لم أرد أن أكون جزءا من هذا».

راقبته وهو يضع الكوب والدورق، ثم استدار ليواجهها. كان الغضب الذى توقعته غائبا عن وجهه. بدلا من ذلك، بدا أنه يحاول فك لغز ما، كأنما ليكتشف حيلة وراء ما قالته له. وفى النهاية قال :

– «هو يعرف إذن. مثير. كنت مستاء من لعب دور واحد من أولئك القديسين الأغبياء، مجرد وعاء يستخدم من جانب قوة إلاهية. لا بد له الآن من أن يدرك أننى أتقنت مهارات يعجز مرابطون جهلة أمثاله أن يتمكنوا من إجادتها أبدا. طيب ! لكن كيف أتعامل مع هذا؟ لا بد أن أفكر بشأن الخطوة التالية».

ومع نطقه بهذا، ذهب إلى الشرفة، مغادرا دون أن يوجه نظرة تجاهها. رأته يذرع الشرفة جيئة وذهابا، رأسه مطرق، فى بعض الأحيان يومىء لنفسه، وفى أحيان أخرى يهز رأسه مستنكرا. توقف عن السير ووقف، يداه تقبضان على حاجز الشرفة هو يحملق فى المسرح المكشوف أسفل. وأخيرا عاد إلى الداخل.

– «قال إنه لن يخون ثقتك وإنه لن يعلم أى شخص بما أخبرته به. أخبرينى. هل تصدقينه، أم تحسين بأنه كاذب؟»

قالت «إنى أصدقه».

– «حسنا جدا. لماذا قال لك ما قاله؟ أحسب أنى أعرف الإجابة. لأن المئات ممن رأونى أعرض «معجزاتى» يصدقون ما رأوه، وسيكون من العسير عليه أن يثبت أننى خدعتهم بحيلة. إن سر الصندوق الثقيل والطلقات المزيفة هما من أسرارى. سيتعين عليه أن يبرهن عمليا كيفية نجاحهما. لذا، فإنه سيلزم الصمت بشأن ما قلته له. أحسب أننا أيضا يجب أن نلزم الصمت أيضا. لا بد ألا تخبرى دنيو بالأمر».

– «ولم لا؟»

– «لأنه لا يوجد ما يمكنه عمله لتغيير الموقف. بالإضافة إلى أنه لماذا يجب علىّ أن أدع العالم يعرف أنك ذهبت من وراء ظهرى وبذلت جهداً لتدميرى؟ إذا أعلن بوعزيز غدا شن حرباً مقدسة، فستنسى أفعالى هنا. وعلى الجانب الآخر، إذا قرر التراجع، إذن فغدا يوم انتصارى، انتصار سيبقى معى بقية حياتى. يدرك بوعزيز الآن أن «معجزاتى» فوز للعلم على الخرافة. آمل أن تعمل المعرفة لصالحى».

جاء نحوها، رفع يداه بأسلوبه الغريب، كأنما ليظهر أنه ليس لديه ما يخفيه. والآن رأته أخيرا متأثرا ومتكدرا، إنه يسأل شيئا ما، شيئا ما يجد صعوبة في صياغته في كلمات. قال «إيميلين، سؤال أخير. وعلىّ أتلقى إجابة حتى ولو كانت فى غير صالحى؟»

– «ماذا تعنى؟»

– «منذ لحظة قلت إن هذا على الأرجح نهاية زواجنا. أهذا ما تريدين؟»

– «كلا». قالتها بدون تفكير، لم تفكر سوى فى أنه أساء فهمها.

اقترب ووضع يديه على كتفيها. كان وجهه مشدودا كأنه خائف.

قال «إننى ممتن لهذا. لا بد ألا أفقدك. أعرف أننى ارتكبت أخطاء فى الماضى. رأيت ما حدث لك فى كومبيان، حيث احتفوا بك وأعجبوا بك. كان خطأ من جانبى أن أعزلك فى تور. لا بد أن نسافر الآن أكثر. سأمتلك شقة فى باريس، حيث سترين أصدقاءك وتبهجى نفسك. لا بد أن تعرفى أنك كل شئ بالنسبة لى».

– «كل شيء؟»

– «نعم. ليس لدى سواك وعملى».

عندما قالها انحنى وقبّل خدّها.

– «لقد دعانا الكابتن راؤول وزوجته لحضور حفل عشاء صغير فى مسكنهما. لن يكون دنيو حاضرا، لأنه سيتناول عشاءه مع شيخ ما. قد يكون الأمر ظريفا. ما رأيك؟»

قالت «أحسب أن هناك أمراً يجب أن تعرفه، إنى لست آسفة على ما فعلتَ اليوم. لا بد أن تتذكر هذا».

– «بالطبع. يا محبوبتى لست بحاجة أن تشعرى بأنك آسفة. إنى لست أفهم وجهة نظرك، لكنى أحترمها. بالإضافة إلى إنى أحبك، ولأننى أحبك سأغفر لك أى شىء. أى شىء !»

قالت «لم أسألك الغفران. ما هو ميعاد حفل العشاء؟»

الفصل الثالث عشر

الفصل الثالث

شق دنيو، الذى كان يركب أمامهم، طريقا عبر حشد أهالى القبائل الذين ملأوا الشوارع خارج ساحة الجامع الكبير. تولى سائسان من الزاوية العناية بالخيول بعد أن ترجلوا عند المدخل الرئيسى.

– قال دنيو إلى لامبير «لا بد أن تدخل أولا. سنمثّل دور حاشيتك. سر صوب أشجار البرتقال فى قلب الساحة. يوجد تحت هذه الأشجار حوض حيث يغسل فيه المؤمنون أيديهم وأقدامهم ووجوههم قبل دخولهم المسجد ذاته. فى هذه الساحة سينطق بوعزيز بحكمه. لست أدرى كيف سيستقبلونك. قد يحاولون تقبيل ثنايا ملابسك كنوع من التبجيل. وعلى الجانب الآخر، قد يبصقون عليك. من المرجح، أنهم سيتراجعون إلى الوراء، مثلما فعلوا بالأمس. إنك الساحر الكافر. هم يخشونك. تجاهلهم. حدّق فى الطريق أمامك».

سمعت إيميلين، التى كانت تسير بين كابتن ارسان ومترجم عسكرى، جلبة متململة من الحشد الذى أخذ يتنقل أفراده من هنا إلى هناك حول الساحة مثل قطيع عظيم من الحيوانات فى حظيرة. كان لامبير يسير متقدما عليها بمفرده، مارا بمجموعة من الأعمدة المرمرية البيضاء وفجأة تعرفوا عليه. سرى همس عبر الحشد، مشيرا إلى أن الساحر الرومى وصل. مشت مقلّدة لامبير محدقة فى الطريق أمامها، واعية بالفحص الدقيق المتحرّق للوجوه السمراء ذات اللحى. رأت أشجار البرتقال أمامها. كان فى انتظارهم عند النافورة أسفلهم الأغا بوعليم، مضيّفهم منذ يومين، والشيخ بن عمارة، الذى أطلق المسدس على زوجها فى محاولة لقتله. انحنى الأغا ترحيبا. أومأ بن عمارة فى برود لدنيو متجاهلا لامبير.

قال لدنيو بالعربية «إن المهدى هنا. إنه يصلّى فى الجامع وسينضم إلينا حالا».

قال دنيو «المهدى؟ «نظر وترجم. «هل هذه هى الإجابة التى كنا سنتلقاها؟ إنى أتساءل».

التفت إلى الأغا.

– «إذن بوعزيز قرر أن ينصب من نفسه المهدى؟ هل هذا يعنى الجهاد؟ إذا كان الأمر كذلك لماذا طلب منا أن نحضر إلى هنا؟ ليبصق علينا؟»

قال بوعليم «يا كولونيل، لم يعلمنى أحد بقرارات المرابط. إن الشيخ بن عمارة قد يكون على علم بها أكثر منى. على أية حال نحن لن ننتظر طويلا. أنصت».

بينما هو يتحدث، سمعت إيميلين إنشادا يبدأ خلفها. التفتت إلى المترجم. «يا مدام، إنهم يقولون:

جاء محمد بن عبد الله. سيد الساعة هنا».

نظرت إلى لامبير ورأته يحدق أمامه كما قيل له أن يفعل، لكن لم يعد قادرا على أن يستمر في أداء دوره. حيث تراخي جسمه من خيبة الأمل. كل ما خطط له ونفّذه بهذا القدر من الحذق أهدر: بل أسوأ منّ هذا تسبب في موت جول. زيارة كومبيان، تكليف الإمبراطور، الآمال التي كان يمنّى نفسه بها بتقلد الميداليات والمديح كل هذا انتهى. سيقع تمرد ويموت خلاله عرب وقبائليون وجنود فرنسيون، أما الآن فقد تنشب حرب يحتمل أن ينتصر فيها العرب.

لاحظت إيميلين، التى كانت تقف بجوار زوجها، أن الحشد تفرّق مرة أخرى ليفسح طريقا، لكن تبجيلا، رجال يلمسون ثنايا عباءة المرابط، يحركون بأصابعهم حبّات المسابح كحال التضرع، ينشدون المرة تلو المرة : «محمد بن عبد الله»، اسم المهدى. أومأ بوعزيز رادا التحية، شقّ طريقه ببطء صوب النافورة وهو متكيء كعادته دائما على ذراع ابنته. وعندما وصلا إلى مجموعة لامبير، حيّا المرابط الأغا والشيخ بن عمارة، ثم دنيو وارسان وأخيرا، بانحناءة خفيفة، لامبير.

التفت الشيخ بن عمارة، الذى تجعّد وجهه فى ابتسامة منتصرة، التفت إلى الجمهرة المنتظرة، رفع ذراعاه لجذب إنتباههم. «صمتا من أجل محمد بن عبد الله!»

تحرك بوعزيز ليبتعد عن ابنته، ويقف الآن بمفرده، ظهره للنافورة، مواجها الحشد. عندما بدأ حديثه، زاحم المترجم ليقترب من إيميلين ولامبير ليترجم لهما فى همسات متعجلة.

«إخـواني، لقـد تـأملت وسـألت الرب أن ينزّل أوامـره. تقبلت الاسم الجديد الذى أعطانيه الرب، اسم محمد بن عبد الله، اسم المهدى. لكنى لا أدّعى أن أكون المخلّص الذى سيقود الإسلام إلى انتصار الدين الحق ونهاية هذه المهانة التى جلبها علينا خضوعنا للكافرين. إن زعمى اليوم هو أنى رسول الرب والرسالة التى منحها الرب لى هى أن انتصارنا لن يتـأتى إلا عندمـا نواجـه الحقيقـة. والحقيقـة أننا انحرفنا عن الطريق السوى. إن الإصلاح وإحياء عقيدتنا الآن هو واجبنا جميعا. هذا هو وقت الصلاة، للجهاد الروحى وليس الحربى. لنقهر أعداءنا، لا بد أن نزيد من طاعتنا للرب وللرسول. إذا فعلنا هذا فإن إيماننا يومـا مـا سيكون قويا للدرجة التى سيصير معها العالم المسيحى عاجزا أمامه وسيزول الكفرة من هذه الأرض إلى الأبد».

سمعت إيميلين، أثناء النطق بهذه الكلمات، همسات عدم التصديق والغضب من بن عمارة والشيوخ الآخرين. لكن الحشد فى غالبيته كان صامتا منتبها.

واصل المرابط. «إخوانى، إنى رسول من الرب. فى تلك الأيام الأخيرة منحنى منفذا للعالم غير المنظور. نتيجة لهذا، فإنى أعرف أن الكافرين سيطردون من هذه البلاد، وأن نهج الإسلام سينتصر، وأن مرور الفرنسيين وقتى، إنه لن يستمر. فى النهاية سنجد فى الجوامع والزوايا نصرنا. ما من شىء إلا والرب مرسله».

ثم التفت بوعزيز إلى لامبير.

«الآن أنتم الأقوى. لقد أريتمونا معجزات تتجاوز أى شىء رأيناه على الإطلاق. لم تبهر أعيننا من قبل بمثل هذه الأعاجيب. لكن أهى معجزات كما نعرفها نحن؟»

وعندئذ، توقف بوعزيز وتخطى بنظره لامبير إلى إيميلين، ثبتت عيناه عليها كأنما تسعى لإيجاد رابطة ما.

بعدئذ قال «لا يهم. لأنها تأتى من الرب. ما من شىء إلا والرب مرسله. وبالتالى فلقد ألقى بكم علينا مثل صاعقة برق ليبرهن الآن أنه لا أحد سواه، هو الجبّار، القادر على نقض إرادتكم».

رفع بوعزيز يديه كأنما ليشير إلى أنه أنهى كلامه. تقدمت تاليت على الفور إلى الأمام وقالت إلى لامبير:

«والدى يشكرك على زيارتك ويتمنى لك رحلة آمنة إلى وطنك». ثم ذهبت بجسمها الضئيل والواهن إلى إيميلين، مادّة ذراعيها مثل طفلة لتطوق به عنق إيميلين، ويلمس خدّها خدّ إيميلين وهى تهمس:

«والدى يعرف أنه اختار الاختيار الصحيح. وهو يشكرك على مساعدته على اتخاذ القرار».

وعند هذه النقطة انضم إليهما دنيو، ووجهه لا يخفى سعادته.

- «تعالى. لا بد أن نغادر المكان حالا».

وبينما هم يسيرون مبتعدين عن النافورة، سمع مؤذن من مئذنة تعلوهم بكثير يرفع أذان الصلاة. وتابعت كل الأعين فى الجمهرة الهائلة المرابط وابنته وهم يتحركون بين الأعمدة الرخامية، ويدخلون الجامع.

فجأة أحسّت إيميلين بأن ارسان يدفعها جانبا فى حركة سريعة متشنجة. لاحظت أن الحشد أمامها تفرق ليكشف عن شاب على بعد خمسين خطوة يضع عمامة القادة العالية ويشهر مسدسا صوبه الآن نحوها. فرقع المسدس.

توقف لامبير الذى كان يسير متقدما عليها بخطوات وأخذ يحملق فى المهاجم. فى صمت رهيب، أخذ القائد الشاب يحملق فيه هو الآخر، ألقى مسدسه واستدار وغاص فى الحشد. لم ينظر لامبير ليرى ما إذا كان قد أصيب، لكن بعد أن توقف لحظيا استمر فى السير نحو البوابات. وفى هذه اللحظة، من النظرات المصعوقة للحشود المحيطة، أدركت أن القاتل لم يطلق النار عليها إنما على زوجها وأنه لم يخطئه. هرعت نحوه لتسير بمحاذاته.

حدّق أمامه وقال: «لا تلمسينى. سنغادر. استمرى فى السير».

دخلت الطلقة فى جسده أسفل كتفه مباشرة. انتشرت بقعة الدم، مثل وردة حمراء، على سترته الكتانية البيضاء. لكنه لم يتعثر فى مشيته، أو يظهر أقل بادرة على الضعف أو الألم. جاء دنيو ليسير بمحاذاتها وسدد لها نظرة محذرة.

– «إيميلين، افعلى ما قاله لك».

كانت كل الوجوه المفزوعة تتفرس بينما بدا أن الساحر لم يصب بسوء وصل إلى بوابات الساحة، حيث كان السائسون الفرنسيون ينتظرون بالخيول. رأت لامبير يتماسك واللحظة يرتعش من الألم وهو يضع قدمه فى الركاب ويعتلى الحصان، مستخدما يده اليسرى للإمساك بالحافة الأمامية للسرج. وسرعان ما حذا حذوه دنيو وإرسان وساعد السائسون إيميلين فى إعتلاء الحصان. وسار جواد لامبير فى المقدمة وتبعوه بخيولهم، عبر الشوارع المغبرة والمزدحمة، وأعاقت الحارات الضيقة والمشاة المحملقين الخيول فاضطرت إلى أن تمشى بخطى بطيئة، أمسك لامبير اللجام بيده اليسرى، وذراعه اليمنى متراخية جنبه.

تملك الهلع إيميلين، فضربت على جانبى حصانها وتحركت لتصير بمحاذاته.

– «أونرى... أونرى؟»

لاحظت أن وجهه يتقلص غضبا أو ألما. قال «تظاهرى! تظاهرى!».

كان الحصن الفرنسى على بعد ثلاثة شوارع من الجامع. غمز دنيو حصانه، ليحاذيها قائلا:

– «إن الأمر على ما يرام، إن الأمر على ما يرام. سآتى بالطبيب. سنصل إلى هناك خلال لحظة».

وبعدئذ، أدار رأسه، مناديا لامبير «تماسك يا أونرى! تماسك! كنت رائعا!».

فتح الحرس الزواوية البوابة على مصراعيها عند اقتراب دنيو مسرعا بجواده.

صاح «أغلقوا البوابة بمجرد دخولنا!».

ترجّل كابتن إرسان، الذى كان يسير بمحاذاة لامبير، فى الفناء ومد جسمه ليلتقط لامبير على ذراعيه، ورفعه من على السرج.

– «أيها الرجل الطيب، أيها الرجل الطيب! عدنا إلى المنزل. ستكون على مايرام».

لكن لامبير فى هذه اللحظة فقد وعيه. صاح دنيو، وهو يقف بالفعل على باب المستشفى، مصدرا أوامره وهو يصيح، وفى التو أتى جنديان يهرولان عبر الفناء يحملان نقالة. لاحظت إيميلين أن الدم ينساب فى تجمع داكن حول منطقة الصدر فى سترة زوجها. جرت بجانب النقالة،

ومالت عليه، تناديه. لكن عندما دخل حاملا النقّالة المستشفى جاء دنيو وأمسك بذراعها.

«إن الطبيب هنا ومستعد لإجراء الجراحة. سيصبح الأمر على ما يرام، سيصبح الأمر على ما يرام. اجلسى الآن... اجلسى».

أجلسها على دكة فى الردهة بجانب حجرة العناية المركزة التى توفى فيها جول. عبر القاعة، استطاعت أن ترى طبيبين يرتديان زيا أبيض وقناعين يدخلان حجرة مكتوب عليها «جراحة». أسرع دنيو وإرسان خارجين إلى الفناء كأنما فى طريقهما لحضور اجتماع مهم. مر بها جندى ممرض يرتدى مئزرا أبيض وذهب إلى حجرة الجراحة، حاملا فيما يبدو صينية أدوات. جلست وهى فى خدر وذهنها خليط مشوش من الصور المتقطعة مثلما الحال فى الأحلام: أونرى يسير عبر ساحة الجامع دون أن يرمش؛ أونرى يفقد وعيه، يسقط بين ذراعى إرسان؛ البقعة الوردية الداكنة فى سترته الكتانية؛ أونرى مقوس ظهره على مكتب، يثقب إبهامه لسحب الدم منه من أجل الطلقة المزيفة التى استخدمها فى استعراضه؛ القاتل الشاب يطلق النار، عيناه وقد اتسعت حدقتها فى تركيز جنونى؛ مقبرة الجيزوييت بمقبرتها المفتوحة حديثا، وقد انزلق فيها الجوال المحتوى على جثمان جول؛ البوابة الكهربائية لمانوار ديه شين فى تور تفتح للسماح لمركبة بالدخول تجلس هى فيها، مرتدية ثوب الحداد.

والآن، عاودتها البرودة التى أظهرتها له خلال الليلة الماضية كجرح. لقد انقلبت عليه، إذا مات فلن أستطيع أن أقول له أبدا إننى فى الليلة الماضية كنت غاضبة ومتعجرفة، وإنه مع كل أخطائه زوجى الذى يهمه صالحى ويحبنى بطريقته، وبدونه سأكون وحيدة.

هبّت رائحة الإثير من حجرة الجراحة عندما فتح جندى ممرض الباب ومر بها، حاملا حوضا من الصفيح لاحظت أن فيه أدوات ملطخة بالدماء. الإثير إنه فاقد الوعى، عقله فى تخبط، لم يعد خادما لإرادته. ما الذى قاله قبل أن يغمى عليه؟

«تظاهرى ! تظاهرى!».

لكن هل يستطيع أن يظل يتظاهر؟

***

جاء الجرّاح نحوها مبتسما، وكان ذا لحية، متين البنية وعينه اليمنى بها حول، وأخذ يجفف يديه فى منشفة.

- «مدام لامبير؟»

وقفت. قدّم إليها يده وصافحته.

- «حسنا، إن زوجك حسن الحظ. لقد استخرجنا الطلقة. كانت مستقرة تحت كتفه مباشرة. يحتمل أن يكون وقع تلف عصبى. لا أستطيع الجزم بعد. هل رأيت الكولونيل دنيو؟»

- «كلا».

- «لا بد أن أعثر عليه وأعطيه تقريرا. لا يزال زوجك تحت تأثير الإثير. آه، ها هو».

نظرت إلى الوراء إلى الحجرة المكتوب عليها جراحة، متصورة أن الجراح يتحدث عن أونرى. بدلا من هذا، أومأ لها مودعا وسار الردهة لمقابلة دنيو، الذى وصل توا. تحدثا، وبعد دقائق قليلة، انضم إليها دنيو.

- «أخبار طيبة جدا، هه؟»

– «نعم».

– «بل هناك ما هو أفضل، أخبرنى الطبيب بأننا نستطيع الرحيل فى الغد؟»

– «نرحل؟»

– «نعود إلى العاصمة. وتلقين بكل ما حدث وراء ظهرك. لقد كان الأمر كله صعبا بالنسبة لك، أعرف ذلك».

سألت «لكن كيف نرحل فى الغد؟ إن أونرى مريض».

– «طبيبنا أخبرنى أن أونرى قادر على السفر. وستكون أول محطة نتوقف عندها أثناء رحلتنا، إذا كنت تذكرين، على مبعدة بضع ساعات. سنبقى بمعسكر بن جنّة. إن ما يهمّ هو إخراجه من هنا بأسرع ما يمكن».

قالت «إننى لا أوافق. إننى متأكدة من أن حالته لا تسمح ببدء رحلة كهذه».

– «لا يتفق الدكتور لابورت معك. وهو يعرف الكثير عن الإصابات بالطلقات. إنى أثق فى حكمه تماما».

قالت «إن أونرى لا يزال فاقدا للوعى. كيف يمكنك أن تجزم بأنه قادر؟ بالإضافة إلى أننى أحسب أن القرار يجب أن يكون قرارى، وليس قرارك».

قال بنيو «فى النهاية سيكون قرار أونرى. لقد كان شجاعا على نحو لا يصدق. لا بد أن نستثمر هذه الشجاعة. إذا ركب خارجا من هنا صباح الغد سيعرف الشيوخ والمرابطون، بل فى واقع الأمر كل الجزائر،

أنه مرة أخرى أثبت أنه لا يقهر. ما حدث اليوم سيضيف إلى أسطورته. يا عزيزتى، ألا تدركين أننا قد فزنا؟ نجح أونرى فى كل شىء حدده لتنفيذه. بسببه، لن يكون هناك جهاد. بسببه، تزعزعت الثقة فى صديقك بوعزيز. لا بد ألا ندع أى شىء يفسد هذا الانتصار».

قالت «تزعزعت الثقة فى بوعزيز؟ لا أظن أن ذلك حدث».

– «آه! «نظر دنيو إليها. «حسنا، بالطبع أنت تعرفينه أكثر منى».

– «ماذا تعنى؟»

– «تحدثت معه أمس الأول فى زوايته. ماذا تحدثتما بشأنه؟ إنى متلهف للمعرفة. هل حثثته على ألا يعلن حربا مقدسة؟»

لم تجب.

قال «إن هذه البلاد مليئة بالجواسيس. ونحن لدينا جواسيس أيضا. نحن نسميها استخبارات عسكرية. دعينى أعرض عليك اقتراحا. إذا ساعدتنا الآن، أعنى تساعديننا فى أن نجعل أونرى يخرج من هنا آمنا، فى مقابل ذلك أعدك بألا أذكر أمامه بأنك زرت الزاوية».

– «إنه يعلم. الآن ابتعد عنى. أرجوك».

فى تلك اللحظة، انفتح باب حجرة الجراحة وخرج زوجها محمولا على عربة ذات عجلات. كان فاقدا للوعى، جسمه مغطى بملاءة بيضاء. نهضت على الفور، وتركت دنيو، وسارت بجانب العربة، تنظر إلى الوجه الشاحب الغائب عن الوعى. دفعت العربة لتدخل الحجرة التى توفى فيها جول. وبعد أن انتهى الجنود الممرضون من دفعها إلى مكانها ملاصقة للحائط، رأت دنيو يشير إليها من المدخل:

- «أرجوك يا إيميلين. لن أزعجك. انظرى.. إنى آسف على ما قد قلته. سامحينى. لنبق أصدقاء، أنا وأنت. أنا لست عدوك».

لم تنظر إليه. «لكنك هكذا».

جلست بجانب زوجها على السرير. عندما نظرت مرة أخرى كان قد انصرف.

***

لقد خسرت، مثلما توقعت ذلك. عندما استيقظ لامبير بعد ساعتين كان دائما، ضعيفا ومصابا بالغثيان من الإثير. لكن أول سؤال ألقاه : «هل رأونى؟ قد أغمى على، ألم يحدث ذلك؟ لكنى كنت داخل الفناء فى ذلك الوقت؟ «طمأنته. أخبرته بشأن الجراحة ونجاحها. وعقب ذكرها لما وصفته «بفكرة دنيو المجنونة بالرحيل غدا »، بمجرد انتهائها من نطق الكلمات حتى نهض فى العربة ذات العجلات وشهق نصف شهقة غريبة انتصارا.

«حسنا، هذا يعنى أننى نجحت، أليس كذلك؟ بالرغم مما حدث، فالعرب يعتقدون أننى لا أقهر. بالطبع، شارل على حق. الشىء الذى يجب فعله الآن هو الركوب خارجين فى انتصار، كما خططنا دائما أن نفعل. لنبتعد عن هنا، وكلما أسرعنا بذلك كان أفضل».

قبل هبوط الظلام بقليل، جاء دنيو وإرسان لرؤيته. عندما دخلا حجرة المرضى تحركت بعيدا عن السرير، لكنها وقفت فى المؤخرة. تستمع لما يقال.

بعد التهانى والمديح، قال له دنيو «أونرى، نحن نخطط للرحيل غدا. هل أخبرتك إيميلين؟ أعرف أنها ضد ذلك، لكن».

– «كلا، كلا، أخبرتنى، وإنى اتفق معك تماما مع فكرتك».

– «إننى سعيد. سيكون من المؤسف أن نفسد الأمور. بالإضافة إلى أن الطبيب يظن أنك ستتمكن من السفر على نحو رائع طالما أنك لم تستخدم ذراعك اليمنى. حسنا، بالطبع إنك لا تستطيع استخدامها الآن، أو تستطيع؟ سنجعلك تركب وعلى كتفيك عباءة. لن يروا الضمادات».

قال ارسان «ونحن نخطط للرحيل على ظهر الخيل فجرا. لن يكون هناك الكثير من الناس فى مثل هذه الساعة».

قال دنيو «لكن الشيوخ سيقال لهم إنك رحلت. وبالطبع صديقنا المدعو السابق «محمد بن عبد الله». ضحك ثلاثتهم.

سدد لها دنيو نظرة خاطفة، ثم قال:

– «إنى أشعر بالأسف له. كل هذا الحديث الروحانى لن يقع موقعا حسنا فى نفوس زعماء القبائل، لكن بما أنه لايزال المرابط البارز فى هذه البلاد فإنهم سيضطرون لتقبله. وبالطبع يوجد تقليد فيما قاله اليوم عن هزيمتنا عبر الصلاة. هذا هو ما سيحاول بيعه للقبائل. وسينجح على الأقل لفترة من الزمن».

قال ارسان «على الأقل حتى حلول الصيف المقبل». ومرة أخرى ضحكوا.

قال دنيو «سأرسل دوفور ليسبقنا ليبلغ الماريشال راندون بالأنباء الطيبة. ستنقل الجزائر العاصمة الأنباء إلى لويس نابليون نفسه. لا بد أن نتأكد من أن أونرى سيكافأ على شجاعته. وأسفاه، لن يستطيع الإمبراطور أن يقلدك وسامه الجديد.. الميدالية العسكرية، لأنها مقصورة على الجنود لكن وسام جوقة الشرف؟ نعم».

سأل ارسان «ما أعلى مستوى فى وسام الجوقة؟ الصليب الكبير؟»
غاص لامبير فى الوسائد الموضوعة خلفه. بدا منهكا، ولكنه مبتهج، كأنما ثمل. قال: «على أى مستوى، إنى أشعر بالتكريم. تحيا فرنسا!»

***

ركبوا عبر شوارع مهجورة، مروا بأكشاك الأسواق المغلقة، عبر البوابات الرئيسية، همزوا خيولهم لتسرع، كانت الشمس الآن مثل طائرة ورقية فى السماء وهم يمرون فى الطريق الذى شغلته المخيمات المؤقتة للشيخ الزائرين. جرى الأطفال والكلاب النابحة وراءهم ليروهم وهم يرحلون؛ راقبت النساء المشهد من فتحات الخيام المصنوعة من جلد الماعز، بينما جلس رجالهم فى دائرة تحت مظلات يحتسون قهوتهم الصباحية، وجهوا نظرة خاطفة بلا مبالاة مدروسة بينما تترك جماعة الرومى لامبير، إيميلين، ارسان، دنيو وخادمه قدّور، وثلاثة من سائقى الجمال يضربون بالسياط خصور حيواناتهم المثقلة بالأحمال مليانة وراءها، وتتضاءل قافلتهم أكثر فأكثر فى الأفق.

وصلوا إلى مساكن بن جنّة المغربية عصرا، وخرج للقائهم هو وابنه مثلما فعل سابقا. ترجل لامبير بشكل متخشب، وهو لايزال يخفى إصابته. رفض عرض مضيفه لشرب القهوة، وتوجه فورا وإيميلين إلى حجرتهما. وهناك، ساعدته على خلع سترته المشبعة بالعرق وفكّ حذائه ذى الرقبة الطويلة كى يتمكن من الاستلقاء على الأريكة. كانت ذراعه فى معلاق، وعندما مدد جسمه على ظهره فى السرير، حاول أن يرفعها. سقطت ثانية على بطنه. أدار رأسه لينظر نحوها ولاحظت انزعاجه.

قال لها «كتفى. ليس الألم هو بالملح إنما هو شىء آخر. أحس بأن ذراعى قد ماتت إحساسى بها. عندما غيّروا الضمادة ليلة أمس، ذلك الجرّاح قال شيئا ما عن تلف فى الإعصاب. هل تذكرين؟».

– «أذكر أنه لم يبد قلقا. قال أنت محظوظ جدا».

– «لكنه قال شيئا ما. قال إنهم ليسوا متأكدين بعد».

قالت «انظر، لم تنقض أربع وعشرون ساعة بعد منذ إطلاق النار عليك. بالطبع لن تحس بأن ذراعك طبيعية. الآن حاول أن تستريح. ستكون الرحلة أكثر صعوبة من رحلة اليوم. أتتذكر الوديان الضيقة شديدة الانحدار فى طريقنا إلى هنا؟ هذا هو ما يقلقنى. كيف ستتمكن من اجتيازها؟»

قال «لن نكون على خشبة المسرح عندئذ. سأسقط احترازى. سيقود خادم دنيو جوادى».

لكن فى اليوم التالى عندما وصلوا إلى الوديان الضيقة شديدة الانحدار أنزل قدّور العملاق لامبير من على متن جواده وحمله عبر أخطر المضايق. ونحو المغيب، مع اقترابهم أخيرا من العاصمة، هندم دنيو عباءة وثياب لامبير، بينما غسلت له إيميلين وجهه وعنقه واتخذ هيئة دخوله المدينة على صهوة جواده، حيث ستفحص مروره عيون عربية. وكعادة لامبير دائما عندما يحس بأنه محل أنظار العامة، يستعرض نظامه فى الخداع الذى هو حجر الزاوية لمهاراته. لكنه فى الأمسية التالية، عندما احتفل به وصفق له أثناء حفل استقبال أقامه مسيو دو لا جارد، وحضره كافة كبار المسئولين وزوجاتهم، لاحظت إيميلين أن شيئا ما قد حدث له. هو الذى كان دوما متعطشا لتلقى المديح، بدا الآن

مضطربا وغير منتبه، حريصا على أن تنقضى الأمسية. فى البداية أرجعتها إلى الإنهاك، لكن فى تلك الأمسية، وهى تساعده على خلع ملابسه، نظر إليها وقال : «هذه هى النهاية بالنسبة لى».

– «ماذا تعنى؟»

– «إنى عاجز الآن».

– «هراء !»

– «كلا. كان الكولونيل بوزان هو الطبيب الذى جاء يضمد جرحى ما بعد ظهيرة اليوم. وهو يعد أعلى مسئول طبى عسكرى فى العاصمة والطبيب الشخصى للماريشال راندون. لذا فإن رأيه يعتبر أفضل رأى متاح. وصفت له الأعراض وأجرى بعض الاختبارات. يوجد تلف عصبى حاد. قد أستطيع أن أرفع ذراعى إلى مستوى وسطى، وقد أعجز عن ذلك. على أية حال، إن مستقبلى المهنى انتهى. أصبحت عاجزا بقية حياتى».

نظرت إليه، تبحث عن كلمات للإنكار والراحة دون جدوى. لكن بدلا من هذا لاحظت أنه كما كان ذات مرة عندما يدخل حجرة، يرفع يديه الرشيقتين الخفيفتين ليظهر أنه لا يخفى شيئا. أو يقف على المسرح، مشتتا انتباه جمهوره بحركات سريعة، بارعة، يده اليمنى تحمل العصا الطلسمية ذات الطرفين العاجيين لجذب الانتباه بعيدا عن تلك اليد الأخرى، التى ستؤدى الحركة الخفية اللازمة لإحداث الإيهام. هذه اليد اليمنى، هذه الذراع اليمنى، تعد ثقلا ميتا بجانبه.

قالت «لكن اختراعاتك، أنت قلت لى إنك لست بحاجة إلى الاستعراض. قلت إنك تريد تخصيص وقت أكبر لاختراعاتك الآلية، للدمى التى تصنعها».

أمسك بذراعه اليمنى عديمة الفائدة، حملها فى عناية وهو يجلس فى هدوء على السرير.

- «اختراعات؟ من ذا الذى سيذكرنى إذا كنت صانع ساعات؟ من ذا الذى حين يشاهد دمية آلية تؤدى مهام على خشبة المسرح، يتساءل عمن صنعها؟ كلا، إنهم يشاهدوننى، الساحر، الرجل الذى يستطيع جعل الناس تختفى، الرجل الذى يأتى بزهور وفواكه لا ينضب معينها من قرن الخصب، الرجل الذى... لم أقول لك؟ أنت رأيت بنفسك كيف أعجب الناس بى بل وخشونى. أنت رأيت ما حدث هنا فى إفريقيا، حيث تمكنت من منع نشوب حرب ! أنا أونرى لامبير، المعروف فى أوروبا جمعاء على أننى أعظم ساحر على قيد الحياة. والآن، بسبب رجل ما مخّدر متوحش أطلق مسدسه، انتهت حياتى».

قالت «إن حياتك لم تنته. أنت مشهور، لديك مال، يمكن أن توجه جهدك إلى اختراعاتك. وأنا لديك. أنت قلت: إننى أعنى لك كل شىء».

- «أنت كذلك بالفعل».

نظر إليها وهزّ رأسه.

قالت «ما الأمر؟»

- «هل أنت لدىّ؟ أم أن هذا أحد إيهاماتى؟»

- «أونرى، اسمع... أونرى؟»

أشاح بوجهه نحو الحائط.

***

بعد أسبوعين، أبحرت السفينة البخارية ألكسندر من الجزائر العاصمة فى مسارها المعتاد إلى مرسيليا. على السطح العلوى للسفينة

وقف لامبير مع إيميلين، ذراعه اليسرى حول وسطها وهما ينظران أسفلهما إلى الرصيف، حيث وقف مسيو ومدام دو لا جارد والكولونيل دنيو يبتسمون لهما فى مكانهما العالى. أطلقت الباخرة صافرتها وانفكّت مراسى السفينة، لوّح أولئك الواقفون على الشاطىء مودعين. حاول لامبير غريزيا أن يرفع ذراعه اليمنى تحية، لكنها سقطت بجانبه. نظرت إيميلين إلى أسفل لِدنيو وللآخرين. لم تلّوح.

***

فى الصيف التالى، صيف عام ١٨٥٧، أخضعت الجيوش الفرنسية بقيادة الماريشال راندون والجنرال ماكمون المنطقة القبائلية، وبذلك أكملت فتح فرنسا للجزائر.

فى صيف عام ١٩٦٢، أعلنت الجزائر رسميا استقلالها، منهية الوجود الفرنسى فى هذا البلد.

سلسلة روايات الهلال تقدم:

اغتيال نوبل

أسعد الجبوري

١٥ أبريل ٢٠١٧

أحدث إصدارات روايات الهلال عامي ٢٠١٦ - ٢٠١٧

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
شطح الغزالة	علي عيد	مارس	٢٠١٦	٨٠٥
سبع جنات	منير مطاوع	أبريل	٢٠١٦	٨٠٦
العائد من موته	أحمد إبراهيم الفقيه	مايو	٢٠١٦	٨٠٧
أمريكا	فرانز كافكا	يونيو	٢٠١٦	٨٠٨
لودميلا	لينا كيلاني	يوليو	٢٠١٦	٨٠٩
مسامرة الموتى	محمد الغربي عمران	أغسطس	٢٠١٦	٨١٠
القدّاس	نيفيل شوت	سبتمبر	٢٠١٦	٨١١
جراندول	خالد البسّام	أكتوبر	٢٠١٦	٨١٢
سوق علي محسن	نادية الكوكباني	نوفمبر	٢٠١٦	٨١٣
كبرياء الموج	انتصار عبد المنعم	ديسمبر	٢٠١٦	٨١٤
أن تملك وألا تملك	إرنست هيمنجواي	يناير	٢٠١٧	٨١٥
خلاص	د. هشام قاسم	فبراير	٢٠١٧	٨١٦



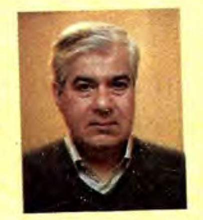
برايان مور

روائي أيرلندي (١٩٢٥ - ١٩٩٩) خدم في الجزائر في الحرب العالمية الثانية، نال جائزة العام لكندا (١٩٥٩)، ورشح ثلاث مرات لجائزة البوكر. له أكثر من ٢٠ رواية، تحول بعضها إلى أفلام سينمائية منها «الروب الأسود» (١٩٩١) و«التقرير» (٢٠٠٣).

«المرابط هو الذي يستطيع إعلان الجهاد، أو الحرب المقدسة ضدنا. في الوقت الحالي، يا صاحب الجلالة: الجزائر عن بكرة أبيها يسيطر عليها شخص يدعى بوعزيز، هو مرابط ذو كاريزما، ظهر في الجنوب ويقال إنه يمتلك قدرات تعجيزية. وبسبب سلطانه، إذا ما أعلن حربا مقدسة، سيعتقد العرب أن الرب يقف إلى جانبهم، وإذا ما قاتلوا سيهزموننا. كان اقتراحي، الذي يوافقني فيه الحاكم العام راندون، إذا ما استطعنا جعل مسيو لامبير يذهب إلى الجزائر، وننظم له عدة عروض أمام مشاهدين من السكان الأصليين، قد نقنعهم بأن الإسلام لا ينفرد بامتلاك قدرات تعجيزية. بمعنى آخر، سنقدم لهم مرابطا آخر أعظم من بوعزيز ونقنعهم بأن الرب ليس إلى جانبهم إنما إلى جانبنا نحن».

هكذا يذهب الساحر في بعثة «ناعمة» إلى الجزائر، مجندا في جيش الإمبراطور نابليون الثالث، يذهب ويعود وهو يعتبر العرب، الجزائريين تحديدا، «متوحشين»، ولا يرى لهم حرمة، ويعتبر مهمته إنقاذا لبلده، فتندهش زوجته الساذجة التي لا تزال سليمة الفطرة، وتتساءل: «بلدنا؟ وماذا عن هذا البلد؟»، وقد حول الاستعمار المساجد إلى كنائس ومسارح.

رواية مكتوبة من وجهة نظر زوجة ترفض بحس فطري إنساني ممارسات زوجها وبلادها وإمبراطورها الذي أغرته الجزائر كنقطة التقاء بين الشرق والغرب، ومفتاحا للتوسع الاقتصادي في إفريقيا.



هشام ممدوح طه

صحفي ومترجم مصري ولد عام ١٩٦٥، ترجم كتبا منها «الحرب النفسية ضد دول المواجهة في منطقة الجنوب الافريقي»، و«إمبراطورية الثروة.. التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية»، وروايات منها «كوكب القردة» لبيير بول في سلسلة «روايات الهلال».

